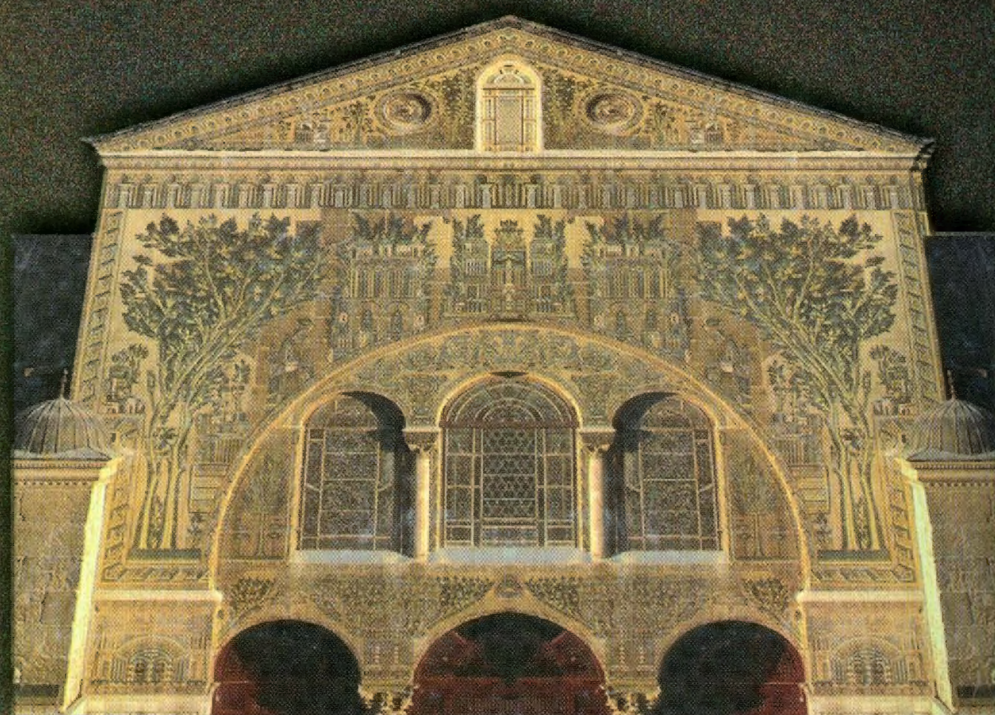
المسيحية والإسلام والاستشراق

محمد فاروق الزين



المسيحية والإسلام والاستشراق/محمد فاروق فارس الزين.ط٢.- دمشق: دار الفكر،٢٠٠٢.-٣٢٠ص؛ ٢٥سم.

١- ٢٣٩ ز ي ن م   ٢- ٢٩١,١ ز ي ن م

٣- العنوان   ٤- الزين

مكتبة الأسد

ع- ٢٠٠١/١١/٢٣٧١

المهندس محمد فاروق فارس الزين

المسيحية والإسلام والاستشراق

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان



دار الفكر
دمشق - سورية

الرقم الدولي : ISBN: 1-57547-806-4

الرقم الموضوعي: ٢١٠

الموضوع: دراسات إسلامية

العنوان: المسيحية والإسلام والاستشراق

التأليف: م. محمد فاروق فارس الزين

التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية-دمشق

عدد الصفحات: ٣٢٠ ص

قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

توزيع دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية

فاكس: ٢٢٣٩٧١٦

هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦

الطبعة الثانية

١٤٢٢هـ=٢٠٠٢م

ط١ ٢٠٠٠م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ﴾.

[البقرة: ٢/٢٥٦]

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

[يونس: ١٠/٩٩]

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾

[الشورى: ٤٢/٨]

قرآن كريم

المحتوى

الصفحة

الصفحة

مُقَدِّمَة

الطبعة الأولى

منذ حوالي قرنين من الزمن بدأت في الغرب عملية علمية للبحث والاستقصاء عن شخص عيسى المسيح التاريخي، أي عيسى المسيح النبي الذي بُعثَ في فلسطين في أوائل القرن الأول، ومحاولة التمييز بينه وبين مسيح بولس الذي آمنت به الكنيسة، وكان من جملة الرواد الأوائل في عملية البحث هذه الرئيس الأمريكي الثالث توماس جفرسون (١٧٤٣-١٨٢٦) الذي حاول تطهير الكتاب المقدس من مفهوم مسيح بولس الميثولوجي والإبقاء فقط على تعاليم عيسى المسيح التاريخي[١]، ومنذ ذلك الوقت، وعلى مدى قرنين من الزمن، ورغم الكثير من العثرات، استجمعت عملية الاستقصاء هذه زخماً في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين على شكل أبحاث أكاديمية كثيرة ومستفيضة[٢]، وبنتيجتها ظهرت على الملأ كمية لا يستهان بها من الكتابات الأكاديمية القيّمة الحديثة أبرزت بشكل واضح وجود فجوة هائلة بين مسيح بولس الميثولوجي وبين عيسى المسيح التاريخي[٣]، ولكن بحسب قول أحد الباحثين الغربيين في هذا المجال: (إن المتشددين المسيحيين -سواء الكاثوليك منهم أو البروتستانت- لشدة توقهم الحفاظ على معتقداتهم بلا تغيير، لا يجرؤون على مواجهة النتائج التي تمخّضت عنها مئتا عام من البحث العلمي في الكتاب المقدس)[٤].

وفي ذلك قوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ [هود: ١١/٥].

وفي الفصول التالية يبيّن الكاتب أن الإسلام سبق علماء الكتاب المقدس بأكثر من اثني عشر قرناً في إنكاره شخصية "كريستوس" الميثولوجية التي تخيلها بولس في المسيح، وبإعلانه على الملأ شخصية المسيح الحقيقية، وأن الإسلام بالإضافة لذلك أنصف عيسى المسيح من التشويه الذي لحق برسالته، وبيّن المغزى والهدف الحقيقي منها، وهو ما اختارت الكنيسة تجاهله .

فمنذ أربعة عشر قرناً أعلن القرآن أن النصارى –وليس المسيحية– كانوا أتباع المسيح التاريخي وهي الحقيقة التي أقرها علماء الكتاب المقدس حديثاً، لقد ميّز الإسلام بوضوح بين حقيقة عيسى المسيح وبعثته التاريخية التي فهمها وتبعها النصارى، وبين مفهوم بولس عن عيسى كأنموذج آخر من الآلهة اليونانية–الرومانية الغامضة، وباختصار فإن الإسلام رسم خطاً واضحاً بين بعثة عيسى المسيح من جهة، وبين المسيحية كديانة نشأت من معتقدات بولس الذي لم يكن يخطط لإنشاء ديانة للأجيال القادمة أصلاً، هذه الديانة التي جعلت من عيسى مجرد شعار لها، في حين أن الإسلام ميّز بين النصارى أتباع عيسى وبين المسيحيين باعتبارهم أتباع عقيدة بولس.

ويرى الكاتب أن البحث العلمي الجاري حالياً في الغرب عن أصل المسيحية والكتاب المقدس يفتقر إلى النظرة الشمولية كونه لايأخذ القرآن دليلاً في البحث عن حقيقة رسالة المسيح، ففي المواضيع الدينية لا يمكن الاكتفاء بالمعرفة "الموضوعية" ما لم تُستكمل بالهدي الإلهي الذي نزل به الوحي، وليس هنالك من وحي سماوي يمكنه أن يلعب هذا الدور سوى القرآن الكريم، **أولاً**: لأنه الوحي الأخير والنهائي الذي نزل على البشرية، **وثانياً**: لأنه بالمقارنة مع الكتاب المقدس فهو الوحي الوحيد الذي بقي سليماً بصورته الأصلية النقية دون تغيير منذ نزوله على النبي حتى اليوم.

وفي حين أن العديد من العلماء الذين تخصصوا بدراسة الكتاب المقدس يتصفون في الوقت نفسه باتخاذ موقف مسبق من القرآن الكريم، فإن الكنيسة من جانبها اتخذت موقفاً سلبياً ليس من المنظور الإسلامي فحسب وإنما أيضاً من

دراسات الكتاب المقدس الحديثة، والنتيجة الحتمية التي ترتبت على ذلك هي ما نراه اليوم من تدهور الإيمان الديني في الغـرب وخاصـة بـين المفكريـن والمثقفـين الذين يبحثون عن ديانة عقلانية وليس ديانة ميثولوجية.

ويرى الكاتب أيضاً أن التوافق الرائع بين ما ظهر من نتـائج أبحـاث الكتـاب المقدس الحديثة وبين الوحي القرآني يمكـن اعتبـاره منطلقـاً لحـوار مفيـد ومثمـر وفعّال وتعاون بين المسيحيين والمسـلمين، وفي ذلـك يلاحـظ المـرء الكثـير مـن نقاط الالتقاء بين معتقدات النصرانية وبين الوحي القرآني.

وبناء على ما تقدم، واستناداً على أبحاث أكاديمية غربية في الكتاب المقـدس، يقدم الكاتب فيما يلي ملخصاً عن نشأة الكتاب المقدس ونشأة المسيحية ومـدى علاقتها بعيسى المسـيح عليـه السـلام، ويصـف الكـاتب أيضـاً كيـف انتصـرت المسيحية الهلنستية تدريجياً علـى حركـة النصـارى الأوائـل مـن صحابـة عيسـى وأتباعه في القدس، هذا النصر الذي تـم تتويجـه في العـام ٣٢٥م بقـرارات مجمـع نيقية التي كرست المسيحية رسمياً، وكيف أنه بظهور الإسلام بعد انعقاد مجمـع نيقية بثلاثة قرون أعاد القرآن الكريم لرسالة عيسى نقاءها وأنصف عيسـى مـن بدع بولس، وفي كل مرة يقارن فيها الكاتب بين عقيدة بولس وبـين المعتقـدات النصرانية يتبع المقارنة بشرح المنظور الإسلامي بهذا النطاق.

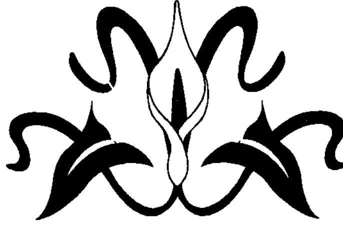
وفي الفصلين الأخيرين يعرض الكاتب للمعتقـدات الأصوليـة المسـيحية عنـد الغربيين باعتبارها القوة الدافعة التي تتكيف بموجبها سياسة الغرب تجاه فلسطين خاصة وتجاه منطقة الشرق الأوسط عامة.

شوال ١٤٢٠ هجرية–كانون ثاني ٢٠٠٠م

محمد فاروق فارس الزين

مراجع المقدمة:

1. (Mack *WWNT* p. 2), (Sanders *HFJ* p.6)
2. (Parrinder *SOJ* p. 95)
3. (Seminar *TFG* p.2ff.)
4. (Wilson *JAL* p. xv)



مُقَدِّمَة

الطبعة الثانية

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ [البقرة: ٢/٨٣]

هذه الطبعة الثانية جرى تنقيحها وتحديثها عن الطبعة الأولى، فمن جهة تمت الاستفادة من مراجع غربية إضافية لفتت نظر المؤلف خلال العام الفائت، ومن جهة ثانية الاستفادة من آراء بعض القراء الذين تكرموا بإبداء ملاحظاتهم على الطبعة الأولى.

والمؤلف يرحب بالآراء التي ترده على قاعدة من الحوار الموضوعي.

رمضان ١٤٢٢ هجرية–نوفمبر ٢٠٠١م

محمد فاروق فارس الزين

mfzein@scs-net.org

الفصل الأول

حرية الفكر وحرية العقيدة
والحروب في الإسلام

الفصل الأول

حرية الفكر وحرية العقيدة والحروب في الإسلام

﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ٤٢/١٥].

١ـ حرية الفكر والعقيدة:

لم يذكر لنا القرآن الكريم ولا الكتاب المقدس أخبار جميع الرسل الذين بُعثوا إلى البشرية منذ بدء الخليقة، والمؤكد أنّ عددهم لا يقتصر على المذكورين في القرآن الكريم، لقوله تعالى: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۞ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٤/١٦٤-١٦٥].

وقوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/٤٤].

وقوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل ١٦/٦٣].

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدَىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١٢/١١١].

حتى خُتمت النبوات والرسالات ببعثة خاتم الأنبياء والرسل وبالقرآن الكريم الذي أوضحَ أنهم لو أعملوا عقولهم في مضمونه لأيقنوا أنه استمرار لما قبله من الوحي: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الأَوَّلِينَ ۞ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/٦٩-٧٠]، أي أنّى لهم إنكار الرسول لو تدبّروا القول –القرآن– وفهموه؟

ثم إنّ القرآن نصّ صراحةً أنّ مهمة الرسل ليست سوى البلاغ المبين، وفي ذلك خاطب القرآن النبي: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٨٨/٢١-٢٢]، أي ليس على الرسول إكراه الناس على الدين بعد البلاغ بل يُترك الإنسان لخياره الحر (١).

أما الحساب والثواب والعقاب فعلى الله وحده، لقوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٨٨/٢٥-٢٦]. وقوله تعالى مخاطباً النبي: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ١٣/٤٠]، وقوله تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٥/٩٢]، وقوله عزّ شأنه ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٥/٩٩]، وقوله عز شأنه: ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ٢٩/١٨]، وقوله عز شأنه ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾ [الشورى : ٤٢/٤٨]، وقوله عز شأنه: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٦/٥٢] .لأن حساب الجميع على الله.

وقد استدل بعضهم أيضاً أن مغزى الآيات نفي الرئاسة الدينية المعهودة في الملل الأخرى كأن يكون لرؤساء الدين حق محاسبة الناس على عقائدهم، أو أن يكون لهم حق حرمان البعض من المغفرة بزعمهم، وحق طردهم من الدين – كما كانت تفعل الكنيسة –، وإذا كان تعالى لم يجعل لنبيه حق محاسبة الآخرين

على عقائدهم وعلى عباداتهم -ناهيك عن طردهم من الدين- فمن باب أولى أن لا يحق ذلك لأحد من الناس، وهذا المعنى ينطبق اليوم بين طوائف المسلمين من سنة وشيعة.

وقوله جلّ شأنه مخاطباً نبيّه: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ۞ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦/٦٦-٦٧] أي سوف تعلمون العاقبة عندما يحين الأوان.

وقوله تعالى في الإعراض عن الخائضين في الآيات: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦/٦٨]، وقوله تعالى في الحساب: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ لأن الحساب على الله ﴿وَلَكِنْ ذِكْرَى﴾ أي على المتقين تذكيرهم بالصواب قبل الإعراض عنهم، أو قد يكون الإعراض في حد ذاته بمثابة تذكير لهم بقبح أقوالهم وأفعالهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦/٦٩]، أي لعل الخائضين في الآيات يجتنبون الخوض والعبث .

وقوله تعالى في سلوك المؤمنين حين يسمعون لغو الكلام من الذين يجهلون الحق من الباطل: ﴿وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ﴾ [القصص: ٢٨/٥٥].

ويُبرز القرآن مبدأ المسؤولية الفردية في الإيمان والطاعة: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور : ٢٤/٥٤] فمن يُطع يهتد، والرسول نفسُه ليس حفيظاً على الناس، ومن باب أولى أنّ باقي المسلمين ليسوا وكلاء على البشر: ﴿مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٤/٨٠] .

أما المكذّبين فقد كان هذا شـأنهم منذ بعث الرسل: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاؤوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ٣/١٨٤].

ثم يهدي اللهُ تعالى مَن يشاء الهداية بخياره، فالهداية – القسرية– ليست وظيفة النبي، ومن باب أولى ليست لغيره، إذ ليس ذلك هدف الوحي: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢/٢٧٢] .

وأما المصرّون على الكفر بعد كل الرسالات والبراهين العقلية والآيات فلا سبيل عليهم بعد البلاغ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ۞ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمْ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ١٦/٨٢-٨٣] .

وقوله جلّ شأنه: ﴿فَمَهِّلْ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ٨٦/١٧]، أي أمهلهم لعلهم يتوبوا، أو أمهلهم ليوم الحساب[٢] .

وقوله جلّ شأنه: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۞ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۞ ولاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ ولاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ ۞ ولاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١٠٩/١-٦]. فهذه السورة توضح السلوك السليم للمؤمنين تجاه الكافرين، ففي حين لا مجال لحلول وسط فيما يتعلق بالحقيقة، فليس من مبرر لاضطهاد الكافرين أو الإساءة إليهم[٣].

وقوله جلّ شأنه: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أي لولا الكثير من العوامل كالجمود على التقليد والقيود العائلية والاجتماعية والمصالح الدنيوية، والأمر في هذه الحالة: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمْ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ١٥/٢-٣].

وبعد الدعوة والمناقشة الموضوعية والخيار الحرّ تُترك الأمور لله البصير بعباده: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣/٢٠] .

ويتكرر التأكيد على مبدأ المسؤولية الفردية وأن المرء لا يؤاخذ بعمل غيره: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ -أي بالقرآن الكريم- وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ۞ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٠/٤٠-٤١] .

وبعد التأكيد على الحرية الفردية في اختيار العقيدة تصبح طريقة الدعوة الإسلامية واضحة للغاية كما في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٦/١٢٥]، فالاهتمام بالدرجة الأولى ينصب على الدعوة باتباع أكثر الأساليب حُسناً وحكمةً لأنّ الله تعالى أعلم بعباده من ضالّين ومهتدين.

ولهذا الغرض نهى القرآن الكريم عن المجادلة مع أهل الكتاب سوى بالأحسن وهو قصارى ما في الدعوة: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٤٦] واستثنت الآية المصرين على الظلم منهم فهؤلاء لا ينبغي المجادلة معهم أصلاً [٤].

وبيّن لهم المزيد عن فحوى المجادلة، كما بيّن لهم بكل وضوح وإيجاز ما يجب أن يكون عليه موقفهم في حال تولّي الطرف الآخر: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاّ نَعْبُدَ إِلاّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٣/٦٤]. وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٤٦] .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: ٨٧/٩] . وهو الأدب في الموعظة ونشر العلم، فالمطلوب هو التذكير إن كان هنالك جدوى تُرجى من الذكرى، أو في جميع الأحوال مع اتباع الأدب.

وكمثال على ذلك يذكر القرآن الكريم موقف نوح من قومه: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود ٢٨/١١]، فإلزام الآخرين على العقيدة على كره منهم مغاير للتكريم الذي خص به تعالى بني آدم في حرية الخيار، كما هو مغاير للهدف من بعث الرسل ولروح القرآن بأن ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦/٢]، وأن ما على الرسول إلاّ البلاغ المبين كما جاء على لسان إبراهيم مخاطباً قومه: ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨/٢٩]، وما جاء على لسان عيسى المسيح مخاطباً ربّه عمّا قاله لقومه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧/٥] .

ويلخص القرآن الكريم مبدأ الحرية الدينية بالآية التالية: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦/٢]، فبعد أن تميّز الحق من الباطل، لا يصحّ أن يكون الإيمان مبنيا على الإجبار والقسر، وإنّما على الحرية والاختيار، لأنّ القهر والإكراه ينافيان التكليف فيبطل معنى الاختبار، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩/١٨].

وقوله جلّ شأنه: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۞ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [عبس: ١١/٨٠-١٢] أي أنّ الآيات تذكرة لما فُطر عليه الإنسان في خَلْقِه من التوحيد والمعرفة بوجود الخالق، فمن شاء ذَكَرَ الله .

ولَو أنّ إرادته تعالى في خلقه أن يكونوا على عقيدة واحدة لكان ذلك: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ولكنّ إرادة الله اقتضت غير ذلك ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في عقائدهم وتوجهاتهم ﴿إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ فهو

على الصراط المستقيم ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ بأن ترك لهم حرية الخيار ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي المصرين على الكفر منهم، [هود: ١١/١١٨-١١٩]. ومغزى الآية أن التنوع في العقائد والأفكار لدى البشر لم يكن مصادفة فكل شيء يسير وفق الخطة الإلهية، ولو كان الناس على عقيدة واحدة لانتفى كل تنوّع وتقدم فكري ولحُرم الناس من الإرادة الحرة التي تمكنهم من الخيار بين الحق والباطل ممّا يعطي الحياة معنىً أخلاقياً وروحيّاً فريداً(٥) وذلك من التكريم الذي خصّ به تعالى بني آدم، والمشار له بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ١٧/٧٠].

ولو شاء تعالى لجعل الناس كلَّهم على الإيمان: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠/٩٩]. غير أنّ حرية الخيار التي كرّمهم تعالى بها تنافي الإيمان القسري وتأكيد ذلك بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلاحَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاّ تَخْرُصُونَ ۞ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ٦/١٤٨-١٤٩]. أي أنّ حجّة البعض بالجبرية باطلة، لأنه تعالى قد أزال الأعذار والموانع عن البشر، وأعطاهم العقول والفهم، وأمكنهم من حرية الخيار، وأقدرهم على الخير والشر، فإن شاؤوا عملوا صالحاً، وإن شاؤوا عملوا بالمعاصي والمنكرات، وأمّا علم الله القديم بما هو كائن وما سوف يكون -وبالتالي أن لا مفر ممّا هو مقدّر-، والذي هو من صفات الألوهية، فليس من الجبرية ولا يناقض الحرية التي منحها تعالى للبشر.

وقوله تعالى ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/٤]، أي فيصبحوا جميعاً مؤمنين طوعاً أو كرهاً ولكن في هذه الحالة يصبح الإيمان غير ذي مغزى أخلاقي(٦).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥/٦]، أي لو شاء تعالى لألجأهم إلى الإيمان، فصاروا كالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، ولكن ذلك ينافي التكليف المبني على حرية الخيار ﴿فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بسنّته تعالى في خلقه أن تكون لهم حرية الخيار، ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦/٦]، الذين يستجيبون هم منفتحو الذهن الذين يستخدمون العقل استخداما سليماً فيكون سماعهم للقرآن ولحقائق الإسلام سماع تفكّر وتأمّل وهو سماع مَن ينشد الحقيقة لا سماع المكابرة والمكر السيء ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ وهم الكفار المصرّون على التقليد والجحود والمكابرة شبّههم تعالى بالموتى لأنهم عطّلوا عقولهم عن التفكير السليم، والمعنى أن موتى القلوب -الكفار- لا يسمعون إلا عندما يبعثهم الله في الآخرة، أما قبل ذلك فلا سبيل إلى سماعهم ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ للحساب.

وكل ما في الأمر أنه تعالى لم يترك الناس على ضلالتهم فالهداية متاحة لمن يختارها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧/١٠]، فهي موعظة وليست قسراً، كما أنها في الوقت نفسه شفاء لما في الصدور من الشك والتردد والحيرة والتخبط، وبالتالي فهي هدى ورحمة لمن يختار الإيمان.

وفي المعنى نفسه قوله جلّ شأنه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨/١٠] .فالرسول -وبالأحرى مَن هم أقلّ منه شأناً- ليسوا وكلاءً على الناس.

وقوله تعالى مخاطباً نبيّه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ إذ لو شاء الله لخلقهم كالملائكة، فيكونوا طائعين مؤمنين بلا خيار، ولكن مضت سنته تعالى أن يكون للبشر حرية الخيار فلا يجبرهم تعالى على الإيمان والطاعة ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ

حَفِيظًا﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام : ١٠٧/٦] لأن الله تعالى وحده الحفيظ والوكيل على عباده .

ورغم حرص النبي على هداية البشر يبقى أكثر الناس على الشرك وفي غفلة وإعراض عن الآيات الكثيرة من حولهم: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۞ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۞ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۞ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٣/١٢-١٠٦]، فأكثر ما يكون إيمانهم مع الشرك.

وفي حين أنّ الجاحدين أكثر ما يكونون غفلةً عن إعجاز القرآن، فإن المؤمنين أكثر ما يكونون شوقاً ورغبة بهدايتهم وتعجباً من رفضهم، مع أنّ الأمر جميعاً بيد الله وحده: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْئَسْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١/١٣]. فلو شاء تعالى لأجبرهم على الهدى ولكن ترك لهم الخيار من حيث أنه رفعهم إلى منزلة المخلوقات ذات الحرية الأدبية والأخلاقية، وفي هذه الحالة فإنّ المصرين على الإنكار لا يؤمنون حتى لو خرج الموتى من قبورهم لإخبارهم بحقيقة الآخرة[٧]. وشبيه بذلك قوله تعالى ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۞ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤/١٥-١٥].

غير أنّ خلق السماوات والأرض ليس عَبَثاً وعندما تُكشف الحجب في الآخرة يصحو الغافلون إلى العاقبة التي اختاروها لأنفسهم فتأتي كنتيجة طبيعية لأعمالهم، أما في الحياة الدنيا فلابد من الصفح الجميل والأخذ بالاعتبار جهل الناس وعجرفتهم وعنادهم، وأحياناً شعورهم بالاكتفاء الذاتي: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ

الْجَمِيلَ۞ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحِجر: ١٥/٨٥-٨٦]، فالقضاء والحساب عند وقوع الساعة أما قبل ذلك فالقرآن يأمر بالصفح الجميل .

وفي الآيات التالية تأكيد على الإعراض عن المشركين وعن الجاهلين الذين أصرّوا على صم آذانهم عن الحقيقة: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ ۞ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ١٥/٩٤-٩٥]، وقوله جلّ ثناؤه: ﴿خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ٧/١٩٩]، والإعراض عن الجاهلين مقتصر على الذين يتغافلون عن الحقيقة عمداً، وليس الذين لا علم لهم بها فهؤلاء يجب إبلاغهم، والآيات خلاصة في طريقة الدعوة، والتعامل مع الناس بمكارم الأخلاق، وترك التشدد ونفي الحرج في التكليف، والرفق واللطف في الدعوة والمعاملة، والتخلق مع الناس بالخلق الحسن، والتسامح وترك الغلظة والفظاظة، والأمر بالعرف وهو المعروف الجميل من الأفعال الذي تعارفه الناس من الخير، وهو ما يستحسن في العقل فعله ولا تنكره العقول الصحيحة، وهو العرف غير المُعارَض بالنص، ويختلف باختلاف الشعوب والبلاد والأزمنة، والإعراض عن الجاهلين عدم مقابلة السفهاء بمثل سفاهتهم والحلم معهم والغضّ على ما يسوء منهم .

وهكذا ينص القرآن صراحةً أن المرء مسؤول عن نفسه وعليه أن يترك الآخرين وشأنهم لأنه لا يؤاخذ بضلال غيره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٥/١٠٥] أي لا عليكم أيها المؤمنين من المقلّدين إن قمتم بواجباتكم من العبادات والتقوى، وقمتم بواجبكم في الدعوة إلى الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا تؤاخذون بضلال غيركم، حتى لو أصر الآخرون على المعصية، وليس عليكم إكراه الغير على الهدى ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي مصيركم إلى الله أنتم ومن خالفكم ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازي كل إنسان بعمله.

ويتكرر المعنى بقوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى ۞ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۞ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى﴾ [عبس: ٨٠/٥-٧]. فما عليك إلا البلاغ، والخطاب وإن كان للنبي فهو بالتالي لكل مسلم.

وأن ليس لأحد غير الله تعالى وحده أن يحاسب العباد: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدّثر: ٧٤/١١]، والأمر لكل فرد أن يترك الحساب على الله وحده: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٦٨/٤٤]، والأمر بالصبر على كلام الآخرين وتركهم لشأنهم بلطف: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ۞ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ٧٣/١٠-١١] وإمهالهم قليلاً أي ليوم الحساب، وفي ذلك قوله جلّ شأنه: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ١٧/٥٤].

أما طبيعة العلاقات بين الطوائف الدينية فأجملتها الآية: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٥/٤٨]، فالحكم المشار له في الآية متعلق بمقاييس الحق والباطل عند أهل الكتاب، ولأن القرآن بهيمنته على ما سبق من الكتب المقدسة صار المعيار الوحيد للحكم بين الحق والباطل، ولكن هنالك تأكيد في الوقت نفسه على حرية المرء في اختيار عقيدته الدينية، ولو لم يكن الأمر كذلك لجعل اللهُ الناسَ أمّة واحدة ذات عقيدة واحدة، غير أن تنوع وغنى الفكر - وليس التجانس الفكري- كان مقصوداً في الخليقة، وبالتالي فإنّ العقليات والأنظمة التي تحاول الإجبار على التجانس الفكري العقائدي تفرز بالضرورة مِن المجتمع مَن تسميهم هراطقة، مع أن التنافس بين الجماعات الدينية والاجتماعية والطوائف يجب أن

يكون في استباق الخيرات وليس في العداوة والخصومات وهذا الأمر واضح جدّا في القرآن الكريم، ففي نهاية المطاف يكون الحساب على الله لأن الجميع يعودون إليه وعندئذٍ فقط تنكشف الحجب ويتبيّن للجميع -على وجه اليقين- الحق من الباطل في معتقداتهم، والنتيجة أن اختبار بني البشر يكمن في مدى قبولهم الاستسلام لإرادة الله وطاعته بحسب الشرائع الدينية التي نزلت عليهم ليتحقق بينهم النمو الروحي والفكري والاجتماعي حسبما أراد تعالى للخليقة، وهو معنى قوله: ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨/٥]. أي في ما آتاكم من العقل، وفي ما آتاكم من الوحي الذي نزل على الأنبياء والرسل. [٨]

وتفصيل ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢/٢].

استثنت هذه الآية الصالحين من اليهود والنصارى والصابئين وطمأنتهم أنّ الله تعالى يحاسب الناس فرادى ولا يحاسبهم أقواما: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي الذين آمنوا برسالة النبي ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ اليهود ﴿وَالنَّصَارَى﴾ الذين نصروا عيسى عليه السلام ولم ينحرفوا عن رسالته ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ وفي اللغة الآرامية الصابغين وهم طائفة موحِّدة، بين اليهود والنصارى أتباع يحيى عليه السلام، الذي لُقّب بالصابغ أي المعمدان، واشتق اسمهم من الكلمة الآرامية: صبغة، لأنهم كانوا يعمّدون أي يصبغون المعتنق الجديد لدينهم في نهر الأردن فصاروا يُدعون الصابغة، وهو شبيه بقوله تعالى ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾ [البقرة: ١٣٨/٢]، ولكن العرب في إحدى لهجاتها كانت تلفظ الغين همزة فصارت الصابئة، وأصلها الصابغة[٩]، وهم غير صابئة حرّان الذين انتحلوا الاسم لأنفسهم للاستفادة من تسامح الدولة الإسلامية مع أهل الكتاب ومع طوائف الموحّدين ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ آمن بالبعث والحساب ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ اقترن إيمانه بالعمل الصالح ﴿فَلَهُمْ

أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ومن مغزى الآية دحض أوهام اليهود أنهم الشعب المختار وأنهم يحتكرون ثواب الله ومغفرته من دون غيرهم من الأمم رغم عصيانهم وجرائمهم، فالآية تحدد أنّ المهم عند الله هو الإيمان به وحده لا شريك له والإيمان بالبعث والحساب والقيام بالعمل الصالح، وأن الدين ليس جنسية كما يزعم اليهود.

وفي قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧/٢٢]، وهو تحديد صريح بأن الفصل بين أتباع الديانات يكون يوم القيامة تأكيداً لقاعدة أن الحساب على الله، وليس للمرء أن يحاسب الآخرين على عقيدتهم، وإنما عليه البيان والدعوة والتذكير فقط.

٢ـ الحروب في الإسلام:

في مقابل ما ذكر أعلاه اعتاد البعض الإشارة إلى الآيات التي تنص على قتال المشركين كما في سورة التوبة: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥/٩]، والآية: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦/٩]، والتي يسمونها آية السيف ويزعمون أنها نسخت الكثير من آيات العفو والمسالمة والصلح وحسن معاملة الآخرين وضمان حرية الدين والإعراض عن المشركين والجاهلين، مع أنّ الصواب أنها لم تنسخ شيئاً لأن كلام الآيتين مخصص عن مشركي الجاهلية في جزيرة العرب دون غيرهم كما هو واضح من سياق السورة، ناهيك أن مبدأ النسخ غير مقطوع به وأقرب إلى البطلان (راجع الملحق ب) وأما حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلا بحق

الإسلام وحسابهم على الله» فالمقصود بالناس سكان جزيرة العرب دون غيرهم، كما في قوله تعالى ﴿وَأَذَانٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ [التوبة: ٩/٣]، وقصد بهم أهالي جزيرة العرب، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧/٣]، وقصد بهم المكلفين من المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣/٣]، فكلمة الناس الأولى تشير إلى منافقي المدينة والثانية إلى مشركي قريش، فالناس لا يُقصد بهم بالضرورة عموم البشر فهو من قبيل إطلاق العام على الخاص، ولأنّ من مقاصد سورة التوبة [الآيات: ٩/١-٢٨] إيضاح أن تكون جزيرة العرب خالصة للإسلام والمسلمين، فمن لم يرغب من المشركين قبول الإسلام له أن يغادرها، وقد أوضح الحديث الشريف ذلك بقوله: (لا يجتمع دينان في جزيرة العرب)، وفي لفظ: (لا يُترك بجزيرة العرب دينان) أخرجه أحمد في مسنده، ومالك في الموطأ، لأنّ الجزيرة مهد الإسلام ومصدر قوته، فيُخشى من إحياء عبادات المشركين والكفار فيها، ومن انتشار معابدهم وطقوسهم وشركهم إذا هم أقاموا فيها، ولذلك حددت آيات [التوبة: ٩/١-٢٨] سياسة الإسلام تجاه مشركي شبه جزيرة العرب فقط وليس خارجها، في حين أنّ الآيات [التوبة: ٩/٢٩-٣٤]. حددت سياسة الإسلام تجاه أهل الكتاب في البلاد المفتوحة.

ومن الواضح أنّ الناس عامة خارج جزيرة العرب ليسوا معنيّين بآيات [التوبة: ٩/١-٢٨] ، ولا بالحديث الشريف عن جزيرة العرب، إذ ينطبق عليهم قوله تعالى ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦]، والآيات عديدة في ضمان حرية العقيدة، والنهي عن العدوان، وترجيح الصلح على القتال كما في آيات [البقرة: ٢/١٩٠-١٩٣]، [النساء :٤/٩٠]، [الأنفال: ٨/٦١]، [الممتحنة: ٦٠/٨-٩]، والآيات أيضاً كثيرة جدا في أنّ الإسلام مبني على الدلائل والحجج والفكر والعقل والنهي عن التقليد كما ذكرنا أعلاه، ممّا طبقه المسلمون عملياً بعد الفتح، حتى أنّ أكثر الناس بقوا على دينهم في البلاد المفتوحة ثم كان دخولهم الإسلام بعد ذلك طواعية وتدريجياً، وفي كثير من أجزاء الدولة

الإسلامية -ومنها الأندلس- بقي المسلمون أقلية لمئات السنين[١٠] وكان هذا من أسباب انتشار الفتح الإسلامي بسرعة مذهلة لأنّ أهالي تلك البلاد كانوا يرحبون بالفاتحين الجدد ويقدمون العون لهم لما اشتُهر المسلمون به من التسامح الديني والليونة وحسن المعاملة، فكانت الفتوحات الإسلامية تحريراً لهم من الاضطهاد الديني والطبقي الذي كانوا يعانون منه تحت حكامهم السابقين، ولهذا السبب امتدّ الفتح واستتبّ من الصين شرقاً حتى الأندلس وفرنسا غرباً في أقل من تسعين عاماً، وبعبارة أخرى فإن الفتوحات الإسلامية، في واقعها، لم تكن سوى حروب تحرير للفكر الإنساني، ولضمان" حقوق الإنسان "كما تسمّى في التعبير الحديث.

أما الأمر بقتال أهل الكتاب [سورة التوبة الآيات ٢٩/٩-٣٤] فيجب أن يُفهم ضمن الشريعة القرآنية المتكاملة، وهي أن القتال يكون دفاعياً فقط وبهدف منع الفتنة في الدين فلا يُضطهد الناس لأجل دينهم ولا يُكرهوا على تركه ولا يُطردوا من ديارهم، لقوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ بلا إكراه ﴿فَإِنْ انتَهَوْا﴾ عن الاضطهاد والقهر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩/٨] أي يبقى حسابهم على الله، وقوله تعالى ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦/٢]، وقوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ولاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨/١١]، وقوله تعالى بعد الأمر بإعداد ما يمكن من قوة: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١/٨]، وقوله تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨/٦٠]. وقوله جلّ شأنه ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢/٥]، والشنآن هو البغض، وجرَم أي اكتسب جرما، والمعنى لا يكون بغضكم لقوم منعوكم أو يمنعونكم من الوصول إلى المسجد الحرام، لا يكون سبباً لأن تعتدوا فتكسبوا

بذلك جرماً، والمنع من الوصول إلى المسجد الحرام قد يشمل في معناه الواسع منع المسلم من ممارسة واجباته الدينية وفرائضه الإسلامية وشعائره، فلا يجب أن يكون ذلك سبباً للمسلم أن يعتدي ويتجاوز الحدّ، لأن الباطل لا يبرر العدوان.

فالحرب لمحض الإكراه والبغي والعدوان والعصبية ولحظوظ الدنيا وشهواتها، أو لغرض الانتقام والأحقاد الدينية -كالحروب الصليبية-، أو لأجل الاستيلاء على ثروات الشعوب وتسخيرهم -كحروب الاستعمار-، كل هذه الحروب محرمة في الإسلام لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٨/٤٧]، وإنّما شرع القتال في الإسلام للدفاع عن الحق وأهله ولحماية الدعوة، فالعدوان المحض مُحرّم بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ٢/١٩٠]، ثم حدّد الهدف من القتال بقوله جلّ شأنه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢/١٩٣].(١١)

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٨/٦٠]، فهو أمر بالاستعداد وحشد القوى لردع العدو الذي لا يرعى العهود طالما المسلمون ضعفاء ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ كناية عن المرابطة أي البقاء في حالة استعداد، أي أعدّوا لهم من القوى ما يلزم للمرابطة ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهو الهدف من حشد القوى والمرابطة، أي لردع العدوان، لأنّ المعاهدة مع الغير يجب أن تكون من موقف قوة وليس من موقف ضعف، حتى يرتدع العدو ويستتب السلام ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ من الأعداء غير المكشوفين ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ﴾ من المال والموارد والجهد ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ للإعداد للقوة وردع العدوان ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ ثوابه من الله تعالى ﴿وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ فلا يلحق بكم ظلم ولا اضطهاد من العدو ولا إخراج من الديار.

ثم أتبع ذلك بقوله جلّ ثناؤه: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٨/٦١]، أي إن مالوا عن الحرب إلى السلم والصلح، بعد أن وقعت الرهبة في قلوبهم من قوة المسلمين ومرابطتهم واستعدادهم، فاجنح لها أيها الرسول - وبالتالي الخطاب للمسلمين في كل مكان وزمان- ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فوّض أمرك إلى الله، ولا تخف من مكرهم وخداعهم، والمعنى أن المسلمين أولى بقبول السلم من غيرهم، لمنع سفك الدماء ولإعطاء السلم فرصة كي تنمو ثماره ولينتشر الإسلام بالقناعة والقدوة، وقد كان ذلك دأب المسلمين في جميع فتوحاتهم يقبلون من خصومهم أول بادرة للسلم والصلح، ويبرمون معهم المعاهدات بأكرم الشروط وأشدها تسامحاً مع أنه كانت لهم اليد العليا فلم يعرف التاريخ فاتحاً أرحم منهم ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقولون ﴿الْعَلِيمُ﴾ عليم بنيّاتهم فيجازيهم بما يستحقونه ويرد كيدهم.

ثمّ زيادة في التأكيد: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٨/٦٢]، أي إن كان جنوحهم للسلم بقصد الخداع ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ يكفيك شرّ خداعهم، والمعنى أنه يجب قبول الصلح حتى لو صالحوا على سبيل المخادعة، لأن الحكم فيه يُبنى على الظاهر، والصلح لا يكون أقوى حالاً من الإيمان، فإذا كان قبول الإيمان يُبنى على الظاهر لا على الباطن، فهاهنا أولى [الرازي]، ولأنه في النتيجة يكون مكرهم السيء وبالاً عليهم، لقوله تعالى: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلاّ بأهله﴾ [فاطر: ٣٥/٤٣]، والخلاصة أن عرض السلام لا يُرفض بلا دليل ولمجرد الشبهة، خاصة بعد أن أعدَّ المسلمون من القوة ومن الرباط ما يستطيعون به الردع فيأمنون الغدر.

ويلاحظ في سيرة النبي أنه ما قاتل المشركين إلاّ دفاعاً، وأما أخذه زمام المبادرة فدفاعاً لا عدواناً، وإحباطاً لخطة الخصم أن يعتدي، وبالتالي كانت حروبه كلّها دفاعية، ومثال ذلك غزوة تبوك عندما توجسّت بيزنطة من انتشار الإسلام في جزيرة العرب وخشيت من توحيد العرب في دولة قوية، فلم يشأ هرقل -إمبراطور بيزنطة- أن يترك أمر المسلمين يتعاظم واستعدّ مع حلفائه من عرب الشام لغزو المسلمين في المدينة وحَشَدَ الجيوش لذلك، ثمّ لم تلبث هذه

الأخبار أن وصلت النبي، فعزم على الخروج للقاء الروم في سورية كما هي عادته في أخذ زمام المبادرة دفاعاً لا عدواناً، ولم تمنعه ظروف الجفاف والحرارة الشديدة التي كانت سائدة وقتئذ في الحجاز وأنّ وقت الحصاد كان قريباً، وعلى غير عادته في غزواته السابقة من كتمان أمره وكتمان وجهة سيره، فقد جاهر النبي ﷺ في هذه المرة بالغرض من حملته وبعث في القبائل يدعوها للاشتراك معه في غزو الروم حتى اجتمع لديه في المدينة ثلاثون ألف رجل خرج بنفسه على رأسهم (رجب العام ٩ هجرية)، وكانت أكبر قوة عددية اجتمعت له في تاريخ البعثة، فلمّا وصل بالجيش إلى تبوك تبيّن أن الروم تخلوا عن خطتهم لغزو المدينة، أو أنهم صرفوا النظر عنها مؤقتاً، ويبدو أنّ هرقل انسحب ولم يجرؤ على المجابهة عندما علم أنّ النبي جاء بنفسه على رأس جيش المسلمين، وفي الحديث: (نُصرتُ بالرعب مسيرة شهر) رواه البخاري وغيره، والتزاماً بالموقف الدفاعي الذي اتخذه النبي طيلة بعثته، عاد بالجيش إلى المدينة بعد أن مكث في تبوك عشرين يوماً عقد خلالها المعاهدات مع قبائل العرب التي كانت متحالفة مع الروم، وبذلك امتدت سلطة المسلمين إلى حدود بلاد الشام، فكانت حملة تبوك تطبيقاً للقاعدة القرآنية بالإذن بالقتال لمنع الفتنة والاضطهاد والإكراه، كما في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٢٢/٣٩-٤٠]، فالإذن بالقتال مشروط بمنع الفتنة والاضطهاد.

وأما قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنْ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣/٩] فهو أمر بقتال الكفار القاطنين في جزيرة العرب، بدليل الآيات التالية [١٢٤/٩-١٢٧]، وهو معنى قوله ﴿يَلُونَكُمْ﴾ أي يجاورونكم، والأمر بقتالهم لأن جزيرة العرب يجب أن تكون خالصة للمسلمين دون غيرهم كما سبق بيانه، ويشمل المعنى أيضاً

الكفار الذين يقدمون من أقطار بعيدة بنوايا عدوانية، فينطبق عليهم معنى ﴿يَلُونَكُمْ﴾ أي يدنون منكم ويصيرون قريبين من دياركم، وقوله ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ الغلظة هي الشدّة وهي ضدّ الرقّة، قال الرازي: التعبير يدل على تقليل الغلظة وهو يصحّ فيمن أكثر أحواله الرحمة والرأفة ومع ذلك فلا يخلو عن نوع غلظة، كأنه قيل لو بحثوا في أخلاقكم وطبائعكم لوجدوا فيكم غلظة، وأن هذه الغلظة تُعتبر فيما يتصل بالدعوة إلى الدين وذلك إمّا بإقامة الحجة والبينة وإما بالقتال، فأمّا أن يحصل هذا التغليظ فيما يتصل بالمعاملات اليومية من بيع وشراء ومجالسة فلا، (انتهى) ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ المراد أن يكون قتال الكفار بدافع تقوى الله لا بدافع طلب المادة والسلطة، والمراد أيضاً اتقاء التقصير واتقاء أسباب الهزيمة بمراعاة سننه تعالى في الخلق باتخاذ الأسباب وإعداد القوة وبالصبر والثبات والنظام وترك التنازع والخلاف، والتوكل على الله فيما وراء الأسباب.

ولنلاحظ وصية النبي لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ فقال له: ﴿إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ﴾ فالملفت للنظر في هذه الوصية كيف أن النبي أكّد على حرية الخيار لأهل الكتاب بتكرار قوله: (فإن هم أطاعوا لك) ثم ختم وصيته بالنهي عن ظلمهم –أي في حال رفضهم.

وفي هذا الموضوع يجدر الذكر أن النبي خلال بعثته [٦١٠-٦٣٢م] بعث برسائل إلى ملوك وزعماء عصره يدعوهم إلى الإسلام، ومن بينها رسالته إلى هرقل إمبراطور بيزنطة حيث وَرَد فيها: (أسلم تسلم، فإن أبيت فإنما عليك إثم

الأريسيين) -رواه الشيخان وغيرهما عن ابن عباس عن أبي سفيان- فالمغزى الأول من الرسالة يحدد: إن أبيت الاستسلام -لله- فتتحمل إثم اضطهاد الأريسيين مع مَن اضطهدهم مِن قبلِك، أما إن استسلمت -لله- فيتحقق لك السلام، أما المغزى الآخر والذي لا يقل أهمية عن الأول فيبيّن أن الحروب في الإسلام دفاعية فقط، لأنّ النبي لم يهدد هرقل بالحرب إن أبى الدخول في الإسلام، كل ما في الأمر أنه حمّله إثم اضطهاد الأريسين والذي يبدو أنه كان مستمراً حتى عهد هرقل، أي أن الحساب -بعد الذكرى- على الله.

ومثل ذلك كانت حروب خلفاء النبي ضد فارس وبيزنطة دفاعية محضة، لأنّ الواقع السياسي الدولي في تلك الحقبة الزمنية كان يتلخص بعبارة: (إما أن تسيطر على الخصم أو يسيطر هو عليك) [١٢]، فالحروب كانت مستمرة بين فارس وبيزنطة للسيطرة على الشام ومصر والعراق قبل أن تظهر القوة الإسلامية الجديدة، فلما تحققت وحدة العرب تحت راية الإسلام تأهبت كل من فارس وبيزنطة لسحقها، وقد تعبّأَ هرقل الروم لغزو الحجاز حتى قبل وفاة النبي كما رأينا، وكسرى الفرس تأهب لغزو الخليج أيضاً، وقد اشتهر عن ثاني الخلفاء عمر بن الخطاب قوله عن الفرس (وددت لو كان بيننا وبينهم حاجزٌ من نار فلا يصلون إلينا ولا نصل إليهم)، وأما تصنيف الفقهاء عن دار الإسلام ودار الحرب فكان منبثقاً من واقع عملي لأوضاع راهنة مفروضة على الأمة، وليس تشريعاً لما يجب أن يكون [١٣].

وأما الجزية التي فرضها الإسلام على أهل الكتاب فلمساواتهم مع المسلمين في واجب الدفاع عن الدولة، ففي حين اعتُبر المسلم مكلفاً بالقتال مع جيوش المسلمين لم يمكن توقع ذلك من غير المسلم لأن الدولة دينية، والقتال يتم عن عقيدة وإيمان، فالدولة تعفي غير المسلم من الاشتراك في الدفاع عنها مقابل الجزية، وهذا هو معنى الكلمة، لأنّ الجزية مشتقة من الجزاء أي المقابل، والمعنى أن غير المسلمين يدفعون الجزية للمسلمين جزاء الحماية لهم، أي مقابل إعفاءهم

من التجنيد، فهي بالتعبير المعاصر "بدل التجنيد"، ولذلك كانوا لا يأخذون الجزية إلا من الأفراد الذين يصح تكليفهم العسكري، فتعفى منها النساء كما يعفى الذكور الذين لم يبلغوا الرشد، ويعفى العجائز والمرضى والمعاقون ويعفى الكهنة والأحبار، كما أنه بنتيجة دفع الجزية يصبح غير المسلم ذمّياً أي يكون في ذمّة المسلمين أي في أمانهم ولذلك سُمّوا أهل الذمّة، وفي جميع الأحوال كان مقدار الجزية رمزياً وأقل بكثير من نسبة الزكاة التي يدفعها المسلمون.

قال الرازي: وإنّما خصّهم تعالى بقبول الجزية لأنهم في الظاهر ألصقوا أنفسهم بموسى وعيسى، وادعوا أنهم يعملون بالتوراة والإنجيل، فلأجل تعظيم هذين الرسولين العظمين وكتابيهما، حَكَم تعالى بقبول الجزية منهم (التفسير الكبير، [التوبة: ٩/٣٠]).

٣- الجهاد:

غلب في هذه الأيام -في وسائل الإعلام- استخدام تعبير "الجهاد" وأحياناً "الجهاد المقدس" بمفهوم خاطىء [(١٤)] ليس له سند في المعاني القرآنية ولا في الحديث الصحيح، ومن ذلك أنهم ترجموا كلمة "الجهاد" إلى اللغات الأجنبية على أنها "الحرب المقدسة" Holy War مع أنه لا يوجد في القرآن ولا في الحديث الشريف حرب مقدسة أو غير مقدسة ولا جهاد مقدس، وإنما فقط جهاد ضد العدوان، والجهاد في العربية مشتق من المجاهدة وبذل الجهد والمجهود ومنه الاجتهاد في العلم والفقه، كقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٦٩] أي الذين بذلوا جهدهم في سبيل التوصل إلى العلم اليقيني وجاهدوا النفس والهوى يهديهم تعالى إلى سبيله كما في قوله: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٦] أي أنّ فائدة المجاهدة تعود على الفرد نفسه، وقوله عزّ شأنه: ﴿فَلاَ تُطِعْ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ -أي بالقرآن- جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥/٥٢] والمجاهدة بالقرآن تكون باتباع تعاليمه في أسلوب وطريقة

الدعوة والمناقشة، وإعمال الفكر والعقل لفهمه والعمل به والدعوة إليه بالقدوة الحسنة في كل مجال، كما في قوله جلّ شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٢٢/٧٧-٧٨] .

وأما قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدْ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٩/٧٣]، فهو إيضاح لطريقة التعامل مع الكفار والمنافقين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ الأمر للنبي، وهو بالتالي لكل مسلم ﴿جَاهِدْ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ المقصود بالجهاد المعنى العام للكلمة، لأن الجهاد عبارة عن بذل الجهد، ومفهومه أوسع من المعنى الضيق للقتال، وليس مقتصراً عليه، والآية توجب الجهاد مع فريقي الكفار والمنافقين معاً، ولما كان قتال المنافقين غير جائز لأن الحكم يُبنى على الظاهر، وهم يُظهرون الإسلام ويُنكرون الكفر، فيكون المقصود أن يكون جهاد الكفار والمنافقين بالحجة والفكر والإقناع، وأما قتال الكفار فقد يضطر إليه المؤمنون بشروطه، كما ذكر في آيات [الأنفال: ٨/٥٥-٥٨]، و [التوبة ٩/٥،٢٩]، ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ فلا تتوصّل معهم إلى حلول وسط في أمور العقيدة ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ إن لم يؤمنوا ويتوبوا.

ولجهة الامتناع عن قتال مّن لم تبلغه الرسالة، أو بلغته ولم يقبلها على الفور، نقرأ قولَه تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩/٦].

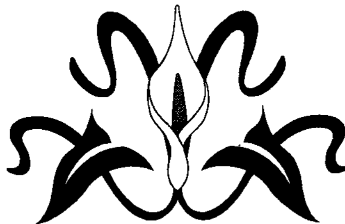
﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ استجارك مَجاز من الجوار، لأن الجار عند العرب يدفع عن جاره أنواع الضرر، والعرب تقول أنا لك جار، أي أمنع الغير من الوصول إليك بضرر، والمعنى إذا جاءك - أيها الرسول- أحد المشركين طالباً الأمان فاستجبْ له ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ وهذا استثناء من آية [التوبة: ٩/٥] . التي تأمر بقتال مشركي جزيرة العرب، لأنّ المشرك أو الكافر إذا جاء طالبا الحجة أو الدليل مستفهما عن القرآن، فيجب

إمهاله ويمتنع قتاله وقتله، حتى يسمع ما يريد من القرآن والدلائل والبينات، فإذا رفض الإسلام بعد ذلك يجب إيصاله إلى قومه أو إلى مكان يأمن فيه على نفسه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي ذلك الأمر بإجارة مَن يريد مِن المشركين، وإتاحة الفرصة لهم لسماع القرآن وفهمه، بسبب أن المشركين جاهلون لا يعلمون القرآن، ولا الإسلام حقّ العلم، والخطاب وإن كان في الأصل موجهاً للنبي ﷺ فهو بالتالي موجه للمسلمين للعمل به في كل وقت.

قال الرازي :هذه الآية تدل على أن التقليد غير كافٍ في الدين، وأنه لا بد من النظر والاستدلال، لأنه لو كان التقليد كافياً لوجب عدم إمهال الكافر فيقال له إمّا أن تؤمن كما نؤمن، وإمّا أن نقتلك، فلما كانت الآية تحرّم ذلك، بل أوجبت إمهال الكافر حتى يسمع كلام الله، كما أوجبت علينا أن نبلغه مأمنه، ممّا يدل أن التقليد في الدين غير كافٍ، وأن لا بد من الحجة والدليل، والإمهال لأجل التفكر (انتهى)، وليس من شكّ أن المسلمين الأوائل فهموا هذا المعنى حق الفهم، وبذلك انتشر الإسلام.

مراجع الفصل الأول:

1. (Ali, THQ p.1642)
2. (Ali, THQ p.1631)
3. (Ali, THQ p.1707)
4. (Asad, MTQ p. 613)
5. (Asad, TMQ p.335)
6. (Asad, MTQ p.197-198,560)
7. (see also Luke 16/31)
8. (Asad, MTQ p.153)
9. (Eisenman, JBJ p.326,331), (Schonfield, TEO p.131), (Dawud, MTB p.143)
10. (Lang, STS p.185)
11. (Asad TMQ p.41,244)
12. (Lang EAA p.133)
13. (Lang EAA p.134)
14. (Hoffman ITA p.161-166)



الفصل الثاني

أصل الكتاب المقدس
والقرآن الكريم
والتسلسل في الوحي السماوي

الفصل الثانـي

أصل الكتاب المقدس، والقرآن الكريم
والتسلسل في الوحي السماوي

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٣٩/٤١].

١ـ تعريف :

تطلق في العربية عبارة "الكتاب المقدس" اختصاراً، كترجمة لما يسمى في الإنكليزية والفرنسية Bible أي الكتاب المسيحي المقدس ، وهو يشتمل –من ضمن أمور عديدة أخرى– على أسس العقيدة المسيحية، وينقسم إلى قسمين رئيسيين: **القسم الأول** يسمى العهد القديم Old Testament وهو الكتاب اليهودي المقدس الذي قبلته المسيحية جزءاً من كتابها المقدس باعتبار تسلسل النبوات من عهد إبراهيم عليه السلام، **والقسم الثاني** يسمى العهد الجديد New Testament ويشار إليه أحياناً بالكتاب المسيحي المقدس –خاصّةً– ويشتمل على رسائل القديس بولس والأسفار القصصية الأربعة عن حياة عيسى المسيح عليه السلام مدوّنة ضمن إطار عقيدة بولس، بالإضافة لرسائل وأسفار أخرى.

٢ـ العهد القديم:

وهو مجموعة من الأسفار اليهودية المقدسة يشار لها أيضاً باسم "الكتاب اليهودي المقدس"، وهي مقبولة لدى المسيحية كجزء هام من كتابها المقدس كونها تحفظ الرسالة اليهودية –شريطة تفسيرها وفق العقيدة المسيحية .-

يشتمل العهد القديم على ٣٩ تسعة وثلاثين سفراً، يطلق على الأسفار الخمسة الأولى منها اسم Pentateuch أي الأسفار الخمسة اختصارا، وتسمّى أيضاً:

التوراة مجازاً، رغم أنه ليس لها علاقة بالتوراة التي نزلت على موسى عليه السلام[١] ولا يمنع ذلك أنّ نصوص وعبارات مبعثرة بقيت فيها من الأصل، وقد كُتبت الأسفار الخمسة في معظمها خلال فترة الأسر البابلي (٥٨٦-٥٣٩ ق م) عندما تم ترحيل اليهود من فلسطين إلى بابل خلال حكم نبوخذ نصّر[٢].

ويسود الاعتقاد لدى علماء الكتاب المقدس أن الأسفار اليهودية تمت إعادة كتابتها وتنقيحها من أربعة مصادر رئيسية أطلقوا عليها اسم (يهوه-إلوهيم-التثنية-الأنبياء)[٣] أقدمها المصدر الأول: اليَهوي -نسبة إلى يهوه أي الله تعالى-، ويُفترض أن هذا المصدر كُتب في القدس خلال حكم النبي الملك سليمان (٩٧٥-٩٣٥ ق م) أي بعد وفاة النبي موسى بحوالي ثلاثة قرون، والمصدر الثاني المسمى إلوهيم -أي الله أيضًا- كُتب في السامرة حوالي العام ٨٥٠ ق م بعد انشطار إسرائيل إلى مملكتين شمالية وجنوبية، والمصدر الثالث المسمى التثنية -بمعنى القانون الثاني-زعموا أنه مخطوطة اكتُشفت في القدس العام ٦٢١ ق م ونسبوها إلى النبي موسى عليه السلام! والمصدر الرابع الذي أطلقوا عليه اسم (الأنبياء-الزبور- الحِكَم) كُتب خلال فترة الأربعة قرون التي سبقت ميلاد المسيح عليه السلام.

وهكذا تمّت كتابة أسفار العهد القديم بعد موسى عليه السلام بفترات طويلة امتدت مئات السنين فاشتملت من المخازي ما لا يحصى، وكثير منها عبارة عن تأريخ قومي للشعب اليهودي متّسِم بالتعصب بحسب عقلية مؤلفيها، مما يفسر اعتقاد اليهود المتأخر أن الله ليس سوى إلها قبلياً خاصاً بهم مجسّداً تعصبهم القومي، أما مؤلفو كتب العهد القديم فليسوا بالضرورة الأنبياء الذين تنسب إليهم الأسفار إذ لا يعدو ذلك مجرد التخمين أو التمني، وقد كان شائعاً كتابة الأسفار ثم نسبها إلى كبار الأنبياء لغرض ترويج عقائد كاتبيها، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾ [الأنعام: ٦/٩١]، والجدير بالذكر أن أقدم مخطوطات لبعض أجزاء العهد القديم الموجودة حالياً هي ضمن

وثائق قمران التي بدأ اكتشافها حديثاً منذ عام ١٩٤٧ قرب البحر الميت بفلسطين، وأرجعوا تاريخها إلى القرن الثاني قبل الميلاد[٤].

تُرجم العهد القديم إلى اليونانية في الإسكندرية بعد عهد الإسكندر الكبير، وقتما كانت اللغة اليونانية هي القاسم المشترك في العالم الهلنسي، وأُطلق على هذه الترجمة اليونانية اسم (السبعينية Septuagint) وهي أقدم ما لدينا من التراجم اليونانية عن الأصل العبري للعهد القديم ، واشتُق اسمها من أسطورة أنّ عدد المترجمين بلغ اثنان وسبعين، بمعدل ستة من كل سبط من أسباط إسرائيل الاثنا عشرة، قيل أن إليعازر كبير الكهنة في القدس أرسلهم للإسكندرية بناء على طلب ملك مصر بطليموس الثاني فيلادلفوس (٢٨٥-٢٤٦ ق م) ثم اشتهرت هذه الترجمة فيما بعد وهيمنت على مؤلفي العهد الجديد كما سنرى.

وقد استمرت المؤسسة الدينية اليهودية في تأليف وإنتاج "الكتب المقدسة" بعد بعثة المسيح عليه السلام، فأنتجت التلمود الذي تمت كتابته بين القرن الثاني والقرن الرابع بعد الميلاد [٥]،غير أن المسيحية لا تعترف بالكتب اليهودية التي كُتبت بعد بعثة المسيح عليه السلام وبالتالي تضع التلمود بمنزلة الأساطير الوثنية[٦].

٣- العهد الجديد:

"العهد الجديد" هو الكتاب المقدس الخاص بالمسيحيين فقط، وباعتبار تسلسل النبوّات فهم يضيفون إليه أسفار "العهد القديم" اليهودية ليشكلا معاً - أي العهد الجديد والعهد القديم- الكتاب المسيحي المقدس-، والعهد الجديد وحده مكون من ٢٧ سفراً.

يطلق مجازاً اسم الاناجيل Gospels على الأسفار الاربعة الأولى من العهد الجديد، وهي أسفار منسوبة إلى متّى ومرقس ولوقا ويوحنا، يفترض أنهم من دعاة المسيحية الأولى، والاسفار الأربعة من جملة عشرات الأسفار التي كانت متداولة في العصر المسيحي الأول، ثم أبطلها المجمع المسكوني الأول الشهير

الذي انعقد في نيقية (إزنيق الحالية) في آسيا الصغرى عام ٣٢٥ م تحت رعاية الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الكبير، حيث تقرر اعتماد هذه الأربعة فقط وإحراق الباقية، ولذا يطلق عليها لقب الأناجيل -الأسفار- القانونية أو المعتمدة Canonical Gospels.

كافة أسفار العهد الجديد كُتبت بعد المسيح عليه السلام بوقت طويل كما سنرى، مع العلم أنّ ترتيب مواد العهد الجديد بوضعه الحالي لا يطابق الترتيب الزمني لتأليفها، إذ كان أول ما تم تأليفه من مواد العهد الجديد هو رسائل بولس، كتبها خلال الفترة (٥٠-٦٠ م)، ثم تبعها تأليف السفر المنسوب إلى مرقس خلال الفترة (٧٠-٨٠ م)، وبعده الأسفار المنسوبة إلى متّى ولوقا كتبت في منتصف الثمانينات من القرن الأول[٧] ، تم تأليف السفر المنسوب إلى يوحنّا خلال الفترة (١١٠-١٣٠ م)، ثم بعض الرسائل التي أضيفت خلال الفترة (١٤٠-١٥٠)[٨] . وقيل أيضاً أن لوقا كتب أعمال الرسل -بالإضافة لسفره- في مطلع القرن الثاني[٩] أي بعد وفاة المسيح بحوالي خمسة وسبعين عاماً ، وقد كُتبت جميع مواد العهد الجديد في مناخ من نبوءات بولس بأنّ عيسى المسيح على وشك العودة إلى الأرض بسلطة ملكية دنيوية لكي يحقق في مجيئه الثاني ما لم يستطع تحقيقه خلال مجيئه الأول، وقد تنبّأ بولس بأن المجيء الثاني سيتمّ خلال حياته هو شخصياً وحياة معاصريه.

والجدير بالذكر أنه وقت كتابة أسفار ورسائل العهد الجديد لم تكن تعتبر هذه الكتابات مقدسة ولا وحياً سماويّاً[١٠]، وليس مؤكداً أن مسيحيي ذلك العصر كانوا على استعداد لقبول العقائد الكنسية التي نشأت بعدهم في وقت متأخر كتلك التي اعتمدها مؤتمر نيقية في العام ٣٢٥ م، علماً أن المسيحيين لم ينسبوا شيئاً من القداسة إلى الأسفار والرسائل إلاّ مع أوائل القرن الثالث، ولم تكن الأسفار الأربعة المذكورة هي الوحيدة المتداولة وقتئذٍ، فقد تم تأليف وتداول الكثير غيرها بلغ عددها العشرين على الأقل وقد تكون أكثر بكثير[١١]،

أما الرسائل Epistles فقد كانوا يتداولون المئات منها كل جماعة تفسر الديانة بحسب هواها، ثمّ ترتّب الانتظار حتى أوائل القرن الرابع كي يتم انتقاء الأسفار والرسائل التي اعتُمدت ضمن "الكتاب المقدس"، وكان ذلك في مؤتمر نيقية في العام ٣٢٥ ميلادية حيث اختيرت الأسفار الأربعة المذكورة من بين العديد من الأسفار الكثيرة التي كانت متداولة، والواقع أن المواد التي وقع عليها الاختيار لإدراجها ضمن الكتاب المقدس لم تكن تشكل وقتئذٍ سوى جزءاً قليلاً من مجموعة الكتابات الدينية المتداولة، وهكذا نتج الكتاب المقدس الذي سمّوه مجازاً (كلام الله) فأصبح بالنسبة للكنيسة وثيقتها الرسمية التي مكنتها من لعب دورها ليس فقط في إمبراطورية قسطنطين وإنما أيضاً لأجيال المستقبل القادمة(١٢) .

وإذا أخذنا بالاعتبار أن المؤرخين حددوا وفاة عيسى المسيح عليه السلام ما بين عام ٣٠ ميلادية في أقل تقدير، وعام ٣٧ ميلادية على أكثر تقدير(١٣) - وكانت ولادته ما بين عامي ٤-٧ قبل الميلاد- (١٤) فيكون بولس قد كتب رسائله بعد المسيح بحوالي ٢٠-٣٠ عاماً، وتكون الأسفار الأربعة كُتبت بعد المسيح بفترة ٤٠-١٠٠ عام، والواضح أن مؤلفي الأسفار وقتئذٍ كانوا يعتمدون على الأقاويل وعلى ذاكرة مَن حولهم بعد وقوع الأحداث بعشرات السنين، خالية من الإسناد، ولم يكن أيّاً من المؤلفين شاهد عيان للأحداث وقت وقوعها، وهذا أحد الأسباب لما نراه حاليا في الأسفار والرسائل من التنافر والتناقض واستحالة التوفيق بين بعضها البعض في الكثير من المواضيع، ومنها مواضيع ليست بالسطحية بل هامة جداً ليس أقلها التناقض في قصص ولادة المسيح عليه السلام، والبشارة إلى السيدة مريم العذراء عليها السلام، واختلاط كلامهم في عذرية مريم، وما زعموه من أنساب المسيح وسلالته وأخوته، وغير ذلك.

ومن الغريب أن رسائل بولس، التي كانت أول ما دُوّن من العهد الجديد، لم تذكر سوى أقل القليل عن حياة عيسى وتعاليمه ورسالته السماوية، ومن

أسباب ذلك أن بولس لم يكن من حواريي المسيح ولا من صحابته ولم يلتق به في حياته ولم يكن شاهداً على الأحداث عند وقوعها، ناهيك أنه لم يكن مكترثاً برسالة المسيح على الأرض أصلاً(١٥)، وقد لزم انقضاء عشرات السنين بعد بولس حتى تمت كتابة الأسفار القصصية التي تروي لنا أجزاءً منقوصة غير كاملة بل متناقضة من حياة المسيح، ومن ذلك مثلاً أن الأسفار الثلاثة الأولى تصور لنا دعوة المسيح محدودة في معظمها بالجليل باستثناء الأسبوعين أو الأسابيع الثلاثة الأخيرة من حياته، كما تعطي الانطباع أن دعوته بالكامل لم تدم أكثر من عام واحد مما هو شديد الغرابة، بالمقارنة مع السفر الرابع الذي يعطي الانطباع أن الدعوة استمرت أكثر من عامين وأن جزءاً مهماً منها كان خارج الجليل(١٦) ، وهذا سبب آخر يحول بيننا وبين اعتبار الأسفار تاريخاً واقعياً موضوعياً لسيرة المسيح عليه السلام(١٧).

فالمفترض في الأسفار القصصية الأربعة -لمتّى ومرقس ولوقا ويوحنا- أنها أسفار وثائقية لسيرة المسيح عليه السلام، غير أنها لسوء الحظ لم تنبثق من روايات شهود عيان، ولكن من أقاويل تم سماعها -دون إسناد- بعد مرور عقود عديدة على وقوع الأحداث، ولا ريب أن المعلومات التي جرى تدوينها وصلت عبر مصادر مجهولة إلى المؤلفين الذين كتبوا الأسفار، علماً أن المؤلفين أنفسهم مجهولو الهوية بغض النظر عن نسب الأسفار إلى أشخاص معينين(١٨).

وتبرز من الأسفار القصصية مشكلة رئيسية أخرى وهي أنها حاولت توثيق حياة المسيح بصورة غير متوازنة إذ لم يذكروا فيها كل مراحل حياته، وحتى المراحل التي ذُكرت من حياته لم تُعطَ قدراً متساوياً من الاهتمام، فقد جرى التركيز الأكبر على الأسبوع الأخير من وجوده في القدس، كما لو كانت كل مراحل حياته السابقة مقدمة لذلك الأسبوع، مع إعطاء الانطباع أن محور قصص الأسفار هو "آلامه المقبلة"، ومع تصوير المسيح على نحو سلبي محض، فهو ليس سوى متلقّ للأحداث ينتظر ما يأتيه مستسلماً دون القيام بدور فاعل،

وغالباً دون أخذ أي مبادرة من جانبه، والأهم من كل ذلك عدم إعطاء أهمية كافية لبعثته النبوية أو رسالته المسيحانية على الأرض، كما لو كانت "آلامه المقبلة" وموته هي محور بعثته، دون أي مغزى عملي لرسالته وتعاليمه.

وهنالك صعوبة أخرى تواجه الباحث وهي أن جميع أسفار ورسائل العهد الجديد كتبت باللغة اليونانية أصلاً، في حين أن اللغة التي نطق بها عيسى المسيح كانت الآرامية، وكانت اللغة الشائعة في فلسطين وقت بعثته عليه السلام[١٩]، والنتيجة أن جميع أقوال وتعاليم المسيح تمت ترجمتها بعد وفاته بعشرات السنين من الآرامية المسموعة حسب ذاكرة مَن تناقلوها إلى اليونانية المكتوبة، وبالتالي فإن ما نُسي أو تشوه أو تغير وتبدل وأضيف خلال عملية الترجمة لن يمكن معرفته إلى الأبد[٢٠] فلا بدّ أن الكثير من الضياع والتشوه قد لحق مثل هذا التوثيق المتأخر، والنتيجة التي لا مفر منها أن إطلاق تعبير (كلام الله) على الكتاب المقدس، أو اعتباره وحياً سماوياً، ليس إلا من قبيل التمني أو الدافع الديني الطيب[٢١]، والواضح أن كلام الله الموحى إلى المسيح عليه السلام قد ضاع أكثره.

وباستثناء رسائل بولس، لا يمكن التأكد من مؤلفي باقي أجزاء العهد الجديد، إذ كان شائعاً في ذلك الوقت كتابة الأسفار أو الرسائل ونسبها إلى شخصيات كبرى كالأنبياء والرسل، ولم يكن يعتبر ذلك في نظرهم غشّاً أو عدم أمانة[٢٢]، وهذا من الأسباب التي تجعلهم يقولون "السفر المنسوب إلى مرقس" أو المنسوب إلى متّى أو إلى لوقا أو إلى يوحنا، بدلاً من القول سفر مرقس أو سفر متّى.. إلخ، ولذلك فعندما يذكر المرء "سفر مرقس" أو "سفر متّى"..إلخ فليس معنى ذلك أن المؤلف هو مرقس أو متّى بذاته.. وإنما يقال ذلك فقط لتحديد السفر الذي يشير إليه المرء دون الاعتقاد أنّ مؤلفه مرقس أو متّى فعلاً، باعتبار أنّ المؤلف الحقيقي مجهول الهوية، ويجب أخذ هذه النقطة بالاعتبار كلما ذُكر اسم سفر من الأسفار[٢٣].

ومع ذلك فإنه يطلق على الأسفار الأربعة صفة "القانونية" أو "المعتمدة" لأنه تم اعتمادها من قبل مجمّع نيقية من بين أسفار كثيرة شاعت في القرون المسيحية الأولى، وفي حين أن المسيحية اليوم تعتبر نصوص الكتاب المقدس غير قابلة للجدل فإنه خلال القرون الأربعة الأولى لم يخلُ أي سفر من الأسفار من اعتباره إما مزيّفاً أو هرطقة[٢٤] . غير أن مجمع نيقية قرر اعتماد الأسفار الأربعة المذكورة فقط دون غيرها، ومع نهاية القرن الرابع انتهى كل شيء، أحرقت باقي الكتب ودُمّرت معابد المخالفين وقتل الكثير منهم[٢٥].

الأسفار الثلاثة الأولى من العهد الجديد تسمّى الأسفار المتشابهة بالنظر لتقارب وتشابه المواضيع التي تغطيها، أما السفر الرابع المنسوب إلى يوحنا فيختلف عن الثلاثة الأولى من حيث أنه يدخل في مواضيع لاهوتية متقدمة ويشتمل على عقائد مسيحية موغلة في التنظير[٢٦]، كالاعتقاد بالوجود المسبق والخالد لعيسى "الكلمة"، وأن المسيح إله تجسّد بلحم ودم وتحول بين البشر مخفياً طبيعته "الحقيقية"، أي أنه الإله المتجسّد[٢٧]، ومن المؤكد أن السفر الرابع كان آخر ما تم تدوينه من الأسفار في وقت متأخر حوالي العام ١٣٠م.

أما السفر الخامس في العهد الجديد فيطلقون عليه اسم "أعمال الرسل"، وينسبون تأليفه إلى لوقا، وقد يخيّل للمرء من عنوان السفر أنه يبحث في أعمال الحواريين صحابة عيسى الاثنا عشر عليهم السلام، ولكن لدى قراءته يتبين خطأ هذا الانطباع إذ يكاد يكون السفر بكامله مخصصّاً لرواية حياة بولس رغم أنّ بولس لم يكن من الحواريين، وفيما عدا بطرس فإنّ سفر "أعمال الرسل" لا يكاد يذكر شيئاً عن بقية الحواريين، وحتى بطرس نفسه فقد جرى إدخاله في السفر لإعطاء الانطباع بوجود استمرارية بين رسالة المسيح عليه السلام وبين أفكار بولس وأن هنالك قدرا من الاتفاق بينهما، وفي ذلك ذكر أحد المختصين (لا يمكن اعتبار سفر أعمال الرسل توثيقاً تاريخياً ولا حتى قصصياً جيداً)[٢٨].

وقد أقر اللاهوتي المسيحي أوريجون في القرن الثالث أن المخطوطات المقدسة كانت عرضة للتنقيح والإضافة والحذف لتناسب أهـواء ومعتقـدات مـن نصبـوا أنفسهم "مصححين لها"[٢٩].

ولا شك أن الإنجيل المشار له أربعة مرات في القرآن الكريـم، ليـس الأسـفار الأربعـة ولا إحداهـا، وليـس العهـد الجديـد، ولا هـو "الكتـاب المقـدس " عنـد المسيحية، وإنما هو الوحي الإلهي الذي نـزل علـى عيسـى المسـيح عليـه السـلام والذي كان معروفاً لدى أتباعه النصـارى بالاسـم اليونـاني "ايفـانجليون" بمعنـى البشارة السارة ومنه اشتق الاسم بالعربية، وبعبارة أخرى أن إنجيل عيسى مختلف عن الأسفار المشار لها أعـلاه التـي تتحـدث عـن عيسـى، ولا ينـاقض ذلـك أن الأسفار المتعددة قد تكون اشتقت منه بعض موادها، وهكذا يبرز الفارق الكبـير بين "إنجيل عيسى" وبين الأسفار التي كُتبت "عن" عيسى في وقت متأخر.

٤- التطور من سفر الأقوال إلى الأسفار القصصية:

يلاحظ من تمحيص الأسـفار الأربعـة المعتمـدة أنّ كـلاً مـن متّـى ولوقـا، في السفرين المنسوبين لهما، ضمّنا الكثير من سفر مرقس، لدرجة أنّ لوقا اسـتخدم حوالـي نصـف سـفر مرقـس، وأن متّـى كـرر حوالـي تسـعين بالمئـة مـن مـواد مرقس[٣٠]، هذا مع العلم أن مرقس، كائناً من كان، والذي جرى الاقتباس منه، لم يكن من صحابة المسيح بحسب جميع الأسـفار، غـير أنـه كـان أول مـن بـدأ بالتدوين من بين الأربعة بعد خراب القدس في العام ٧٠م. ، وفيما عدا الأجـزاء التي نقلها متّى ولوقا من مرقس، فقد لاحظ البحّاثة أن أجزاء أخرى لا يسـتهان بها من سفري متّـى ولوقـا متشـابهة إلى حـدّ كبـير ومتصفـة بأنهـا ذات علاقـة بأقوال وتعاليم المسيح، وبما أنّـه يسـود الاعتقـاد أنّ كـلاً مـن متّـى ولوقـا كتبـا سفريهما بصورة مستقلة عن الآخر، فقد خَلُص بعض العلماء حديثاً إلى النتيجـة بأنه كان يوجد في الأصل سفر غير قصصي أطلقوا عليه اسـم "سـفر الأقـوال"،

أي أقوال المسيح -اعتمد عليه كلّ من متّى ولوقا- يُفترض أنه اشتمل على مجموعة وافية من الأحاديث التي تكلم بها عيسى المسيح.

ومن جهة أخرى لاحظوا أنّ أقساماً من سفر متّى لا تتفق مع لوقا، مما قد يدل على تعاليم خاصة بعيسى، حرّفها كلّ من متّى ولوقا، كلٌّ بحسب قناعاته الشخصية[٣١].

وقد رمزوا إلى سفر الأقوال المشار له أعلاه، والمفترض أنه كان مشتملاً على أقوال المسيح، بحرفQ (من الألمانية Quelle بمعنى النبع أو المصدر)، ثم إن الدارسين استنبطوا سفر الأقوال من سفري متّى ولوقا استنباطاً، إذ لا يوجد حالياً أي نسخة أصلية منه، غير أن الاكتشاف الذي حدث عام ١٩٤٥م في نجع حمادي بمصر، والذي نجم عنه العثور على مخطوطات قديمة باللغة القبطية، من ضمنها سفر توما الشديد الشبه في محتواه بسفر الأقوال، قد عزّز الاعتقاد بفرضيةQ [٣٢] ما يثبت أن النصارى الأوائل قد دوّنوا بالفعل سفراً مشتملاً فقط على تعاليم عيسى المسيح[٣٣].

وإذا صحّت نظرية العلماء عن وجود سفر الأقوال وأنه كان يشتمل فقط على خلاصة وافية من أحاديث المسيح فقد يكون أقرب ما يمكن إلى الإنجيل المشار له في القرآن الكريم، وذلك من ناحية المبدأ وليس بالتفصيل، أو قد يكون مشابهاً لما يسمى عند المسلمين بالحديث النبوي الشريف، أي مجموعة الأحاديث النبوية الصحيحة، وبالنتيجة يمكن اعتبار سفر الأقوال بمثابة سفر عيسى المسيح نفسه بالمقارنة مع الأسفار القصصية الأربعة التي تتحدث عنه، والفروقات كبيرة وجذرية بين الجهتين، وليس معنى ذلك أن الأحاديث المذكورة في سفر الأقوال صحيحة مائة بالمائة، فكل ما هنالك أن الدارسين استنبطوا ما هو بنظرهم أقوال عيسى المسيح الصحيحة بنتيجة أبحاثهم، وجمعوها في سفر الأقوال، ولا يخفى ما في ذلك من صعوبة بعد انقضاء ألفي عام على الأحداث ولغياب الإسناد وعدم معرفة الرواة، وقد تم نشر عدة طبعات من إنجيل الأقوال متداولة الآن في المكتبات الغربية.

ويبدو أن سفر الأقوال الأصليQ كان متداولاً بين النصارى في وقت مبكر حوالي العام ٥٠م[٣٤]، أي قبل ظهور بولس ونشاطاته المسيحية على مسرح الأحداث، وعلى افتراض أن نصارى القدس هم الذين قاموا بجمع سفر الأقوال فيلزم أن تكون محتوياته أقرب إلى أقوال عيسى المسيح الصحيحة إذ لم يتأثر بمبتدعات بولس اللاهوتية، ومن ذلك أنّ سفر الأقوال لا يعزو صفة الألوهية إلى عيسى المسيح، وإنما يعتبره رسولاً بشراً أُرسل ليدعو قومه إلى التوبة قبل فوات الأوان، كما ليس في هذا السفر أي إشارة إلى قصة الصلب التي كان أول مَن روّجها مرقس بعد حوالي أربعين عاماً من وفاة المسيح، وليس فيه "قصص الآلام" -الخاصة بالصلب- التي ركزت عليها الأسفار الأربعة[٣٥]، والجدير بالذكر أيضاً أنه كان يوجد لدى نصارى القدس سفر خاص بهم مدوّن بالعبرية يدعى "سفر النصارى"[٣٦].

كان اكتشاف مخطوطات نجع جمادى بمصر العام ١٩٤٥م من أهم مفاجآت العصر الحديث خاصة لوجود سفر توما من ضمنها والذي تبين أنه على درجة فائقة من الأهمية، ويعود تاريخه إلى القرن الرابع الميلادي، وهو مترجم عن بعض مخطوطات يونانية يعود تاريخها إلى الربع الأخير من القرن الأول بعد الميلاد[٣٧]، ويشتمل سفر توما على ١١٤ من الأحاديث المنسوبة إلى عيسى المسيح عليه السلام، ويختلف عن الأسفار الأربعة المعتمدة بأنه ليس سفراً قصصيّاً، وليس فيه إلا أقل القليل من الحوار، كما ليس فيه أي كلام أو إشارة عن ما قيل من "آلام المسيح" المقبلة التي زعموا أنه تنبأ بها، ومن هذه الناحية فهو شديد الشبه بسفر الأقوال Q، وهنالك تطابق في حوالي أربعين بالمئة من الأقوال فيهما[٣٨]، والواضح أن سفر توما نجا من الحرق الذي كان مصير بقية الأسفار التي أحرقت على عهد الإمبراطور قسطنطين بعد مجمع نيقية الشهير والاضطهادات "الدينية" التي تبعته.

٥- نشوء الأسفار:

جميع الأسفار التي بين أيدينا تم تأليفها تحت هيمنة مسيحية بولس الهلنستية، ففي سفر يوحنا مثلاً تحول عيسى المسيح من نبي بشر إلى "كريستوس Chrestos" مؤلّه بالمفهوم اليوناني الهلنستي، وجعلوه أزليّاً مع "الأب"، كما اشتمل هذا السفر -الرابع- على أساطير الصراع بين النور والظلام، وتعريف المسيح بأنه الكلمة "لوجوس" Logos، وكلّها أفكار هلنستية محضة، منبثقة في أصلها من عبادة ميثراس(٣٩).

أما مرقس، الذي يعتبر نموذجاً للثقافة الهلنستية، فجميع الأسفار متفقة على أنه لم يكن من حواريي المسيح، ومع ذلك فقد كان أول من كتب سفراً قصصيّاً بعد انقضاء حوالي أربعين عاماً على وفاة المسيح عليه السلام، وفي سفره نجح مرقس في دمج شخصية المسيح التاريخية ضمن العقيدة الهلنستية الخاصة بالآلهة التي تموت ثم تنهض من الموت، ولم يكن مرقس بالطبع أول من ابتكر هذه الفكرة، فقد سبقه إليها بولس، وكان من الطبيعي أن قام مرقس بتوثيقها لكونه شخصيّاً من دعاتها المؤمنين بها، وبعد مرقس بأكثر من عشرة سنوات كتب كلّ من متّى ولوقا سفريهما معتمدين بشكل كبير على ما كتبه مرقس قبلهما(٤٠).

ولأغراض الدعاية والترويج لأفكارهم، نسب مؤلفو الأسفار إلى عيسى الكثير من الأفكار والأقوال ممّا يتفق مع معتقداتهم الهلنستية وممّا يرغبون ترويجه من معتقدات باعتبارها، بالنسبة لهم، الأشياء التي يُفترض أن قالها عيسى أو كان يجب أن يقولها(٤١)، كل ذلك بغرض الترويج لديانة لم تكن سوى بديلاً جذرياً عن عقيدة المسيح، وهكذا لم يبقَ في المسيحية الهلنستية من رسالة عيسى سوى اسمه إذ تمسّكوا به رمزاً للديانة الجديدة.

والخلاصة أنّ نشوء أسفار العهد الجديد مرّ بالمراحل التالية: **أولاً:** سفر الأقوال المشتمل على أحاديث عيسى التاريخية قبل أن يداخلها الفكر الهلنستي، **ثانياً:**

كتابة بولس لرسائله والتي أحلّ فيها "كريستوس" الهلنستي الميثولوجي محلّ عيسى المسيح التاريخي، **ثالثاً:** كتابة الأسفار القصصية، التي صارت فيما بعد معتمدة وقانونية، وهي قد دمجت شخصية عيسى المسيح الحقيقي في شخصية "كرستوس" الهلنستية الميثولوجية التي ابتدعها بولس، لكون مؤلفيها من المتشبعين بالثقافة الهلنستية ومؤمنين بعقيدة بولس.

وبالإضافة لذلك شاعَ لدى مؤلفي الأسفار القصصية تعديل أجزاء من الترجمة السبعينية اليونانية للعهد القديم وإدخالها ضمن نصوص الأسفار المسيحية بهدف البرهنة على نقطة ما، أو للدلالة على تحقق نبوءة معينة، فكان من المقبول جداً اقتباس نص أو نصوص من العهد القديم ثم إعادة كتابتها وصياغتها وتفسيرها على نحو مغاير للأصل تماماً، وبهذا الأسلوب كانوا يقومون بعملية "تحديث" للنصوص اليهودية القديمة كي تطابق أحداث عصرهم ولكي يبدو العهد الجديد "محققاً" لنبوءات العهد القديم[٤٢].

ويترتّب على كلّ ما سبق استحالة قراءة الأسفار القصصية على أنها تاريخ صحيح، فالأسفار لا يُعتمد عليها من الناحية التاريخية، وإنما هي قصص تم تأليفها عن عيسى المسيح من قبل مجتمع المؤمنين بعقائد بولس لتعزيز عقائدهم والبرهنة عليها، ومن تلك العقائد مثلاً أن عيسى قد أسس كنيسة مسيحية ذات كيان معين من الكهنوت ذوي المراتب والصلاحيات، ومنها أيضاً أن عيسى مات مصلوباً وأنه سوف يعود إلى الأرض بدور القاضي الحاكم على البشرية، ومنها الاعتقاد بأنه مؤسس طقس القربان المقدس، وأنه الفادي المخلّص الذي أنقذ البشرية من تبعات الخطيئة، وأنه أيضاً -بحسب السفر الرابع- ذو طبيعة إلهية، إلى آخر ذلك من العقائد التي ابتكرها بولس. وأغرب ما في الأمر أن الكنيسة صممت على جعل كتابات بولس والأسفار المتضمنة عقائده أساساً لدين جديد نسبته، ليس لبولس، وإنّما لعيسى المسيح نفسه.

٦- طبعات الكتاب المقدس:

طبعات الكتاب المقدس ليست بالضرورة متماثلة فهي تختلف بحسب الزمن الذي صدرت فيه وبحسب الطوائف المسيحية التي أصدرتها، فطبعة الروم الكاثوليك تشتمل على سبعة أسفار إضافية لا يعترف بها البروتستانت إذ يصفونها بالخرافية أو الأسطورية، وبالمقابل يرد الكاثوليك بأن هذه الكتب السبعة ليست سوى مجموعة ثانية متأخرة من الكتب القانونية deutrocanonical(٤٣)، وهكذا فإن طبعة الروم الكاثوليك تشتمل على ثلاثة وسبعين سفراً في حين طبعة البروتستانت تشتمل على ستة وستين سفراً. والملاحظ أن دور النشر تقرر إلى حد كبير أي من الأسفار أو النصوص تدرج أو تغفل من الكتاب المقدس والنزاع مستمر حتى اليوم.

٧- التطور التاريخي لطبعات الكتاب المقدس:

المعروف أن المسيح عليه السلام تكلم اللغة التي كانت دارجة في فلسطين وقت بعثته وهي اللغة الآرامية، أما العبرية فلا تعدو كونها إحدى لهجات اللغة الآرامية، وقد رأينا أن العهد الجديد بأكمله تم تأليفه أصلاً باللغة اليونانية، وبالتالي فإنّ أقدم مخطوطات الأسفار المسيحية الموجودة بين أيدينا اليوم هي مخطوطات يونانية، أي ليست باللغات التي تكلمها عيسى المسيح والحواريون عليهم السلام، ولذا تواجه العلماء صعوبة كبرى تكمن في الكيفية التي تُرجمت بها أقوال عيسى المسيح الآرامية إلى اللغة التي كُتبت بها الأسفار وهي اليونانية، يضاف إلى هذه الصعوبة أنّ أقدم المخطوطات اليونانية الموجودة لدينا اليوم يعود تاريخها إلى ما بعد العام ٢٠٠ ميلادية (٤٤).

أما النسخة الآرامية الموجودة بين أيدينا اليوم التي تسمّى البشيتا (Peshitta) بمعنى البسيطة، والمكتوبة باللهجة السريانية، فقد تُرجمت عن اليونانية خلال الفترة ٤١١-٤٣٣م، والترجمة تمّت في مدينة الرها التي كانت عاصمة اللغة السريانية في جنوب شرق آسيا الصغرى، وقد اعتمدتها الكنيسة الشرقية، وهذه

النسخة مكونة من ٢٢ سفراً فقط، وقبل ذلك في العام ٣٨٢ قام جيروم Jerome بترجمة العهد الجديد من اليونانية إلى اللاتينية وهي الترجمة التي اشتهرت باسم فالجيت (Vulgate) بمعنى الشعبية أو الشائعة وأصبحت فيما بعد النسخة الرسمية للكتاب المقدس عند الكنيسة اللاتينية(٤٥).

وأما النسخة العربية فإنه حتى القرن الرابع الهجري لم تكن قد وضعت للعهد الجديد ترجمة عربية، نعرف هذا من مصادر أبي حامد الغزالي الذي اضطر أن يلجأ إلى مخطوط قبطي كي يحرر كتابَه: (الرد على من ادعى ألوهية المسيح بصريح الإنجيل)، وقد ذكر الأب شدياق R.P.Chediac أن أول نص مسيحي ترجم إلى العربية كان مخطوطاً بمكتبة القديس بطرسبرج كُتب حوالي عام ١٠٦٠م، وكان شدياق قد اضطر للبحث في كل ناحية عن المصادر الإنجيلية التي استخدمها الغزالي في تأليف "الرد" حين كان يريد ترجمة مؤلّف الفيلسوف(٤٦)، غير أن مصادر أخرى ذكرت أن أقدم المخطوطات العربية الموجودة للعهد الجديد يعود تاريخها إلى القرن التاسع الميلادي، الثالث الهجري، أما التعاليم المسيحية التي شاعت بين مسيحيي جزيرة العرب قبل هذا التاريخ فكان يتم تداولها إمّا شفهياً أو من مصادر سريانية أو حبشية(٤٧).

أما أول ترجمة إنكليزية للكتاب المقدس فبدأت عام ١٥٢٤م من قِبل الإنكليزي وليام تايندل Tyndale كان مدرّساً في جامعة كامبريدج بإنكلترا وقد لاقى معارضة مريرة من الكنيسة فاضطر للّجوء إلى المناطق البروتستانتية في ألمانيا لإعداد ترجمته حيث كانت ثورة الإصلاح الديني البروتستانتية في بدايتها، وهنالك أنجز ترجمته للعهد الجديد الذي نُشِر أولاً في كولون بألمانيا، ثم تسربت بعض نسخه إلى إنكلترا في العام ١٥٢٦م، غير أنّ الكنيسة لاحقته وتمكنت من القبض عليه في أكتوبر من العام ١٥٣٦م وأعدمته حرقاً بالنار في ساحة عامة بتهمة إفساد معاني الكتاب المقدس ولم يكن قد أنجز بعد ترجمته للعهد القديم، ومع ذلك صارت ترجمته بعد موته أساساً لتراجم عديدة أخرى صدرت باللغة

الإنكليزية، وكانت الكنيسة قبل ذلك تعتبر الكتاب المقدس حكراً على رجال الدين لا يحق لعامة الناس الاطلاع عليه.

وفي الوقت الذي عمِل فيه الإنكليزي وليام تايندل على ترجمته الإنكليزية، كان الألماني مارتن لوثرLuther مؤسس الحركة الإصلاحية الدينية -البروتستانتية- في ألمانيا يعمل على ترجمة الكتاب المقدس إلى الألمانية فأكمل ترجمة العهد الجديد في العام ١٥٢٢م، ثم اكتملت ترجمة العهد القديم في العام ١٥٣٤م، وبسبب عمله هذا وخلافات عقائدية أخرى مع الكنيسة تمّ حرمان لوثر من قبل البابا حيث اعتُبرت ترجمتُه وأفكارُه التي كان يدعو إليها نوعاً من الهرطقة.

وبالرغم من معارضة الكنيسة المريرة ظهرت على الملأ وراجت عدة تراجِم للكتاب المقدس قام بها البروتستانت، مما اضطر الكنيسة الكاثوليكية أن ترد على ذلك بنشر ترجمة كاثوليكية باللغة الإنكليزية "معتمَدة" للعهد الجديد صدرت في العام ١٥٨٢م بمدينة ريمس Rheims الفرنسية، ثم في العام ١٦٠٩م صدرت ترجمة كاثوليكية للعهد القديم بمدينة دواي Douay بفرنسا، وهكذا صارت تُعرف الطبعة الرسمية للكتاب المقدس الصادرة عن الكنيسة الكاثوليكية بطبعة ريمس–دواي Douay-Rheims، وهي أقدم ترجمة إنكليزية "معتمَدة" عن النص اللاتيني المسمى فالجيتVulgate ، واتسمت باشتمالها على عدة ملاحظات جدلية عنيفة ضد ما أسمته هرطقة البروتستانت.

وبالمقابل، وردّاً على هذه الطبعة الكاثوليكية، أصدرت كنيسة إنكلترا التي كان أول من رَأَسها الملك هنري الثامن بعد أن فصلها عن البابا وجعلها كنيسة بروتستانتية مستقلة، أصدرت في العام ١٦١١م طبعتها الخاصة بها وهي المسماة طبعة الملك جيمس King James Version ويرمز لها اختصار KJV وسميت أيضا الطبعة المعتمَدة Authorized Versionأو AV اختصاراً، وهكذا صار بإمكان المسيحيين في القرن السادس عشر والسابع عشر، وللمرة الأولى في تاريخهم، أن يحصلوا على الكتاب المقدس ويقرؤوه بأنفسهم.

وفي عام ١٨٨١م جرى تعديل الطبعة المعتمدة وصدر بدلاً منها ما سمي بالطبعة المعدلة Revised Version أو RV ، ثم عدلت أيضاً عام ١٩٥٢م فصدر ما يسمى بالطبعة المعدلة النظامية Revised Standard Version أو RSV، وتكرر التعديل عام ١٩٧١م مع الاحتفاظ بنفس الاسم RSV اختصاراً وقد ورد في مقدمة هذه الطبعة الأخيرة ما يلي: (هذه الطبعة هي نتيجة مجهود اثنين وثلاثين من كبار العلماء تدعمهم لجنة استشارية تمثل خمسين من الطوائف المتعاونة مع بعضها البعض)، وقد ذكروا في المقدمة ما يلي تعليقاً على طبعة الملك جيمس المعتمدة: (اشتملت طبعة الملك جيمس على عيوب جسيمة وهي من الكثرة وعلى درجة من الخطورة مما اقتضى تعديلها... إلخ)، انظر مقدمة الطبعة المعدلة النظامية(٤٨).

ومن الجدير بالذكر أن هذه الطبعة المعدلة النظامية الأخيرة قد حذفت الإشارة الوحيدة التي كانت موجودة في العهد الجديد عن التثليث، وهي التي كانت مذكورة في رسالة (يوحنا الأولى ٥/٧)، أما الإشارة الأخرى عن التثليث في العهد الجديد والمذكورة في سفر (متّى ٢٨/١٩) فلا يعتدّ بها ويمكن إهمالها قطعاً لكونها ناتجة من تطوير عقائدي متأخر لا علاقة له بعيسى المسيح عليه السلام(٤٩).

وأخيراً صدر في العام ١٩٩٣م في أمريكا طبعة جديدة لأسفار العهد الجديد الأربعة المعتمدة مضافاً إليها سفر توما الذي اكتشف في نجع حمادي بمصر عام ١٩٤٥م، وأطلقوا عليها اسم طبعة العلماء Scholars Version,SV، واشترك في تحقيقها أكثر من مائتين من كبار العلماء ودكاترة اللاهوت في أمريكا من أساتذة الجامعات أطلقوا على تجمّعهم اسم ندوة عيسى The Jesus Seminar ، وقد قرر محققو هذه الطبعة أن ٨٢ بالمئة من الكلام المنسوب إلى عيسى في الأسفار غير صحيح(٥٠).

ومن الملفت للنظر مقارنة ما قام به علماء ندوة عيسى المشار لها أعلاه، مع ما قام به علماء المسلمين قبلهم بثلاثة عشر قرناً عندما درسوا الحديث الشريف الذي لم يكن موثّقاً على نحو سليم وصنّفوه إلى صحيح-ضعيف-مكذوب

معتمدين في دراساتهم على الإسناد وتواتر الرواة ودراسة أخلاق الرواة بما أسموه علم الرجال الذين نقلوا الحديث، ومع ذلك لا تضمن أعمالهم أنّ ما توصلوا إليه صحيح إطلاقاً ولكن فقط أنهم اتبعوا أسلوباً علمياً لمحاولة غربلة الغث من السمين منذ ذلك الزمن.

٨ - مؤلفو ومنقّحو الكتاب المسيحي المقدّس:

الملفت للنظر أنّ بولس الذي لم يكن من حواريّ المسيح، والذي تُنسب إليه أجزاء كبيرة من العهد الجديد، والذي لم يكن المسيح بالنسبة له سوى رمزاً لأفكارٍ هلنستية غامضة ولا يمثل أي رسالة دنيوية ذات مغزى، ورغم كل ذلك -أو بسببه- أصبح بولس مؤسّساً للمسيحية الحالية، وتبرز الحقيقة بالتالي أنّ المسيح لم يكن مسيحياً بالمعنى المفهوم لدى العامة، ومع ذلك ينسبون إليه أقوالاً تجعل منه مسيحياً يؤكد معتقداتهم على الرغم من التباين الكبير بين رسالته التاريخية وبين الآراء المسيحية والمنظور المسيحي، ولهذا السبب لا نستغرب ما يطلق على المسيحية الحالية من أنها "مسيحية بولس"Pauline Christianity .

وما يلفت النظر أيضاً أنه عند موت بولس لم يكن أحد يعتبر رسائلَه كتباً مقدسة، والواقع أنّه لم يكن قد كُتب وقتها أيّ من أسفار العهد الجديد ولم يكن يوجد عهد جديد أصلاً، فالأسفار كُتبت بعد موت بولس بعدّة عقود من الزمن في مناخ فكري من عقيدته التي انتشرت في العالم الهلنستي لدرجة أنّها هيمنت على تأليف العهد الجديد أكثر بكثير ممّا قد يبدو على السطح، فالعهد الجديد يبدأ بالأسفار القصصية الأربعة وأكثرها عن المسيح، ثم نقرأ بعدها مباشرة سفر أعمال الرسل الذي محوره وبطله بولس، وبعد ذلك نقرأ رسائل بولس الأربع عشرة، فإذا لم يكن المرء على معرفة مسبقة بالترتيب التاريخي لكتابة الأسفار والرسائل فقد يأخذ انطباعاً خاطئاً وقد تفوته حقيقة أنّ رسائل بولس كانت أول ما كُتب خلال الفترة ٥٠-٦٠ م، في حين أن الأسفار الأربعة كُتبت خلال الفترة ٧٠-١٣٠ م، وبعبارة أخرى فإنّ بولس بفكره ونظرياته ومعتقداته كان موجوداً ومهيمناً على كُتّاب الأسفار منذ بدايتها، لأنّ

كُتّاب الأسفار ومنقّحوها الذين وضعوها في شكلها النهائي كانوا كلّهم من أتباع بولس [٥١].

ورغم أن تأليف أسفار العهد الجديد بدأ بعد العام ٧٠ ميلادية غير أن أقدم ما بين أيدينا اليوم لا يعدو مقتطفات من المخطوطات اليونانية للأسفار يعود تاريخها إلى ١٧٥ عاماً بعد وفاة المسيح عليه السلام والمذهل أنها من الاختلاف بين بعضها البعض لدرجة أنه لا يتشابه منها اثنان، حتى قدّروا أنّه يوجد في هذه المخطوطات اليونانية القديمة من الاختلافات الهامة يتعدّى عددها السبعين ألفاً [٥٢]، والواضح أن كتابة الأسفار تمّت في مناخ من الثقافة الهلنستية المزدهرة وأنّ مؤلفيها كانوا من أعمدة تلك الثقافة، كما يبدو تأثير الترجمة السبعينية للعهد القديم جليّاً في مؤلفاتهم، ومن هؤلاء مرقس الذي كان أول مَن كتب سفراً قصصياً عن حياة المسيح بعد مضي قرابة أربعين عاماً على وقوع الأحداث فوضع قناعاته المسيحية الخاصة على فم عيسى، ومن ذلك التنبؤ بالآلام التي افترض أنّه على عيسى أن يتحملها والمذكورة في سفره (مرقس ٣١/٨، ٣١/٩، ٣٣/١٠)، وقد اقتبسها من الكلام المتداول وكتبها بصياغة يظهر منها واضحا أنها كتبت بعد وقوع الأحداث بزمن ثم وضعت على لسان عيسى، والخلاصة أن كلاً من مؤلفي الأسفار نسج أفكاره ومفاهيمه الخاصة ووضعها على لسان عيسى [٥٣].

والنتيجة، أنّ الأسفار تطورت ونشأت بنتيجة الصراع بين بعثة عيسى المسيح عليه السلام، وبين جهود وفكر بولس الذي نصّب نفسه ممثلاً للمسيح مع أنّه لم يكن من الحواريين، وفي النهاية بعدما تُوّج الصراع بين الطرفين بظفر كنيسة بولس على بعثة المسيح وعلى النصارى الذين تبعوه، حذفت الكنيسة من الأسفار كل أفكار منافسيها من النصارى وسمّتهم "هراطقة" كما أطلقت على مجموعة مبادئهم صفة "الهرطقة" مع أنهم كانوا أعلم الناس ببعثة المسيح ومبادئه وأفكاره.

٩- الحواريون الاثنا عشر وعلاقتهم بكتابة الأسفار:

بحسب الأسفار المعتمدة فإنّ صحابة عيسى الاثنا عشر هم:

١) سمعان -شمعون- المسمى بطرس (الصفا)، ٢) أندراوس شقيق بطرس، وكان بحسب السفر الرابع أول الحواريين، ٣-٤) يعقوب ويوحنا أبناء صياد السمك زبيدي، ٥) فيليب، ٦) بارثولوميو، ٧) متّى، ٨) توما، ٩) يعقوب ابن ألفاوس، ١٠) تاديوس، ١١) سمعان (شمعون) المشهور بالمتحمّس، ١٢) يهوذا الاسخريوطي، راجع (متّى ١٠/٢-٤)، (مرقس ٣/١٦-١٩)، (لوقا ٦/١٤-١٦)، (يوحنا ٦/٦٧-٧١)، (أعمال ١/١٣).

تقول الكنيسة أنّ كتبة الأسفار كانوا من صحابة المسيح وشهود العيان على الأحداث وقت وقوعها وأنهم كتبوا ما كتبوا بناء على ما شاهدوه، ولكن حتى لو قبلنا هذا القول فإننا نلاحظ على التوّ أنّ مرقس ولوقا المنسوب لهما كتابة سفرين من الأسفار الأربعة المعتمدة ليسا من الحواريين، حتى أنهما في السفرين المنسوبين لهما لم يدّعيا قط أنهما من حواريي المسيح.

فمن جهة مرقس الذي كان أول من كتب سفراً فقد عُرف عنه أنه كان من أبرز دعاة ديانة بولس، وأما لوقا فقد أقرّ في بداية سفره أنّه لم يكن شاهد عيان على الأحداث التي يرويها قائلاً (الذين أوصلوا الأخبار إلينا بدايةً كانوا من شهود العيان وكهنة الكلمة) (لوقا ١/٢)، وهكذا نسب الشهادة إلى غيره صراحةً، وهو في الوقت نفسه إقرار صريح منه أنه لم يكن حوارياً للمسيح، بل على النقيض من ذلك فقد كان من الذين صاحبوا بولس واعتنقوا عقيدته (كولوسي ٤/١٤)، والطريف أن لوقا عندما قدّم أطروحته التي روى فيها حياة المسيح إلى من أسماه (عزيزي ثيوفيلوس Theophilus) والذي يبدو أن كان مسؤولاً رومانياً (٥٤)، لم يكن لديه أدنى فكرة أنّ أطروحته سوف تصبح سفراً مقدساً في كتاب مسيحي مقدس يعتمده مؤتمر نيقية بعد ثلاثة قرون، ولكن بدا له فقط حسب قوله أنه من المفيد أن يكتب إلى صديقه العزيز ثيوفيلوس: (لقد بدا لي أنه من

المفيد -كوني على تمام الفهم بكل ما حدث من البدء -أن أكتب لك يا ثيوفيلوس الممتاز most excellent Theophilus (لوقا ١/٣)، وتكررت مثل هذه المقدمة في كتابه "أعمال الرسل" التي قدمها إلى (العزيز ثيوفيلوس) (أعمال ١/١).

ثم نلاحظ أيضاً أن يوحنا المنسوب له كتابة السفر الرابع ليس هو الحواري يوحنا قطعاً[٥٥]، فقد كُتب السفر الرابع باليونانية في وقت متأخر أي حوالي العام (١١٠-١٣٠م)، فيستحيل أن يكون يوحنا ابن زبيدي بقي حيّاً حتى ذلك التاريخ، وعلى فرض أنه بقي حيّاً فيستحيل الاعتقاد أنه انتظر قرابة ثمانين عاماً بعد رحيل المسيح كي يكتب السفر المسمّى باسمه بعد أن تجاوز المائة عام من عمره، أضف إلى ذلك -وهذا هو الأهم- أنّ مؤلف السفر الرابع كائناً مَن كان، بدا على معرفة جيدة بعقيدة الفيلسوف اليهودي "فيلو" (٢٠ ق.م - ٥٠م) فيما يتعلق بموضوع "الكلمة" (لوجوس Logos) وشديد الإيمان بها، ويتضح ذلك من سفره الذي يعتبر مزيجاً من عناصر يهودية وهلنستية.

بعد فتوحات الاسكندر الكبير في فلسطين ومصر حوالي العام ٣٣٠ ق.م حدث تمازج كبير بين الفكر اليهودي الديني وبين الفكر المادي الإغريقي الوثني، وصار العلماء والمفكرون اليهود ينظرون بعين التقدير والإعجاب إلى الفلسفة اليونانية والأدب اليوناني وأقبلوا على دراستهما في مصر وفلسطين حيث كان يوجد جالية يهودية كبيرة، حتى أنه تمت ترجمة كتب العهد القديم -اليهودي- إلى اليونانية لصالح يهود الشتات، وهي الترجمة التي عرفت باسم "السبعينية."

وهكذا صارت الكتب اليهودية المقدسة تُقرأ باليونانية في الصلوات وفي المعابد اليهودية وخاصة في مصر وفي الشتات، حتى أنّ الثقافة اليونانية والفكر اليوناني أحدثا تأثيرا عميقاً في الفكر الديني اليهودي، وحتى أن فلاسفة اليهود، ومنهم "فيلو" الإسكندراني المذكور، كانوا يجدون متعة في تتبع نقاط "التطابق"

والتغاير بين الفكر الإغريقي الوثني وبين الفكر الديني اليهودي، وكذلك بين مفهوم الله تعالى عند اليهود وبين مفهوم الألوهية الوثني عند الإغريق، ثم إن الفيلسوف "فيلو" عمل جاهداً على تطبيق نظرية "الأفكار" لأفلاطون وابتكر منها نظرية (الكلمة، لوجوس)، وهكذا حوّلوا (كلمة الله) إلى (الله الكلمة)، ويتضح هذا التأثير الوثني الإغريقي جليّاً في افتتاحية السفر الرابع المنسوب إلى يوحنا حيث يقول: (في البدء كانت الكلمة، وكانت الكلمة هي الله) (يوحنا ١/١)، فمن المستحيل التصديق أنّ يكون الحواري يوحنا بن زبيدي -أو أي حواري غيره- قد كتب مثل هذا الكلام، لأنّ الكلمة الإلهية هي (كلمة الله) ولكنها ليست (الله ذاته)[٥٦].

وقد نسبوا إلى يوحنّا أيضاً -كائناً مَن كان- كتابة سفر "الرؤيا" آخر أسفار العهد الجديد، غير أنه من المستبعد جدّاً أن يكون مؤلف "الرؤيا" هو الحواري يوحنا بن زبيدي ولكنه قطعاً شخصٌ غيره يستحيل أن يكون من الحواريين، لقد كان حواريو المسيح من يهود فلسطين كما كان المسيح نفسه يهودياً، وقد أُطلق عليهم وعلى أتباعهم فيما بعد لقب النصارى أي أنصار المسيح، أما مؤلف سفر "الرؤيا" فقد كان من يهود الشتات الهلنستيين المتأثرين بالفكر الإغريقي الوثني، وكان مقيماً في روما على عهد الإمبراطور نيرون بعد وفاة المسيح بحوالي ثلاثين عاماً، ومن قراءة بسيطة لسفر الرؤيا يتضح جليّا استحالة أن يكون كاتبه من الحواريين (راجع الفصل التاسع).

والنتيجة أنّ كبار علماء اللاهوت في أمريكا المشتركين في ندوة عيسى، والذين زاد عددهم عن المئتين، كتبوا الخلاصة التالية فيما يتعلق بتأليف الأسفار: (جميع الأسفار كانت متداولة في الأصل بدون أسماء مؤلفين لها إلى أن قررت الكنيسة الأولى -كنيسة بولس- تحديد مؤلف لكل منها، وفي معظم الحالات كان التحديد نتيجة التخمين أو التمني عن حسن نية)[٥٧] وقد بقيت الأسفار بدون أسماء مؤلفين لها حتى النصف الثاني من القرن الثاني أي حوالي العام

١٨٠م حيث كان الناس يتداولون أسفاراً كثيرة وليس فقط أربعة، وحسب مفهوم ذلك العصر كانَ يُظَنّ أن السفر المجهول كاتبه يجب أن يكون على جانب واسع من الموثوقية والمعرفة ويمكن الركون إليه، فبالتالي كانت تنقص من قيمة أي سفر لو كتب مؤلفه: هذا من تأليفي، في حين كان الأفضل عندهم أن يقال هذا ما قاله عيسى المسيح وهذا ما فعله(٥٨).

الأجزاء الوحيدة من الكتاب المقدس المسيحي -العهد الجديد- التي يمكن التأكد من شخصية مؤلفها هي رسائل بولس الذي عيّن نفسه ممثلاً ورسولاً للمسيح، غير أن بولس نفسه لم يكن يخطط لإنشاء ديانة جديدة للأجيال القادمة، ولم يكن يتصوّر أن رسائله التي كتبها لأغراض عابرة وقتية سوف تصبح كلاماً مقدساً وجزءاً من كتابٍ مقدس في المستقبل، بل لم يكن يتخيل إطلاقاً أنه سوف ينشأ في المستقبل كتاب مقدس اسمه العهد الجديد يحتوي على أربعة أسفار قانونية، ثم قصة حياته في "أعمال الرسل"، ثم رسائله العديدة، ثم رسائل أخرى وسفر الرؤيا! لقد كانت مهمة بولس الوحيدة حسب اعتقاده هي إنذار الناس للتوبة، وإعدادهم لنهاية العالم القريبة التي توشك أن تقع ليس في المستقبل، ولكن خلال حياته وحياة معاصريه.

١٠- القرآن الكريم والكتاب المقدس:

الملاحظ أنّ القرآن الكريم سبق علماء المسيحية بأكثر من اثني عشرة قرناً إلى حقيقة أن الكتاب المقدس الذي بين أيدينا اليوم ليس بأكمله وحياً سماوياً وإنّما من تأليف البشر، كما سبقهم أيضاً إلى غربلة الحقيقة من الزيف فيه، والمعلوم أيضاً أنه عند نزول الوحي القرآني لم يكن الكتاب المقدس متاحاً للناس إلاّ باللغة السريانية في طبعة البشيتا، أو باللغة اللاتينية في طبعة الفالجيت، كما ورد أعلاه، ولم يكن بإمكان النبي أن يطّلع على أيّ منها في كل الأحوال لكونه أُمياً حتى بلغته العربية.

وهنالك آية قرآنية ملفتة للانتباه فيما يتعلق بهذا البحث وهي قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٢/٧٩]، ففي هذا الموضوع بالذات كتب البروفسور فنك Funk مؤسس ندوة عيسى مطالباً بوجوب: (الإعلان صراحةً أنّ العهد الجديد لم يكن سوى سجلاً لمحاولات متعددة في وقتها، متحيزة وغير متوازنة لاختراع المسيحية -في مقابلة النصرانية-، وأنه يجب إعادة فتح الموضوع لدراسة وتحديد الوثائق التي يمكن أن تعتبر نصرانية)(٥٩).

وآية قرآنية أخرى تشير إلى الوحي الذي ضاع، وإلى إصرار اليهود على الاعتقاد أنهم "شعب الله المختار" وأنهم بغض النظر عمّا يعملون ويرتكبون فإنّ مغفرته تعالى ورحمته مضمونة لهم بحسب ظنهم، وهي قوله تعالى ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لاَ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ [الأعراف: ٧/١٦٩]، وعبارة (درسوا ما فيه) بمعنى محوه أضاعوه حتى اندرس، والقول على الله غير الحق هي المشكلة الكبرى في الكتاب المقدس.

ولذلك يهدف القرآن الكريم تأكيد ما تبقى من الوحي الصحيح في الكتاب المقدس بعدما اختلط بكلام وتأليف البشر، ويتضح ذلك من قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٥/٤٨] فما بين يديّ القرآن هو ما تبقى في الكتاب المقدس من الوحي الصحيح الذي يبيّنه ويصدقه القرآن، أما هيمنته على الكتاب المقدس فلأنّه يغربل منه الحق والباطل ويبين الصحيح من الزيف، وقد تكرر هذا المعنى إيضاحاً في آيات عديدة كما في قوله تعالى ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣/٣]، أي بعد أن أنزل تعالى

التوراة والإنجيل أتبعهما بالكتاب -القرآن- الذي من وظائفه تصديق ما تبقى بين يديه من الوحي الصحيح، ومع ذلك فإنّ منكري الوحي والبعث والنشور والآخرة لا يؤمنون إطلاقاً لا بالقرآن ولا بالذي بين يديه من الوحي الصحيح الذي بقي في التوراة والإنجيل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَـذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ: ٣١/٣٤].

وزيادةً في الإيضاح فإنّ القرآن الكريم يبرز نقاط الخلاف في عقيدة اليهود والمسيحية: ﴿إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦/٢٧] والإشارة لبني إسرائيل في الآية تشمل اليهود والمسيحيين معاً لأنّ كلاهما يؤمنان بالعهد القديم بوضعه الحالي رغم الاختلاط فيه بين الوحي الإلهي وكتابة البشر، وبسبب هذا الاختلاط فإنّ القرآن يهدف -من ضمن أمور عديدة أخرى- لبيان الحق من الباطل فيما يختلف فيه اليهود والمسيحية، وأما قوله (أكثر) وليس (كل) فمعناه أن الأمور الغيبية لن تتضح إلا في الآخرة [٦٠].

١١- حفظ القرآن الكريم:

القرآن الكريم الذي أنزله تعالى معياراً لبيان الحق من الباطل فيما سبقه من الوحي السماوي يحمل في ذاته البرهان على مصداقيته: ﴿وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧/١٠]، فهو لا يقتصر على تصديق الوحي الصحيح المتبقي في الكتاب المقدس بل يتجاوز ذلك إلى تفصيله، وهو أيضاً ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصّلت : ٤٢/٤١]، بمعنى أنه يستحيل حذف شيء منه أو إضافة شيء أو إدخال التعديل عليه سواء بشكل سافر من أعدائه الذين يتعمدون الإساءة، أو بشكل خفيّ بإدخال الالتباس عليه وتشويه معانيه.

فبالمقارنة مع الكتاب المقدس بقي القرآن محفوظاً منذ نزوله حرفاً بحرف وكلمة بكلمة، والقرآن نفسه تنبأ بحفظه منذ نزوله بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩/١٥] وقد تحققت هذه النبوءة القرآنية بشكل مذهل فبقي القرآن بعيداً عن أي تغيير في أصغر دقائقه منذ نزوله على النبي حتى الآن، ولا يوجد أي حالة تاريخية أخرى لأي كتاب قديم من أي نوع تمّ حفظه بهذه الدقة على مدى أربعة عشر قرناً وذلك معنى قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ، فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٨٥/٢١-٢٢] إشارةً لأنّ القرآن لن يتغير ولن يُحرّف على مرّ العصور.

ومن أهل الكتاب من يؤمن بخاتم الأنبياء والرسل وبالوحي الأخير الذي نزل عليه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ٧/١٥٧]، ويلاحظ التأكيد على كون النبي أُمياً لا يقرأ ولا يكتب لبيان أنّ معرفته أخبار مَن قبله مِن الرسل والأمم كانت من الوحي وليست من دراسة الكتاب المقدس الذي لم يكن متاحاً بالعربية على أية حال، والمدهش أنّ هذه الحقيقة التاريخية مؤكدة بقوله تعالى مخاطباً رسوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٤٨].

١٢ ـ التحدّي القرآني:

إحدى المتطلبات الحتمية لحفظ القرآن عبر الزمن وجوب توافقه الكامل مع حقائق العلم وتطور النظريات العلمية والعلوم منذ نزوله على النبي وحتى العصر الحاضر وفي المستقبل، مما يُعتبر في نفس الوقت شهادة عملية على كونه وحياً إلهياً لخلوّه من التناقض و التفاوت على مرّ الزمن، حتى أنّ القرآن نفسه يحثّ الناس على التفكّر في هذه النقطة: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٤/٨٢]، وهذا الموضوع بدوره يحتم استحالة أن يكون النبي مصدراً للقرآن وهي التهمة التي حاولوا التذرع بها

وقت البعثة إلى يومنا الحاضر، والقرآن أيضاً يشبّه الذين لا يتأملون بمضمونه بالذين أقفلوا عقولهم سلفاً: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٤٧/٢٤].

والواقع أنها سمة رئيسية في القرآن الكريم أنّه يدعو الناس في كل زمان ومكان لاستخدام مداركهم العقلية في دراسة وتقويم رسالة القرآن موضوعيّاً من حيث جدارتها وإعجازها ودون تصوّر مسبق، لأنّ إعجاز القرآن بلغ مبلغاً لا يستطيع معه الإنس والجنّ مجتمعين أن يأتوا بمثله: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/٨٨]، وفي هذا التحدي ما يتضمنّه من حث البشر للإقبال على دراسة القرآن وتقويم مضمونه عقلانيّاً، وهو شيء فريد في تاريخ الأديان لجهة التأكيد على عقلانية الدين إذ تتكرر في العديد من الآيات عبارة: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/٨٠]، أي ألا تستخدمون عقولكم؟ وقوله تعالى في القرآن مخاطباً بني البشر: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠]، أي في هذا القرآن كل ما تحتاجون للتذكر وفيه أيضاً ذكركم أي هو سبب لسعادتكم وعزتكم، أفلا تستخدمون عقولكم للتوصل إلى هذه المنزلة؟[٦١].

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَ يُؤْمِنُونَ* فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٥٢/٣٣-٣٤]، والمعنى أنه يستحيل على بشر أن يأتي بقرآن متسق ومنسجم وخالٍ من التناقض على مر الأزمان، والمغزى أيضاً أنّ الكفار ينكرون إمكانية نزول الوحي الإلهي على بشر.

ولا يقتصر عجز البشر على الإتيان بمثل القرآن بل يتجاوزه إلى عجزهم عن الإتيان بسورة واحدة من مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ١٠/٣٨]، وهذا دليل على

العجز الأدبي والعلمي لبني البشر على مر الأزمنة عن الإتيان ولو بجزء يماثل القرآن، ويتكرر التحدي القرآني في آيات أخرى.

١٣ ـ الاحتكام إلى العقل والنهي عن التقليد:

لا يقتصر الإشكال عند منكري الحقيقة على عدم الاحتكام للعقل، بل يتعداها إلى التقليد الأعمى للآباء والأجداد بما فيه التمسك بالمعتقدات المتوارثة: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣/٤٣].

فهم يتّبعون ما يتوارثوه من مذاهب حتى لو كان الآباء والأجداد لم يُعملوا عقولهم فيها أصلاً، وبالتالي لم يكن من سبيل لهم للهداية.

وفي ذلك كتب البروفسور فنك مؤسس ندوة عيسى: (لا يمكننا الاستناد في عقيدتنا على ديانة بطرس ولا على ديانة بولس، فأنا لا أرغب بديانة غير منبثقة من الأصل، ولا أرضى عن أنواع من العقيدة تقف فقط عند حدود المؤمنين الأوائل، فالعقيدة الحقيقية والإيمان الحقيقي يجب أن ينبعا من عيسى الناصري.

ولا يمكن أن يكون عيسى نفسه معبوداً فتلك وثنية المؤمنين الأوائل، إنّ الهدف الحقيقي من الديانة يجب أن يكون الإيمان بما آمن به عيسى نفسه، أما الدعوة إلى الإيمان بشخص عيسى فهي ليست سوى إحلال الوسيط محل الحقيقة، وإحلال الداعي محل المدعو إليه.

ما الذي يوجب علينا الالتزام بقرارات قسطنطين؟ ونتائج التصويت الذي جرى في نيقية، وقرارات باقي المجمعات الكنسية على أنها نهائية؟ في حين يجب علينا الامتناع عن تقليد العقائد المذهبية التي تكونت خلال القرن الثاني والثالث والرابع، علينا أن نسمح لعيسى بالبروز على حقيقته وليس كما يصوره لنا الكتاب المقدس ولا المذاهب من بعده، يجب أن يكون عيسى المعيار الذي تنبثق عنه النظريات والممارسات، أما العقائد ـالكنسيةـ فهي ديانة حلّت محل

عيسى، بل أزاحته، مستندة على ميثولوجية لا علاقة لها بما قاله عيسى ولا ما عمله، إن عيسى لم يساهم إلاّ بأقلّ القليل في الديانة التي ينسبونها إليه ويعتبرونه مؤسسها، وبالتالي يجب علينا البدء من جديد بصفحة دينية جديدة) (٦٢).

مراراً وتكراراً يحض القرآن الناس على تحرير الفكر والعقل حتى أنه يصم المقلّدين بأنهم عاجزون عن استخدام ذكائهم، غير قادرين على بذل المجهود الفكري الذي يُمكّن من نبذ التقليد والتخلي عن الفكر المتشنج: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٢/١٧٠].

فَهُم بهذا النطاق بمثابة الدواب في عدم المقدرة على الفكر: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٨/٢٢]، لأن الدواب لا تملك العقل مثلهم، وتشبيههم بالصمّ لأنهم لا يسمعون الرسالة سماع فهم وتفكّر، ولا يقوّمونها من حيث جدارتها الفعلية، بل اتخذوا منها مواقف مسبقة تجمّدوا عليها، وهم بُكم كونهم غير قادرين على الإقرار بالحقيقة، ولا يعقلون لأنّ عقولهم لم تعمل للاستفادة من حواسهم، وهو سبب وصفهم بالدواب: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٨/٥٥] فذلك هو سبب عدم إيمانهم(٦٣).

وهم أيضاً كالبهيمة التي تسمع نداء الراعي فلا تفقه منه سوى أنّه مجرّد تصويت ونداء لا يعني شيئاً: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢/١٧١]، والمغزى أنهم لكونهم أسرى لأفكارهم أو لجمودهم على التقليد، لا يفكرون فيما يتلى عليهم من الوعظ ولا يتأمّلون فيه ولا يستوعبونه: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ صمّ عن سماع الحق سماع الفهم والتفكّر، ولا يتكلمون به عن اعتقاد وعلم، ولا يبصرون آيات الله في الخلق ﴿فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ ينقادون لغيرهم كما تتبع البهائم الراعي دون أن تفقه النداء.

ثم يشبههم القرآن بالأصنام الجامدة الصمّاء لا عقل لها، فهي تنظر ولا تبصر: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: ١٠/٤٢-٤٣].

ويحثّهم على النظر في عجائب الكون وأخذ العبر من التاريخ ويحذّرهم من عمى القلوب: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٢٢/٤٦].

وفي ذلك يخاطب القرآن ذوي العقلية الطفولية الذين بدلاً من استعمال عقولهم يصّرون على طلب "المعجزات الخارقة" كشرط للإيمان: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٥١]، والمغزى الواضح أنّ تركيزهم يلزم أن يكون على مضمون القرآن عقلانيا وفكرياً لأنّه مُعجز بذاته، وهو كافٍ لإدراك الحقيقة بدون الحاجة لطلب معجزات "خارقة" غيره(٦٤).

ومن إعجاز القرآن بالذات استنتج البروفسور جفري باريندر في كتابه "عيسى في القرآن" ما يلي: (إن المعاني العميقة والهامة التي يتضمنها القرآن غير معروفة لدى عامة المسيحية، كما أن شهادة القرآن بالتوحيد وشهادته بكون عيسى ومريم مجرد بشر لا غير، هذه الشهادة كانت تصحيحاً مُهمّاً أشد ما كانت الكنيسة بحاجة له، غير أنها تجاهلته، وعلى المسيحية أن تعيد صياغة مصطلحاتها من نوع: ابن الله، والثالوث، والخلاص، والنظر إليها من منظار جديد، كما يجب إعادة البحث في مفاهيم النبوّة والوحي على ضوء التنزيل الإلهي كما نزل على محمد في القرآن الذي لا ريب فيه، لأنّ المَثَل الذي أعطاه الإسلام لأهل الكتاب يفرض علينا الخجل من أنفسنا)(٦٥).

قد يلوذ المشركون والمقلّدون بدعوى الجبرية، فيدّعون أنهم مجبرون لا مخيّرون فيما خلقهم تعالى عليه: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاّ تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ٦/١٤٨].

والمذهل أنّ القرآن ذكرَ حجّتهم هذه بصيغة المستقبل، فالمصرّون على الشرك، والمكابرون في إنكار النبوّة، والذين يحكمون في الدين بغير حجة ولا دليل، ويحرّمون ويحلّون ويبتدعون الشرائع من عند أنفسهم، ثم إذا تبيّن لهم الحق وأيقنوا أنهم على الباطل لم يذعنوا ولم يُقرّوا، بل يزعمون أنهم مجبرون مسيّرون وفق المشيئة الإلهية، وأنه تعالى لو لم يكن راضٍ بما هم عليه من العقيدة، لما تركهم على ما هم عليه، أي لو شاء الله ما أشركوا ولا أشرك آباؤهم ولا شرّعوا ما شرّعوا، وما في ذلك من إنكار للفكر وظلم للعقل، كأنهم غير مخيّرين في استخدام ملكاتهم العقلية، وقد أجابهم القرآن بقوله: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ أي أن مثل هذا القول كذب، سبقكم إليه أقوام من قبلكم وأصرّوا عليه، حتى استوجبوا لأنفسهم العذاب، ولكن العبرة ليست بالتقليد والظنّ ولكن بالعلم اليقيني: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أي هل عندكم من علم يقيني فتظهروه لنا؟ بأن الله قد أمركم بتعطيل عقولكم؟ وأن ما تقومون به مقدّر ومحتّم عليكم؟ ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاّ الظَّنَّ﴾ والظن لا يغني عن العلم ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاّ تَخْرُصُونَ﴾ وهو الكذب المبني على الحزر والتخمين.

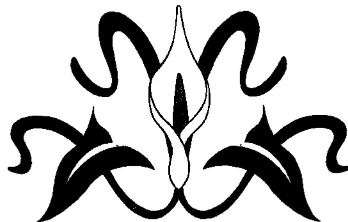
﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ١٠/٣٦]، أي أنّ أكثر الناس يتّبعون الظن والتخمين، لأنهم إمّا متمسكون بتقليد ما توارثوه عن الآباء والأجداد، أو أنهم يبتدعون النظريات والعقائد من عند أنفسهم بلا دليل ولا برهان قطعي ﴿إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنْ

الْحَقِّ شَيْئًا﴾ لأنّ الله تعالى يهدي إلى العلم اليقيني والاعتقاد الصحيح، بما وهب الناس من العقل والفكر وبعث الرسل وتنزيل الوحي، في حين أنّ المشركين والضالين يتّبعون الظن، وهو لا يغني من العلم اليقيني شيئاً، حتى أنّ بعضهم استدل من هذه الآية أن تحصيل العلم اليقيني واجب في العقيدة وبالتالي أنّ إيمان المقلّد غير صحيح، ومنه قالوا أن تقليد المجتهد غير واجب ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وهذه نقطة ثانية منبثقة عن الإيمان، لأن الإيمان يترتب عليه العمل.

مراجع الفصل الثاني:

1. (see Spong RBF p. 41), (Ali THQ p.288), (Dawes HJQ p.91)
2. (see Rhymer ATB p.62)
3. (see Spong RBF p.40-57).
4. (Livingstone ODCC p.160), (Funk HTJ p.25, 70).
5. (Vermes JTJ p.43), (Freke & Gandy TJM p.196)
6. (Le Glay HOR p. 524).
7. (Seminar TFG p.18,128).
8. (Mack WWNT p. 5).
9. (Mack WWNTp.45,228)
10. (Spong RBF p. 80-81, 89), (Funk HTJ p. 111).
11. (Seminar TFG p.29), (Funk HTJ p.57), (Parrinder SOJ p. 82).
12. (Mack WWNT p. 6,15), (Freke & Gandy p.224).
13. (Sanders HFJ p.286).
14. (Sanders HFJ p.11,282)
15. (Seminar TFG p.7), (Mack WWNT p.75)
16. (Sanders HFJ p.66-67).
17. (Jesus Seminar TFG p. 11).
18. (Seminar TFG p. 16).
19. (Vermes JTJ p.53), (Vermes CFJ p.2), (Eisenman JBJ)
20. (Seminar TFG p.27), (Spong RBF p.79).
21. (Spong RBF p. 77,79), (Spong LTG p. 6), (Funk HTJ p. 100, 111).
22. (Seminar TFG p. 22), (Sanders HFJ p. 63-66), (Mack WWNT p.7-8).
23. (Seminar TFG p.8, 20), (Mack WWNT p.153), (Pagels TGG p.17)
24. (Seminar TFG p.29), (see also Allegro DSS p.xxv), (Pagels TGG p.xxiii)
25. (Mack WWNT p. 277).
26. (Seminar TFG p. 3).
27. (Wilson JAL p. 48), (Spong LTG p.13).
28. (Eisenman JBJ p. 95).
29. (Freke & Gandy TJM p.145)
30. (Seminar TFG p. 10).
31. (Seminar TFG p. 17).
32. (Seminar TFG p. 15), (Funk HTJ p.61, 124).
33. (Jesus Seminar TFG p.13ff).
34. (Funk HTJ p. 135), (Pagels TGG p.xvii)
35. (Funk HTJ p. 238).
36. (Eisenman JBJ p. 249), (Freke & Gandy p.172).
37. (Mack WWNT p.60).
38. (Funk HTJ p. 71, 134ff).
39. (Larson SCO p.186,188), (Wilson PMA p.32).

40. (Kelber, OWG p.5), (Dawes HJQ p.94,115-116,129)
41. (Funk HTJ p. 241ff), (Kelber OWG p.4ff).
42. (Seminar TFG p. 23), (Funk HTJ p.231ff), (Dawes HJQ p.77 Reimarus)
43. (Mack WWNT p. 4).
44. (Funk HTJ p. 25,107).
45. (Funk HTJ p. 78,115), (Mack WWNT p. 290).
46. (Ben Nabi QP p.247).
47. (Parrinder JIQ p. 146,161).
48. (Deedat Choice Vol.2 p. 85).
49. (Vermes JTJ p.200).
50. (Seminar TFG p. 5).
51. (Maccoby TMM p.4).
52. (Funk HTJ p. 94).
53. (Kelber OWG p.5).
54. (Wilson PMA p.62),
55. (Spong RBF p.193).
56. (Dawud MTB p. 152-3).
57. (Seminar TFG p. 20).
58. (Sanders, HFJ p.66).
59. (Funk HTJ p. 314).
60. (Asad MTQ p.586).
61. (Asad MTQ p.488).
62. (Funk HTJ p.300-305).
63. (see Lang STS p. 23).
64. (see Asad TMQ p.614).
65. (Parrinder JTQ p. 171,173).



الفصل الثالث

المسيحية والثقافة الهلنستية

الفصل الثالث

المسيحية

والثقافة الهلنستية

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٢/٦].

١- المعضلة المسيحية:

قد يأتي السؤال غريباً عند طرحه: كيف نشأت المسيحية؟ لأن الجواب قد يبدو بديهياً لدى الكثيرين، مسيحيين وغير مسيحيين، غير أنّ الباحثين والمفكرين لا زالوا يواجهون أسئلة جدّية في هذا البحث: هل بدأت المسيحية حقاً مع عيسى المسيح؟ وهل كان المسيح فعلاً المسيحي الأول؟ وهل كان عيسى هو "كريستوس" Chrestos بالمعنى الهلنستي الذي فهمه بولس وكنيسته بعده؟ أم كان عيسى هو المسيح المنتظر بالمفهوم اليهودي؟ كيف ومتى بدأت المسيحية؟ هل بدأت مع بولس بعد عيسى بربع قرن، أم أنها بدأت في مؤتمر نيقية عام ٣٢٥م؟ وهل كان لعيسى المسيح أية علاقة بالمسيحية التي أُنشئت باسمه فيما بعد؟ وماذا يقول فيها لو قدّر له أن يعود من جديد؟ ولماذا استخدم بولس وهو المسيحي الأول اسمَ عيسى رمزاً لديانة لا علاقة لها بالمسيح؟ ولماذا أشكل على بولس فهم عيسى المسيح على حقيقته، ولم يرَ فيه سوى "كريستوس" هلنستي؟

غالبية الناس غافلة عن الحقيقة التاريخية أنّ عيسى المسيح لم يؤسس المسيحية، وأن عيسى المسيح نفسه لم يكن المسيحي الأول، بل لم يكن مسيحياً على الإطلاق بالمفهوم المتعارف عليه اليوم [1]، وأنّ مفاهيم الألوهية التي أسبغوها عليه لم تكن معروفة بين النصارى أتباع عيسى الأوائل الذين شكلوا

ما سمّاه كتاب أعمال الرسل "كنيسة القدس"، لقد كان الهدف الأول من رسالة عيسى تطهير الديانة اليهودية من شوائب الوثنية التي تراكمت فيها عبر السنين، فالديانات التوحيدية تُحرّم أي تساهل مع مفاهيم الوثنية كالشرك وتعدد الآلهة، فكيف أمكنَ إذن أن تنبثق مثل تلك المفاهيم من ديانة توحيدية مثل اليهودية؟ وهل يُعقل أن يعتنق عيسى المسيح مثل تلك المعتقدات؟ ولماذا لا ترغب الكنيسة، أو لا تستطيع، تحرير رسالة عيسى المسيح التاريخية من قيود ومعتقدات بولس ومن معتقداتها هي نفسها؟

لدى دراسة الكتاب المسيحي المقدس -العهد الجديد- لا يفوت القارىء المحايد ملاحظة أنّه من بين سبعة وعشرين سفراً التي تشكل بمجموعها الكتاب المسيحي المقدس هنالك أربعة منها فقط عن عيسى المسيح، وأنّ هذه الأسفار الأربعة في جوهرها قصصية كُتبت بعد وقوع الأحداث بوقت طويل، وقد رأينا أنّ مؤلفيها لم يكونوا شهود عيان على الأحداث التي وصفوها، بل الواقع أنّ مؤلفي تلك الأسفار مجهولو الهوية ولا علاقة لهم بالأشخاص المنسوب لهم التأليف (٢)، يضاف إلى ذلك كله أنّ فحوى الأسفار القصصية لا يعدو التعبير عن عقيدة بولس أنّ عيسى بموته على "الصليب" أصبح منقذاً للبشرية إذ ضحى بنفسه مقابل أخطاء العالم، أما بقية كتب العهد الجديد فهي في معظمها رسائل كتبها بولس لأغراض مرحلية محضة.

فلماذا تتظاهر الكنيسة إذن بأنّ العهد الجديد كلام الله ؟ ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣/٧٨] ولماذا دعا بولس إلى شخصية لعيسى مغايرة تماماً لشخصيته الحقيقية التي عرفها صحابة عيسى في القدس على حقيقتها أكثر من بولس بكثير؟ ولماذا تتنكر الكنيسة لشخصية عيسى المسيح التاريخية لصالح شخصية "كريستوس "الميثولوجية التي ابتكرها بولس؟ ولماذا زعم بولس أن صحابة المسيح في القدس ليسوا سوى "أخوة الزيف"؟ في حين أنّ النصارى أتباع عيسى المسيح في القدس أطلقوا على بولس لقب "الرسول المزيف"؟

الكثرة من الناس لا تكترث لقراءة أبحاث علماء الكتاب المقدس بهذا المجال وبالتالي تبقى أسيرة لعقيدة الكنيسة، وقد يخشى البعض من مواجهة مثل هذه الأسئلة خوفاً من اكتشاف حقيقة مُرّة تناقض الأوهام التي نشأ عليها واعتز بها منذ طفولته، قال تعالى: ﴿بَلْ قالُوا إِنّا وَجَدْنا آباءَنا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنّا عَلَى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٢٢]، ويزداد الأمر إرباكاً لأن الكنيسة لا تقلل من هذه الصعوبات[٣] : ﴿وَقالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا﴾ [القصص: ٢٨/٥٧].

أكثر الناس لا علم لهم بوجود أية فوارق بين مسيحية بولس وبين ديانة عيسى المسيح، ولا الفوارق بين شخصية "كريستوس" التي تخيلها بولس وبين الشخصية الحقيقية التاريخية لعيسى المسيح، ولا الفرق بين العهد الجديد وبين إنجيل عيسى المسيح، وأكثرهم على الظن أنّ عقيدة بولس وقرارات المجمعات المسكونية ليست سوى استمرارية لرسالة عيسى المسيح .

في أواخر بعثة المسيح وبعد المؤامرة لقتله التقى عيسى المسيح مع مريم المجدلية قرب "المدفن" وقال لها بوضوح: (لا تلمسيني لأني لم أُرفع بعد إلى الأب ولكن اذهبي إلى اخوتي -الحواريين- وأخبريهم أنني سأُرفع إلى أبي وأبيكم، إلهي وإلهكم) (يوحنا ٢٠/١٧)، وهذا القول لعيسى المسيح في أواخر بعثته ذو مغزى هام جداً من ناحيتين: أولاً تأكيده لمريم المجدلية في ذلك الوقت أنه لم يُرفع إلى الله وبعبارة أخرى أنه لم يُتوفّى ولم يمت على الصليب، ولكن سوف يُرفع إليه تعالى، والرفع -الوفاة- نتيجة حتمية لرفض قومه له لدرجة تآمرهم على قتله .وثانياً لا بد أنّ المسيح بصفته النبوية كان يعلم مقدّماً -قبل رفعه إليه تعالى- ما سيؤول إليه قومه من تأليهه فيجعلوا منه إلهاً وابن إله، فكان بهذا التأكيد ينذرهم سلفاً أنه ليس سوى بشر مثلهم، وإن كان ابن الله، فليس بصفة فريدة تختص به، فكل يهودي كان يعتبر نفسه مجازاً ابن الله، وأن الله تعالى ربّ المسيح وربّ الجميع بلا استثناء.

٢- شخصية عيسى الميثولوجية بحسب الفكر الهلنستي:

التطورات العقائدية التي تمت منذ رحيل عيسى المسيح عن هذا العالم، حوالي العام ٣٧ م، وحتى انعقاد مجمع نيقية عام ٣٢٥ م كانت تطورات جذرية جدّاً، نتج عنها تحويل شخصية عيسى المسيح الناصري -التاريخية- إلى شخصية عيسى الهلنستية الميثولوجية المسمّاة باليونانية "كيريجما " kerygma .بمعنى الرسالة أو الإعلان، والتي آمنت بها المسيحية الحالية، وفي هذه الحالة هي رسالة الآلهة التي تموت ثم تحيا من جديد في الميثولوجيا الإغريقية وفي الديانات الهلنستية الغامضة (٤) .والنتيجة أن أسطورة كريستوس الميثولوجية حلّت محل حقيقة عيسى المسيح، وفي أحسن الأحوال فإنها اندمجت معها.

في مصر القديمة كان الإله المخلّص "أوزيريس "Osiris ابن إله الشمس "رع" بشراً وإلهاً في آن واحد، وقد تحمّل الجانب البشري منه كل آلام البشر، ماتَ ودُفِن ثم نهض من القبر، ولكل المؤمنين بعبادته الغامضة أعطى من جسده الميثولوجي ليأكلوا منه، ومن دمه ليشربوا منه، حتّى يتحوّلوا بذلك إلى كائنات سماوية.

وقد انتقلت عبادة أوزيريس إلى سورية عن طريق الجبيل في شرق المتوسّط، وكانت الجبيل Byblus وقتها مستعمرة مصرية، وقد عُرِف أوزيريس في الجبيل تحت اسم أدونيسAdonis ، وفي اللغة الفينيقية أدونيس معناها "أدون" Adon أي الرب، وبحسب الفينيقيين كان أدونيس إلهاً مخلّصاً يصعد في كل ربيع من عالم الأموات ليعطي الحياة للبشرية، وفي بابل أطلقوا عليه اسم تموز.

وبعد ذلك في الديانات الإغريقية صار أوزيريس يعرف باسم الإله ديونيسسDionysus ، الإله المخلّص الذي مات من أجل البشرية وكانوا يأكلون من جسده الميثولوجي ويشربون من دمه في طقس القربان المقدس، وكانت لديونيسس الإغريقي عدة شخصيات إحداها إله الطبيعة والخصب الذي يموت كل شتاء ويحيا في الربيع، وكانت عبادته أكثر الديانات انتشاراً لدى

الإغريق حتى أنها انتشرت منهم إلى أمم أخرى [٥]، ثم عند الرومان صار ديونيسس يعرف باسم باكوسBacchus .

نشأ العصر الهلنستي في المشرق بعد فتوحات الإسكندر الكبير ما أدى إلى انتشار الثقافة الإغريقية، ثم توطدت هذه الثقافة بعد سيطرة إمبراطورية روما على حوض المتوسط، وهي تسمّى هلنستية Hellenistic اشتقاقاً من (هيلاس Hellas) أي اليونان، وذلك لتمييزها عن الثقافة اليونانية الهلنية Hellenic الكلاسيكية المحضة، وكانت الديانات في العصر الهلنستي تعبد مزيجاً من آلهة الإغريق الوثنية وآلهة المشرق، وكان غالبية الرومان هلنستيين من حيث أنهم تبنوا الثقافة والفكر اليوناني وطريقة الحياة اليونانية وتكلموا لغتها، غير أن تعبير الهلنستيين أُطلق بشكل خاص على يهود الشتات في الإمبراطورية الرومانية الذين تبنّوا طريقة الحياة والثقافة الإغريقية بعد أن حصل التمازج بينهم وبين الأدب والفكر الإغريقي وديانات وثقافة الإغريق، ثم أنهم صاروا يتكلمون اللغة اليونانية فقط كأنها لغتهم الأم، وفي سفر (أعمال الرسل ١٨/٤) يميز لوقا بين اليهود الهلنستيين وبين العبرانيين، من حيث أن العبرانيين هم اليهود الذين قاوموا النفوذ الهلنستي.

وفي الميثولوجيا اليونانية نلاحظ أنّ الإله ديونيسس Dionysus ، المسمى باكوس Bacchus عند الرومان، يطرح طبيعته الإلهية جانباً ويتجول في عالم البشر متستراً على "حقيقته"، وهو ليس فقط إله الخصب والطبيعة والزرع الذي يموت في كل شتاء ثم يحيا في الربيع، بل هو أيضاً إله الخمر والنشوة والعربدة، وفي المسرحية الإغريقية Bacchae للكاتب الدرامي الإغريقي يوربيديس Euripidesيصف الكاتب لقاء ديونيسس الإله المتخفي على شكل بشر مع الملك بنثيوسPentheus في اليونان، إذ يصل ديونيسس من آسيا الصغرى إلى اليونان بصحبة كهنته من النساء المعجبات لكي ينشر طريقته العربيدة، ولكن الأهالي يرفضونه فيحاول الملك بنثيوس اعتقاله، ولكن ديونيسس الإله المتخفي

يخبر الملك أن جهوده في مقاومة حركته عديمة الجدوى قائلاً له: (إنك بشر فانٍ، في حين أنه -أي ديونيسس- إلـه، فلو كنت مكانك لسيطرت على غضبي وذبحت له الأضاحي بدلاً من مناطحة الحراب)، والمدهش أنّ لوقا في سفر أعمال الرسل يضع العبارة ذاتها على لسان بولس عندما كان الأخير في سجنه بقلعة قيسارية يسرد، للمرة الثالثة، قصة "اعتناقه المسيحية" أمام الحاكم الروماني فستوس Festus والملك اليهودي أجريبا Agrippa (أعمال الرسل ٢٦/١٤)(٦).

ولكن يجب الحذر عند استخدام عبارة (اعتناق بولس المسيحية)، لأننا نشوّه صورة بولس في العهد الجديد لو اعتقدنا أنه "اهتدى" إلى ديانة أو عقيدة كانت موجودة مسبقاً، إذ كان عليه أن يؤسس المسيحية ويحدد معتقداتها بعد "اهتدائه" (٧)، كما يجب أن لا ننسى أنه حافظ على كثير من مفاهيمه الوثنية الباطنية الغامضة بعد "اهتدائه"، ثم خلال عشرين عاماً من نشاطه التبشيري الحثيث نجح تدريجيا بابتكار شخصية غامضة للمسيح سمّاها "كريستوس" جعلها تتبنى معتقداته، وأحلّها محل شخصية عيسى المسيح التاريخية، كما نجح عن قصد أو عن غير قصد بتأسيس طريقة هلنستية سُمّيت المسيحية، عمادُها شخصية كريستوس الجديدة رغم أنه لم يكن لها علاقة بعيسى المسيح التاريخي، وقد قارن بولس عن غير قصد ولكن بحصافة ووضوح بين شخصية كريستوس وبين ديونيسس قائلاً: (رغم أنّ عيسى كان في صورة الله لكنه لم يعتبر مساواته بالله اختلاساً، فجعل نفسه بلا سمعة وتقمص شخصية الخادم متشبهاً بالبشر فكان في ظاهره بشراً)(رسالة بولس إلى أهل فيليبي ٢/٦-٨).

٣- بولس الداعية:

كان بولس المولود في مدينة طرسوس في كيليكيا بآسيا الصغرى يهودياً متعلماً ومثقفاً نشأ في العالم الهلنستي، وهو ما كان يسميه اليهود بالشتات، وكان طليقاً باللغة اليونانية إلى جانب معرفته اللغة الآرامية مما سهّل حركته واتصالاته في العالم اليوناني-الروماني وأعطاه دفعة كبيرة في نشاطه كداعية،

وفي الغالب أنه كان على معرفة باللاتينية أيضاً كونه مواطناً رومانياً، غير أن اليونانية على أية حال كانت اللغة الأكثر شيوعاً في الإمبراطورية الرومانية[٨].

ليس هناك مَن يعتقد أن بولس كان شاهداً على حياة المسيح وبالتالي يستحيل أن يكون تلميذاً له، وفي الواقع أنه كان من ألد أعدائه كما أقرّ هو شخصيا في قصة "اهتدائه" التي أوردها لوقا في كتاب أعمال الرسل ثلاثة مرات، وبحسب لوقا فإن بولس "اهتدى" عندما كان في طريقه من القدس إلى دمشق، غير أنه من المُريب والغريب جداً أن لا يذكر بولس نفسه هذه القصة ولا يتطرق إليها إطلاقاً في جميع رسائله [٩]، حتى أنه لم يذكر شيئاً عن حنانيا Ananias المفترض أنه أعاد إليه بصره في دمشق، ولكلّ هذه المعلومات علينا تصديق لوقا الذي كتب سفر أعمال الرسل بعد وفاة بولس بحوالي خمسة وعشرين عاماً! بل إن بعض المصادر تذكر أن أعمال الرسل كُتب بعد الأحداث بحوالي ثمانين عاماً[١٠].

وبالمقارنة مع ادعاء لوقا عن قصة "تحول" بولس، فإن بولس نفسه لا يقول عن قصة "اهتدائه" أكثر مما يلي: (بولس الذي صار رسولاً ليس من قِبَل البشر ولا من قِبل أي شخص، ولكن من قِبَل عيسى -كريستوس- ومن قبل الله الأب الذي أحياه من الأموات) (رسالة بولس إلى أهل غالاطية ١/١). والمهم ملاحظة تأكيد بولس أنّ كونه رسولا لا يستمد صلاحيته من قبل صحابة عيسى، ولا حتى من عيسى المسيح نفسه على الأرض الذي لم يكن على معرفة به أصلاً، ولكنه استمد صلاحيته من عيسى -كريستوس- الذي في السماء أي بعد موته، ومن الله، وكان هذا ادعاءً بارعاً وملائماً ومريحاً في نفس الوقت حيث نصّبَ نفسه فوق أي سلطة زمنية دون أن يتيح لأحد محاسبته، فقد استمد سلطته حصراً من عيسى الذي في السماء ولهذا الغرض وجب الاكتفاء بشهادته وحده، وقد أضاف: (ولكن عندما اختارني الله وأنا في رحم أمي لكي يظهر ابنَه فيَّ، ولكي أدعو إليه غير اليهود فإنني لا أستشير لهذا الغرض رجالاً من لحم

ودم) (رسالة بولس إلى أهل غالاطية ١/١٥-١٦). يقصد أنه لم يكن بحاجة لاستشارة الحواريين وصحابة عيسى كما لم يكن بحاجة للاعتراف بسلطتهم لأن سلطته تأتي من السماء مباشرة، (ولم أذهب إلى القدس إلى الذين كانوا رسلاً قبلي، ولكنني ذهبت إلى أرض العرب -يقصد النبطيين- وعدت ثانية إلى دمشق) (رسالة بولس إلى أهل غالاطية ١/١٧)، والمغزى من قوله أنه لم يكن بحاجة لتعلم أي شيء من الحواريين ومن صحابة عيسى الذين من المؤكد أنهم كانوا على معرفة وطيدة بعيسى طيلة بعثته النبوية على الأرض، وهكذا ومن البدء عَزَل بولس نفسه عن الحواريين الذين سمّاهم فيما بعد " رسلاً مزيفين" و "أخوة الزيف" (رسالة بولس الثانية إلى أهل كورينثس ١١/١٣، ١١/٢٦).

ولكن على النقيض مما ذكره بولس لا يذكر لوقا في أعمال الرسل شيئاً عن ذهاب بولس إلى أرض العرب، بل يقول بالتحديد أن بولس عاد من دمشق إلى القدس حيث مكث بعض الوقت مع الحواريين ثم غادرها إلى قيسارية ثم إلى مسقط رأسه طرسوس (أعمال ٩/٢٠-٣٠)، وهكذا يجتهد لوقا كعادته في اختلاق علاقات حميمة بين بولس ونصارى القدس.

كان بولس قبل "اهتدائه"، وكما يبدو من رسائله، عنصراً في قوة الشرطة التابعة لكبير الكهنة اليهودي في القدس، ولا بد أنه بتلك الصفة كان يلاحق ويمسك ويسجن أتباع عيسى المسيح، حتى أنه كان يدلي بصوته ضد الذين يُحكم عليهم بالموت، ويفترض أنه ذهب إلى دمشق بصفته شرطياً للقبض على بعض أتباع عيسى فيها، رغم أنه من غير المفهوم ما هي صلاحية كبير الكهنة اليهودي بدمشق؟ فمن المؤكد أنها كانت خارج نطاق سلطته وسلطة روما، إذ كانت دمشق تابعة وقتئذٍ للحارثة الرابع ملك النبطيين (٩ق م-٤٠م)[١١].

وترى بعض المصادر أن بولس بصفته عنصراً في قوة الشرطة اليهودية يحتمل أن يكون قد شارك في اعتقال المسيح، بل في محاولة صلبه[١٢]، وإن صحّ ذلك فتكون هذه هي المرة الوحيدة التي التقى فيها بولس عيسى المسيح على هذه الأرض.

ويروي النصارى -وهم غير المسيحيين- جانباً آخر من حياة بولس وهي أنه اعتنق اليهودية في طرسوس وكان يسمى في الأصل شاؤول ثم عندما كبر هاجر إلى فلسطين ووجد عملاً ضمن قوة الشرطة اليهودية التابعة لكبير الكهنة (١٣).

وفي جميع الأحوال فإن بولس كان منذ البداية وطيلة حياته شخصاً مثيراً للجدل ضمن الجماعات الدينية النصرانية والمسيحية، ليس فقط أنه عيّن نفسه رسولاً بل كان بزعمه الناطق الوحيد بلسان عيسى بعد أن رُفع الأخير إلى السماء، وبهذه الطريقة اكتسب لنفسه نفوذاً كبيراً بين أتباعه كما هو واضح من رسائله إلى أهل غالاطية ومن سفر أعمال الرسل الذي كتبه لوقا، وبالتالي فقد كان على خلاف مستمر مع بطرس وبقية الحواريين الذين سمّاهم أخوة الزيف.

ولا شك أنّ بولس تطوّر إلى شخصية دينية واسعة الخيال، ولو أنها مشوشة وملتبسة عليها الأمور، إذ كانت لديه القابلية الفائقة لاستنباط مغزى ميثولوجي من وفاة النبي اليهودي العظيم عيسى المسيح الناصري. فقد هيمنت على عقله أساطير الآلهة التي تموت وتحيا، وقصص المنقذين الذين يهبطون من السماء لافتداء البشرية، وبنتيجة جهوده التبشيرية الحثيثة حدثت تطورات جذرية برزت بنتيجتها على الناس شخصية مختلفة جدا لعيسى المسيح تجسدت فيها الصيغ العقائدية لبولس(١٤).

ظهر مصطلح المسيحية لأول مرة -وهي غير النصرانية- في مدينة أنطاكية السورية بعد حوالي خمسة عشر عاماً على وفاة المسيح، وكان ذلك بفضل بولس الذي بنتيجة "اهتدائه" أصبح الداعية الأول للديانة المسيحية (١٥)، وباعترافه هو نفسه أنه لم يخالط صحابة عيسى خلال سنوات دعوته لدرجة أنه انقضت مدة أربعة عشر عاماً على "اهتدائه" قبل أن يزور القدس ويلتقي ثلاثة من صحابة عيسى، فقد كان على قناعة أنه الوحيد الذي عرف الحقيقة عن عيسى مما لم يعرفه الحواريون ولا الصحابة، بل أنه في رسالته إلى أهل غالاطية

صبّ اللعنات على كل مـن يدعـو إلى عقيـدة مخالفـة لعقيدتـه حتـى لـو كـانت ملائكة السماء حسب تعبيره (رسالة بولس إلى أهل غالاطيـة ١/٨)، ولـم يكـن ذلك غريباً على طبيعته في التبجح ونقمته على الحواريين وعلـى صحابـة المسيح وبقية النصارى.

وفي الواقع أنّ معلومات بولس عن حيـاة عيسـى المسيح على الأرض وعـن رسالته وتعاليمه كانت تقارب الصفر، كل ما هنالك أنه كان علـى اتصـال مـع عيسى بعد وفاة الأخير عن طريق الإلهام، وعلى أيـة حـال فبالنسـبة لبولـس لـم تكن حياة المسيح ورسالته على الأرض على جانب من الأهمية، كان المهم فقط موت عيسى ثم ظهوره لبولس دون غيره في أكثر من رؤيـا، ومـا اسـتنتجه مـن ذلك، ممّا أصبح محوراً لدعوتـه حتـى أنـه تجـرأ على صـب اللعنـات حتـى على الملائكة إن هي خالفت قناعاته (رسالة بولس إلى أهل غالاطية ١/٨).

قادته عقليته الهلنستية، عدا خياله الواسع، إلى الاعتقـاد أن عيسـى لـم يكـن سوى منقذاً من الطراز الهلنستي، كالآلهة التي تموت وتحيا من نـوع ديونيسـس اليوناني، وهراكليس (هرقل عند الرومان)، وكان مثـل هـذا المفهـوم مستسـاغاً جداً لدى معاصريه التوّاقين إلى منقذين هرقليين، ولـم يكـن عندهـم صعوبـة في قبول وتصديق الأساطير مما سهّل مهمة بولس إلى حدّ كبير [١٦]، ذَكَر ويلسـون في كتابـه (عقليـة بولـس الرسـول): (لقـد زادت امبراطوريـة رومـا في الأعـداد الضخمة لطبقة العبيد المغفلين كما أنها بطرق التجارة التي فتحتها سهّلت لطبقة التجار –وكان بولس منهم– الاتصال والوصول إلى هذه الطبقة من الناس) [١٧].

أراد بولـس مـن شـخصية المسيح أن تنـافس وتتفـوق علـى الكثـير مـن الشخصيات الهلنستية المؤلّهة، ففي العصر الهلنستي كان شائعاً إسباغ الألوهيـة على الملوك والأبطال وكبار الزعماء والشخصيات، وقبل زمن بولس بكثير سبق لليونان أن ألّهوا الإسكندر الكبير وسـمّوه "هرقـل الجديـد، المنقـذ أو المخلّـص" وبعد موته جعلوا منه رمـزاً لعبـادة جديـدة، وفي العهـد الرومـاني كـانت المـدن

اليونانية تسبغ الألوهية على أباطرة روما مبتكرةً بدعة عبادة الأباطرة حتى انتشرت في مدن الإمبراطورية معابد مخصصة لعبادتهم.

يوليوس قيصر أعلنه مجلس الشيوخ مؤلّهاً في حياته ثم اعتبروه بعد موته من ضمن آلهة معبد أولمبس Olympus وابتكروا ديانة خاصة لعبادته في إيطاليا، ثم أعلن مجلس الشيوخ خليفتَه أوغسطس ابن الإله أي ابن قيصر وهكذا صار من سلالة فينوس Venus ثم أطلقوا عليه لقب مخلّص الإمبراطورية و منقذها، كما جعلوا إله النظام أبولو Apollo حامياً وراعياً له، أما منافسه مارك أنتوني فقد زعموا أن راعيه ديونيسس Dionysus إله الخمر والعربدة (١٨)، ويبدو أنّ موضوع التأليه أخذ بلبّ الأباطرة حتى أنّ رابعهم كاليجولا استحوذت عليه فكرة تأليهه لدرجة أن أمر بإزالة رؤوس آلهة اليونان من تماثيلها ووضع تمثال لرأسه مكانها، ثم حاول بناء تمثال الإله زوس Zeus برأسه هو شخصياً في معبد القدس ليخضع له اليهود، ولم يقتصر الأمر على الأباطرة بل أعلنوا بوبيا Popaeaزوجة الإمبراطور نيرون إلهة بعد موتها، أما الإمبراطور دوميتيان فقد أصرّ أن يخاطبه الناس بلقب (ربّي وإلهي)، والطريف الملفت للانتباه أنه بعد حكم دوميتيان بحوالي ربع قرن استخدم مؤلف السفر الرابع للعهد الجديد، سفر يوحنا، عبارة التأليه نفسها فوضعها على لسان الحواري توماس وجعله يخاطب عيسى بها: (ربي وإلهي) (يوحنا ٢٠/٢٨).

لم يكن تأليه الزعماء مستساغاً فقط بل كان اعتيادياً جداً ومطلوباً، وفي مثل هذا الوسط لم يجد بولس أية صعوبة في تأليه عيسى المسيح جاعلاً منه مخلّصاً من النوع الهرقلي، ففي طرسوس مسقط رأس بولس كانوا يؤمنون أن هرقل باعتباره نصف إله -أحد والديه من البشر والآخر إلهاً- هبط إلى عالَم الموت فأصبح مخلّصاً لقومه، وبصورة مشابهة قام بولس بتحويل عيسى إلى مخلّص saviorمن الطراز الهرقلي .

وبالنسبة لعامة الناس لا أقل من أن يكون عيسى متفوقاً على معاصريه من أباطرة روما فهو قطعاً ليس أقل منهم، وهنالك قصة في سفر أعمال الرسل تعطي فكرة عن عقلية العوام في ذلك العصر وهي قصة بولس وبرنابا عندما ذهبا، قبل اختلافهما، في رحلة تبشيرية إلى مدينة ليسترا بآسيا الصغرى وهناك التقيا رجلاً مقعداً حاول بولس شفاءه بطريقة نفسانية فاجتمع الناس عليهما وصاحوا (لقد جاءت الآلهة إلينا متخفية على شكل بشر)، ثم أطلقوا على بولس لقب الإله هرمس وعلى برنابا لقب الإله زوس (أعمال الرسل ١٤/١١-١٢)، وهنالك قصة من نوع آخر حدثت في قيسارية عندما ألقى الملك اليهودي أجريبا Agrippa خطبة بَهَرَ بها الناس فصاحوا: (إنها خطبة إله وليس بشر) (أعمال الرسل ١٢/٢٣)، كما لو كان التأليه مرغوباً في العقل الباطن لبشر ذلك الزمن، ولعلهم أرادوا تجسيد مَن يستحيل تجسيده، تقريباً له لأفهامهم وعقولهم الوثنية، أو على الأقل تأليه أشخاص أو أشياء يمكن الإدعاء أنها منبثقة عنه.

مثل هذا الجو "الثقافي" كان في تمام النضوج والاستعداد للدعوة التي اختارها بولس لنفسه، ثم إنّ بولس كان موهوباً ونشطاً في تحريك الجماهير ومراسلاً ممتازاً كما هو واضح من رسائله التي شكلت فيما بعد جزءاً كبيراً من العهد الجديد، ولا بد أن مقدرته الأدبية والخطابية ساعدته كثيراً في سني دعوته، بالإضافة لمقدرته الممتازة باللغة اليونانية كتابةً وتكلّماً، ذلك أنّ اليونانية –وليس اللاتينية– كانت اللغة الأكثر شيوعاً بين السكان في الإمبراطورية الرومانية[١٩].

وفي مثل هذه البيئة والعقلية الجماهيرية، التي أخذ بولس على عاتقه فيها نشر دعوته، اتخذت رسالة عيسى المسيح منحىً جديداً وخطِراً خارج فلسطين نتجت عنه عواقب لم تكن بأقل من كارثة، فقد تحولت إلى عبادة إله هلنستي جديد سمّاه بولس باليونانية "كريستوس " Chrestos بمعنى "الخير" وهو لقب كانوا يطلقونه على آلهتهم الهلنستية في طقوس عباداتهم الغامضة، وهكذا

انفصلت دعوة بولس عن رسالة المسيح من حيث أنها ركّزت على ما اعتقد أنه "مغزى" موت المسيح وما اعتقد أنه صار مخلّصاً ومنقذاً والتركيز على وجوده المسبق ووجوده اللاحق، مع عدم الاكتراث برسالته وتعاليمه الحقيقية على الأرض، وفي ذلك قال ماك في كتابه "مَن كتب العهد الجديد؟ :" (لقد كانت أسطورة كريستوس ردة فعل مبالغ بها لم يكن لها مبرر)[٢٠].

وخلال القرن الثاني والثالث تم القبول بعيسى تدريجياً في العالم الكنسي ضمن مصاف الآلهة، حتى كان العام ٣٢٥م عندما عقد الإمبراطور قسطنطين الكبير مؤتمر نيقية وصدر القرار الإمبراطوري باعتماد ألوهية عيسى رسمياً، وهكذا اكتسبت مسيحية بولس شكلها القانوني المعتمد من خلال قرارات نيقية ثم من قرارات المجمعات المسكونية المتتابعة بعدها التي جمعت -نظرياً على الأقل- رجال الدين المسيحي من كافة أنحاء المسكونة، ومنها اشتقت تسمية المجمعات المسكونية، والنتيجة أن المسيحية تأسست ونجحت بفضل شخصين مختلفين في عصرين مختلفين، وبطريقتين مختلفتين، الأولى ميثولوجية غامضة، والثانية سياسية، وهذان الشخصان هما بولس خلال الفترة (٤٠-٦٢م) تقريباً، والإمبراطور قسطنطين خلال الفترة (٣١٣-٣٢٥م).

٤- من النصرانية الفلسطينية إلى المسيحية الهلنستية:

لم يعمل عيسى المسيح ولا أتباعه النصارى على الانفصال عن اليهودية (لمصطلح النصارى انظر: أعمال الرسل ٢٤/٥)، أمّا تعبير "المسيحية" وهو كلمة يونانية لمفهوم هلنستي[٢١] فقد ابتُكر بعد المسيح في مدينة أنطاكية السورية (أعمال الرسل ١١/٢٦)، ولم ينشط مسيحيو بولس على الساحة إلا بعد وفاة المسيح بوقت طويل، ويبدو ذلك واضحاً من الفجوة الكبيرة التي تفصل بين رسالة عيسى المسيح وبين عقيدة بولس، فقد بلور بولس عيسى ميثولوجي من صنعِه مما لم يكن معروفاً لدى الحواريين والنصارى.

والواقع أن النصارى أتباع عيسى الأوائل في فلسطين أصيبوا بالدهشة عندما وصل إلى علمهم أنّ بولس كان يدعو في المعابد اليهودية في الشتات إلى دين جديد[٢٢]، وأنّه جعل من نفسه رسولاً لعيسى، مع أنّ أكثرهم لم يكن يعرفه، وأنه كان يدعو إلى عقائد غامضة لا علاقة لها برسالة عيسى المسيح، وما أثار ذعرهم أنه كان ينسب دعوته للمسيح الذي سمّاه باليونانية كريستوس، وقد ادعى لنفسه تلقي الوحي مباشرة من عيسى واضعا نفسه فوق سلطة الحواريين الذين صاحبوا المسيح وعرفوه في حياته، وقد جعل أساس دعوته مبدأ: (أن موت عيسى كفّر عن خطايا البشر) وأنّ (النجاة تكون بالإيمان فقط).

كان هذا التحول من النصرانية الفلسطينية إلى المسيحية الهلنستية نكسة خطيرة لرسالة عيسى وهي لم تزل في مهدها، إذ جعلوا من عيسى وثناً ومعبوداً بعد أن جاء هو نفسه لتحطيم الوثنية والأوثان[٢٣]، وليس من شك أن هذا التحول الديني كان أخطر من أي نكسة دينية أخرى في التاريخ، لقد شوهت أسطورة كريستوس الهلنستي رسالة عيسى المسيح تماماً وحلّت محلّها، وكأنها رسّخت العقائد السائدة وقتئذٍ عن أنصاف الآلهة الهلنستيين المخلّصين ولكن تحت مسمى جديد استناداً على "مخلّص" جديد ظهر على ساحة الأحداث، والعجيب كيف أنه انبثقت من ديانة توحيدية صرفة عبادة وثنية لإله أو نصف إله سمّاه بولس "كريستوس" مستعيراً إياه من زمرة المؤلهين في الديانات الهلنستية الغامضة [٢٤] لقد نجح بولس في الهبوط برسالة عيسى إلى مستوى العقائد الإغريقية-الرومانية السائدة في عصره مما يفسر سريانها بين جماهير ذلك الوقت[٢٥].

ولكن الأمر لم يقتصر على تحويل عيسى المسيح إلى كريستوس هلنستي، بل تعداه بعد حين إلى والدته السيدة مريم العذراء التي بجّلوها باللقب اليوناني "تيوتوكوس " Theotokos.بمعنى والدة الإله أو التي حملت الإله، وفي مجمع إفسس Ephesus الكنسي عام ٤٣١م تقرر بكلّ مهابة وإجلال إقرار السيدة مريم رسمياً والدةً للإله، ومنذ ذلك الحين والكنيستان الأرثوذكسية

والكاثوليكية الرومية تستخدمان هـذا اللقب، وقد اعترض الراهب السوري نسطور Nestorius (المتوفى ٤٥١م) على هـذا اللقب مصرّاً أنه يتعارض مع حقيقة المسيح من حيث كونه بشر، وأنّ مريم بالتالي ليست سوى والدة المسيح لا غير ولكنهم حرموه في المؤتمر ولعنوه.

وقد رأى العديد من علماء الكتاب المقدس أن تأليه السيدة مريم العذراء كان في حقيقته تحولاً في العقلية اليونانية-الرومانية من عبادة أرتميس Artemis إلهة السحر والخِصب – المسمّاة ديانا Diana عند الرومان- إلى عبادة السيدة مريم عليها السلام [٢٦] ،وقارن آخرون ذلك مع عبادة الإلهة أيزيس Isis وولدها هوراس Horus عند قدماء المصريين حيث كانت أيزيس عندهم ترمز إلى الأم الحانية وكانت صورها مع طفلها هوراس مقدسة في المعابد المصرية ويكاد لا يخلو منها منزل [٢٧]، وفي الديانات البابلية الآشورية ظهرت والدة الآلهة بأسماء أخرى مثل عشتار وأفروديت وفينوس، أما عند قدماء الإغريق فقد ظهرت أيزيس المصرية باسم ديميتر Demeter [٢٨] .

كان نجاح بعثة عيسى المسيح بين النصارى محدوداً ومؤقتاً بالمقارنة مع الرفض الذي لقيه على نطاق واسع من قومه اليهود، رغم أنّ بعثته كانت موجهة لهم أصلاً: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٩/٣]، أضف إلى ذلك ردود الفعل العكسية التي أحدثتها بعثته في العالم اليوناني-الروماني حيث نشأت ديانة هلنستية جديدة اسمها المسيحية وفق عقيدة بولس حتى أنها انتشرت واستهلكت إمبراطورية روما من الداخل، ومنذ ذلك الوقت حلّ كريستوس الهلنستي محلّ المسيح وأصبح محطّم الوثنية والأصنام صنماً بذاته [٢٩] وتلاشت ذكرى المسيح التاريخية تدريجياً أمام شخصية نصف الإله كريستوس الذي مشى على الأرض متخفياً على شكل بشر تماماً كما كان ديونيسس قبله.

ثمّ مضت ستة قرون، ثلاثة قرون بعد مجمع نيقية، قبل أن توضع الأمور في نصابها من جديد بمجيء الإسلام الذي صحح العقيدة باتجاه التوحيد وباتجاه

شخصية عيسى المسيح التاريخية، الأمر الذي لم يكتشفه علماء الكتاب المقدس في الغرب إلا مؤخراً.

٥ ـ المجمع المسكوني الأول في نيقية:

تُوّجت جهود بولس التبشيرية بنجاح كبير بعد موته بأقل من ثلاثة قرون من الزمن عندما أصدر الإمبراطور قسطنطين في العام ٣١٣ م مرسوم التسامح مع ديانة بولس المسيحية، فأصبحت بذلك من الأديان الشرعية في الإمبراطورية، ثمّ في العام ٣٢٥ م أراد الإمبراطور أن يضع حدّاً للنزاع الذي انتشر في العالم الكنسي بين المسيحية وبين النصرانية، وخوفاً من نشوب حرب أهلية بين الفرقاء استدعى زعماء الكنائس ورجال الدين إلى مؤتمر عقده في نيقية (إزنيق التركية حالياً) تحت رعايته الشخصية مع أنه لم يكن وقتئذ قد اعتنق المسيحية وإنما كان وثنياً هلنستياً، لكنه أراد توحيد الجماعات الدينية تحت زعامة المسيحية الهلنستية إذ كانت أقرب إلى مفاهيمه ومعتقداته، فقد كان هو نفسه من عبدة إله الشمس الروماني Sol Invictus أي الشمس التي لا تقهر، باليونانية هليوس Helios .

غير أنه كانت لدى قسطنطين دوافع أخرى لا تقل أهمية، ذات علاقة بتوطيد حكمه، جعلته يقبل المسيحية، فقد كتب يوزيبيوس Eusebius أسقف قيسارية (٢٦٠-٣٣٩م)، وصاحب المؤلّف الشهير (تاريخ الكنيسة)، والذي كان من أهم الشخصيات التي ساندت الأمبراطور في مجمع نقية، كتب أن الأمبراطور ممثل الله على الأرض، وأنه بصفته كلمة الله يجسّد إرادة الله في الخليقة، وبالتالي في حكم العالم المتمدّن، وقد زادت هذه العقيدة، التي تلقفها قسطنطين بلهفة، في الهالة الدينية الضخمة التي كانت للأباطرة إبّان العهد الوثني، ثم ضمنتها ووطدتها المسيحية للأباطرة، وفي ذلك كتب وايثهيد A. N. Whitehead: (لقد انتصر الأباطرة عندما قبل الغرب بالمسيحية، إذ احتفظوا بوثنية المصريين والفرس التي تصور الله متجسّداً في الحكام، جلّ ما في الأمر أن الكنيسة أعطت الله الصفات التي كانت للأباطرة حصراً) [٣٠].

ثم إنّ قسطنطين طرد من المؤتمر رجال الدين من النصارى الذين رفضوا الموافقة على العقيدة الرسمية التي سميت فيما بعد "عقيدة مجمع نيقية" والتي جسّدت بقراراتها عقائد بولس، وهكذا صدرت بنتيجة المؤتمر مجموعة من العقائد الرسمية التي أوجب الإمبراطور اعتناقها على الجميع، وبفضل هذا المؤتمر أصبحت عقائد بولس ديانة رسمية في العالم الرومي- اليوناني أما الذين رفضوها من النصارى فقد أصبحوا بنظر الدولة والكنيسة الرسمية عبارة عن "هراطقة" وبدأت ضدهم مرحلة الاضطهادات القمعية، وأحرقت كتبهم وكتاباتهم ومعابدهم[٣١].

وهكذا لم تصمد كتابات النصارى تحت وطأة الاضطهادات الدينية التي تعرضوا لها من الكنيسة، غير أن مقتطفات من عقائدهم لا تزال موجودة في كتابات أعدائهم، وهم بصفتهم من صحابة عيسى ومعاصريه وتابعيه كانت معرفتهم برسالته وتعاليمه أفضل بكثير جداً من معرفة بولس بها، ومن ذلك أنه لم تكن لديهم أية فكرة أو اعتقاد مهما يكن عن تأليه المسيح، آمنوا بالمسيح كنبي يهودي عظيم، بشر لا غير، متمسك بالشريعة، أما التشويه الذي لحق برسالته في وقت لاحق فقد وضعوا كامل وزره على بولس.

٦- المفارقة:

تعتبر معضلة "الإله المصلوب" انتصاراً للعقلية الوثنية الإيقونية في العالم الروماني-الإغريقي القديم، على العقيدة اليهودية التوحيدية التي تحرّم التماثيل والإيقونات، فبالنسبة لسلالة إبراهيم وأتباعه لا يمكن تصوّر الله تعالى، ناهيك لإنسان أن يراه، أما بالنسبة للإغريق فالأمر كان على النقيض من ذلك تماماً لأن اختراع الآلهة عندهم وعبادتها كان أمراً مألوفاً جداً، ومَن يقرأ أيّاً من الأدبيات الإغريقية الكلاسيكية يكتشف كيف كان من السهل جداً عندهم اختراع الآلهة أو أنصاف الآلهة أو أبناء وبنات الآلهة أو الأشخاص المؤلهين بأعداد تفوق الحصر، إضافةً إلى أنه كان من الشائع عمل تماثيل لكل إله أو آلهة يمكن تخيّلها، وفي مثل هذا المناخ الفكري الوثني لم يكن من الصعب على الهلنستيين أن يجعلوا من عيسى المسيح معبوداً مؤلّهاً، حتى تحوّل المسيح محطّم الأيقونات

والتماثيل، إلى المسيح الأيقونة، لقد تنازع بعثة المسيح تراثٌ مزدوج أحدهما يهودي توحيدي، والآخر إغريقي، ثمّ تمكن التراث الإغريقي من التعتيم على الأصل اليهودي التوحيدي ثمّ طمسه، وبذلك أصبحت الديانة المسيحية أيقونية بالدرجة الأولى، على النقيض تماماً من تعاليم عيسى، ولا شك أن رفض اليهود لرسالة عيسى ساهم بشكل فعال في الوصول لهذه النتيجة.

وقد ساهم الخلط في عقلية الجماهير اليهودية بين شخصية المسيح وبين شخصية المخلّص المنتظر في التوصّل لنتائج مأساوية، ففي العقيدة اليهودية يستحيل على المخلّص المنتظر الذي تنبأت الكتب المقدسة بقدومه أن يموت على النحو البائس الذي زعموه لعيسى المسيح، لقد تم تشويه وتحويل مفهوم المسيح بشكل مطلق وتام، إذ مِن المفترض في النبوءات أن يقوم المخلّص المنتظر بهزيمة أعدائه هزيمة ساحقة ينشيء بعدها مملكة الله على الأرض، ثمّ إنّ "الصلب" –على فرض حدوثه– كان النقيض الصارخ للتطلعات والآمال اليهودية المذكورة في الكتب المقدسة، وعلى فرض أنّ عيسى هو المخلّص المنتظر فقد اجتهد فكر بولس الهلنستي في إيجاد المبرر الميثولوجي لهذا الحدث البشع، ومن ثمّ نشأ المفهوم الوثني بأن "المصلوب" ارتفع وجلس على يمين الله، بعد أن تمّ إنقاذ البشرية والتكفير عنها وافتداء خطاياها سلفاً بدم "الإله المصلوب"، وكانت تلك المقدمة الأولى للإدعاء بألوهية عيسى.

وليس صعباً على المرء أن يلاحظ دون عناء أنه، بحسب فكر بولس، يكفي أن يؤمن المرء بقصة "الصلب والآلام والقيامة" لكي يحقق النجاة في الآخرة، وبعبارة أخرى فقد ابتكر بولس عقيدة فارغة المحتوى لم يترك فيها للمسيح أي دور مفيد أو رسالة مفيدة للبشرية، بل أكثر من ذلك فإنه صوّر المسيح على أنه شخصية سلبية تتلقى الأحداث دون أن يكون لها أي دور فاعل تجاه الغير[٣٢].

لقد اندمجت مسيحية بولس بشكل ملائم مع العقلية اليونانية–الإغريقية لذلك العصر، إذ كانت الجماهير الهلنستية المتعطشة لتجسيد الإله أكثر من مغتبطة لهبوط مخلّص هرقلي من السماء متخفياً بشكل بشر ليقوم بافتداء البشرية سلفاً من خطاياها، وبعد ذلك قامت الكنيسة بتوطيد هذا التوجه، ولم

تقتصر جاذبية هذا التصور على الجماهير الهلنستية بل تعدّته إلى الإمبراطور قسطنطين نفسه مما يفسر تغلغل مسيحية بولس في الإمبراطورية الرومانية .

٧- المنظور الإسلامي:

كانت النتيجة الطبيعية لتأليه عيسى وتجاهل تعاليمه المسيحانية على الأرض إفراغ رسالته من أي مغزى عملي، وقد يكون أحد أسباب ذلك اعتقاد بولس، أنّ نهاية العالم كانت وشيكة، بل على وشك الحدوث في حياته هو شخصياً، وما دام الأمر على هذا النحو فلم يكن هنالك من مبرر أو حاجة لوجود فحوى عملية من رسالة عيسى، ولكن في المقابل وبالنسبة لبولس كان هنالك مغزى مهم جداً من موت عيسى كإله أو ابن إله، ومن عودته الثانية المتوقعة التي سوف يحقق فيها ما لم يحققه في مجيئه الأول بحسب فكرهم، غير أنّ الأمر المحيّر كيف أنّ الكنيسة استمرت في إصرارها على التمسك بعقائد بولس بعد اكتشافها الحقيقة المرة أن توقعاته عن نهاية العالم والعودة الوشيكة الثانية، كانتا خطأً فادحاً.

فبهذا الموضوع بالذات أعاد القرآن إلى عيسى إنسانيته وركز على مهمته المسيحانية النبوية، وبعبارة أخرى فقد أكد القرآن على شخصية عيسى المسيح التاريخية مفنداً شخصيته الميثولوجية وعقيدة بولس بتأليهه .

فالآية التالية مثلاً تنهى عن الغلو في الدين أي رفع المسيح إلى مصاف الآلهة أو ابن الإله والادعاء بعقائد لم يقلها: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [النساء: ٤/١٧١].

وفي هذه الآية بيان لحقيقة رسالة المسيح وتفنيد للتطور الذي حدث بعدها: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي

إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٥/٧٢] والكفر في اللغة عبارة عن تغطية الحقيقة.

والمسيح وأُمّه مجرد بشر يأكلان الطعام كغيرهما من الناس: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٥/٧٥].

ولكن ذوي العقلية البدائية يتساءلون: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥/٧]، أي كيف يكون مجرد بشر؟

وتأكيداً على أنّ الانحراف عن رسالة عيسى حدث بعد وفاته، وأنه لم يكن يعلم شيئاً عن المسيحية التي أُنشأت فيما بعد باسمه، نقرأ الآية التالية: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ۞ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة ٥/١١٦-١١٧].

ولا يدهشنا أن البروفسور فنك Funk مؤسس ندوة عيسى، على غير اطلاع منه على القرآن الكريم، توصل إلى النتائج القرآنية المشار لها نفسها بل فصّلها على النحو التالي بقوله: (يجب علينا البدء بإنزال عيسى منزلته الحقيقية لأنه هو نفسه طلب ذلك وهو يستحق ما طلب، وهذا دين له في أعناقنا، إننا إن أنزلنا عيسى منزلته الحقيقية فسيصبح متاحاً لنا بصفته المؤسس الحقيقي للنصرانية، وفي منزلته الجديدة، الحقيقية، سيكف عن كونه معبوداً ميثولوجياً في أساطير الآلهة التي تهبط إلى الأرض ثم تعود إلى السماء، تموت ثم تحيا، وعندئذٍ فقط تصبح

بعثته ذات معنى، بإمكاننا البدء بتحطيم هذه الأيقونة، عيسى الإله أو ابن الإله، ونعيدها إلى ما كانت عليه في الأصل، ليعود عيسى نفسه كما كان: محطّماً للأصنام وللأيقونات) (٣٣).

(لقد قام المعجبون بعيسى في القرون الأولى بإعطائه صفة "كريستوس" وحددوا له المهام المفترض أن يقوم بها حسب ظنهم، كإنقاذ البشرية من ربقة الخطيئة، مع أن عيسى كان أدرى منهم بهدف بعثته فهو لم يتجرأ على الألوهية وإنما اختاره الله للبعثة، لم يكن يدّعي شيئاً ليس له، وإنما اصطفاه الله لهدف محدد، ولذلك لا يهمني ما قال بطرس وبولس عنه، ولا حتى ما كان عيسى يظن عن نفسه، فما يهمني فقط هو الدعوة الإلهية التي استجاب لها، والخطة الإلهية التي خضع لها وانقاد إليها) (٣٤).

ولا شك أن الخطة الإلهية التي خضع وانقاد لها عيسى كانت مشابهة للخطة الإلهية التي انقاد وخضع لها النبي بعد المسيح بستة قرون، فقد نبعت من المصدر نفسه.

والآية التالية تبين هدفين من الأهداف الثلاثة لبعثة عيسى المسيح: **الأول** تأكيد ما تبقى من الوحي الصحيح في التوراة بعد أن اختلط فيها الغث والسمين ولتنقية اليهودية من الشوائب الكثيرة التي لحقت بها منذ بعثة موسى، **والثاني** البشارة بخاتم الأنبياء والرسل الذي تتمّم بعثته بعثة عيسى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ -النبي الأحمد- بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦١/٦].

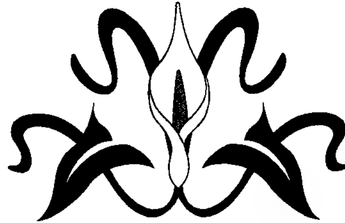
ولبيان الحقيقة المشتركة في الديانات التوحيدية يأمر القرآن المسلمين بما يلي: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤/٣].

غير أن الذيــن يدركــون حقيقــة إنجيــل عيســى يؤمنــون بــالضرورة بــالقرآن: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الْكافِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧/٢٩].

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ﴾ أي القرآن ﴿فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ﴾ إنجيل المسيح ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالقرآن ﴿وَمِنْ هَؤُلاءِ﴾ العرب ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الْكافِرُونَ﴾ المكابرون المصرّون على إنكار الحقيقة، ثم خــلال القــرون التي تلت الفتوحات الإسلامية صدّقت الأحداث نبوءة الآيــة، فبصــورة تدريجيــة دخل في الإسلام غالبيــة اليهــود والنصــارى المقيمــين في منــاطق شــرق المتوســط وشمال إفريقيا وآسيا الصغرى.

مراجع الفصل الثالث:

1. (see Seminar TFG p.24)
2. (Seminar TFG p. 20)
3. (Funk HTJ p. 47-56, 11-13), (Parrinder SOJ p.95)
4. (Kelber OWG p.5), (Funk HTJ p.39, 257), (Mack WWNT p.79ff), (Dawes HJQ p.277)
5. (Larson SCO p.23, 27-29, 37-49), (Freke & Gandy TJM p.23), (Laidler TDD p.56)
6. (see Wilson, PMA p.76), (Larson p.44-45)
7. (Wilson PMA p.61,78)
8. (Sanders Paul p.10,20,25)
9. (Sanders P p.9).
10. (Mack WWNT p.103).
11. (Maccoby TMM p. 10,59,81,86-87,99), (Acts Chapter 26).
12. (Wilson PMA p. 53).
13. (Maccoby TMM p. 60).
14. (Wilson PMA p. 27).
15. (Vermrs JTJ p. 129)
16. (Wilson PMA p. 26), (Mack WWNT p. 13)
17. (Wilson PMA p. 19)
18. (Le Glay HOR p. 153)
19. (Wilson, PMA p. 28)
20. (Mack WWNT p.79,123)
21. (Wilson PMA p.113)
22. (Mack WWNT p. 103)
23. (Funk HTJ p. 295)
24. (Schonfield MOM p.8), (Maccoby TMM p.176)
25. (Maccoby TMM p. 181)
26. (Parrinder SOJ p.103,106), (Parrinder JIQ p. 135), (Wilson PMA p.183)
27. (Larson, SCO p.9)
28. (Larson, SCO p. 25, 37)
29. (Kelber OWG p. 3)
30. (Eusebius (HTC p.xii), (Rubenstein WJBG p.44,46,193)
31. (Mack WWNT p. 277), (Rubenstein WJBG p.29)
32. (Funk HTJ p.43)
33. (Funk HTJ p. 306)
34. (Funk HTJ p. 309)



الفصل الرابع

النصرانية والمسيحية

الفصل الرابع

النصرانية

والمسيحية

﴿قُلْ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٣٩/٤٦].

١- مَن كانَ النصارى؟

مَن كان النصارى؟ وما كانت معتقداتهم؟ ولِمَ نشطت الكنيسة بطمس كتاباتهم وأفكارهم؟ ولِمَ اتّهم النصارى بولس وشجبوه؟ ولِمَ اعتقدوا أنه مجرّد دعيّ، رسول مزيّف؟ ولماذا آمنوا بعيسى على أنه المسيح المنتظر، ولم يؤمنوا به إلهاً؟ وممّ اشتق اسمهم؟

أتباع المسيح كافة كانوا يسمّون نصارى ومنهم الحواريون الاثنا عشر، ثم في وقت متأخر صار يطلق على أتباع بولس في أنطاكية صفة "مسيحيين"، ولم تكن المسيحية معروفة خلال حياة عيسى المسيح بالصورة التي أوجدها بولس في وقت متأخر، لأنّ المسيح نفسه لم يكن يعلم شيئاً عن عقائد بولس المسيحية التي نشأت بعده ونُسبت إليه، و"المسيحية"، وهي كما رأينا كلمة يونانية لمفهوم هلنستي، ظهرت للمرة الأولى في أنطاكية السورية (أعمال الرسل ١١/٢٦)، حيث بدأت المجتمعات المسيحية تتشكل وتنشط بعد رحيل عيسى بأكثر من عقدين من الزمن، وقد آمنت هذه المجتمعات بشخصية خاصة لعيسى ابتدعها بولس ودعا إليها، وهي شخصية ميثولوجية لعيسى بعد وفاته -أي عيسى الذي في الحياة الآخرة- والتي كان بولس بمفرده دون غيره على اتصال مستمر معها ويتلقى الوحي منها حسب قوله، وفي مقابل عقيدة المسيحية آمن

النصارى بشخصية عيسى الحقيقية التاريخية التي عاشت على الأرض في فلسطين، والتي لم يكن لبولس أي معرفة بها، لأنه لم يقابل عيسى في حياته قط.

وقد ورد في كتاب أعمال الرسل صراحةً أن أتباع عيسى الأوائل كانوا يُسمَّون "نصارى" ، حتى إنّ حنانيا كبير الكهنة اليهودي عندما وجّه الاتهام إلى بولس في سجنه في قيسارية أمام الحاكم الروماني فيلكس Felix لم يفرق بين أتباع عيسى وأتباع بولس، إذ اتّهم الأخير أنه زعيم الفتنة والشغب لطائفة النصارى (أعمال الرسل ٢٤/٥)، وفي كتب الدين اليهودية كان يطلق عليهم اسم "نوتزريم" Notzerim وهو مشتق من الجذر نفسه [(١)]، وهنالك اسم آخر كان يُطلق على أتباع المسيح في بداية بعثته وهو "الجليليون" (لوقا ١٣/٢)، لأنّ المسيح، عليه السلام، بدأ دعوته بين أهالي الجليل.

ويُعزى إلى النصارى تأسيس ما أطلقوا عليه في العهد الجديد اسم "كنيسة القدس"، مع أنّ تسمية "كنيسة" بهذه الحالة غير دقيقة، لأنها قد تُفهم بالمعنى "المسيحي"، فالنصارى لم يعتبروا أنفسهم كنيسة مسيحية، لأنهم لم يكونوا مسيحيين بالمعنى الذي نشأ بعدهم، ولأنهم آمنوا بعيسى بوصفه المسيح المنتظر، وليس بوصفه "كريستوس" الهلنستي حسبما اعتقد بولس، وأما صفة "المسيحيين" فقد وُصف بها أتباع بولس في وقت متأخر عن المسيح.

ومع أن النصارى آمنوا بعيسى على أنه المسيح المنتظر فهم لم ينظروا إليه نظرة تأليه، آمنوا فقط أنه المسيح الذي بُعث لإصلاح الدين اليهودي وتنقيته من الخرافات والانحرافات التي لحقت به عبر القرون، لأن اليهود زيّفوا شريعة موسى وتشربوا من العقائد الوثنية وخاصة بعد تغلغل الفكر الهلنستي الوثني فيهم، وقبل ذلك دخلوا في ديانات جيرانهم الفينيقيين والكنعانيين، وكثير منهم اعتنق ديانة الإله الكنعاني بعل وعبادة آلهة وآلهات الخصب، وتقديم الأضاحي الآدمية وممارسة البغاء "المقدس" (ارميا ٧/٩-١١)[(٢)].

والنتيجة أنّ عيسى والنصارى لم يهدفوا الانفصال عن الديانة اليهودية، لأنهم كانوا حركة دينية إصلاحية ضمنها، غير أن صلتهم باليهودية انقطعت في مرحلة لاحقة، بسبب إنكار أكثرية اليهود لعيسى، ورفضهم الإقرار بنبوته ومهمته المسيحانية، ثم تحت تمسك النصارى بالإيمان بعيسى، بصفته المسيح المنتظر، وبالإيمان بتعاليمه وبأهداف بعثته، أعلنت المؤسسة الدينية اليهودية في العام (١٣٥م) أن النصارى انشقوا عن اليهودية وصاروا "هراطقة"، أما المسيحية فمع أن عقائدها ناقضت معتقدات اليهودية بشكل سافر وخاصة لجهة تأليه المسيح والاعتقاد بالثالوث المقدس، فإن المؤسسة الدينية اليهودية لم تصم المسيحيين بالهرطقة، ربّما لأنها اعتبرت المسيحية ديانة جديدة لا علاقة لها باليهودية أصلاً ولا متفرعة عنها [٣].

٢- "كنيسة القدس:"

تكتّلَ أتباع عيسى الأوائل، النصارى، في جماعة دينية شبه مستقلة في القدس ولكنهم لم يشكلوا كنيسة بالمعنى الذي نفهمه اليوم، ولذا فإن عبارة "كنيسة القدس" ليست سوى استعارة لفظية من زمن مسيحي متأخر، إذ كانت الكنائس أول ما أُنشئت خارج فلسطين وبتأثير من فكر بولس المسيحي الهلنستي، ولم يكن النصارى ومن ضمنهم الحواريون الاثنا عشر يعرفون الكهنوت المسيحي ذي السلطات الضخمة والذي نشأ متأخراً ضمن إطار كنيسة بولس المسيحية.

غير أن الأسفار الأربعة المعتمدة في العهد الجديد التي تم تأليفها تحت تأثير فكر بولس المسيحي تحب أن تعطي الانطباع أن المسيح، عليه السلام، أسس كنيسة، مع أن ذلك مناقض بشكل سافر لواقع أن عيسى والنصارى لم يهدفوا الانفصال عن اليهودية، بل على النقيض من ذلك كانوا يصلّون مع اليهود جنباً إلى جنب في معبد القدس (أعمال الرسل ٢١/٢٦)، ذلك أنّ عيسى بُعث لإصلاح الديانة اليهودية، وليس لتأسيس ديانة جديدة.

وبالتالي فإن زعماء وأعضاء "كنيسة القدس" -لو قبلنا التسمية- كانوا نصارى ولم يكونوا مسيحيين بالمعنى الذي نشأ في وقت لاحق، وبديهي أنّ عقائد النصرانية مختلفة عن عقائد المسيحية، فالنصارى لم يعتبروا وفاة عيسى كفّارة لخطاياهم ولخطايا البشر، ولم يكن لديهم أي اعتقاد ولا حتى فكرة مهما كانت عن تأليه المسيح، حتى إنّ ما كتبته الأسفار عن آلام المسيح ثم صلبه لم يكن من ضمن عقائدهم (٤)، وكانوا يعارضون بولس باعتباره دعيّاً ورسولاً مزيفاً، والخلاصة أنهم آمنوا بعيسى المسيح، الشخصية التاريخية التي عاشت على الأرض، ورفضوا التصديق بشخصية عيسى الميثولوجية بعد وفاته التي كان بولس يتلقى منها الوحي حسب قوله بمفرده من دون الحواريين و صحابة عيسى.

والواضح مِن سفر أعمال الرسل أن نصارى فلسطين أخذتهم الدهشة وعامل المفاجأة عندما وصلت إلى علمهم أنباء النشاط التبشيري لبولس في العالم الهلنستي، وخاصة في اليونان وآسيا الصغرى، و زاد في دهشتهم أن بولس عيّن نفسه رسولاً وممثلاً لعيسى مع أنه لم يكن من صحابته، بل إن معظم الصحابة لم يكونوا على معرفة به، والأكثر استغراباً أنه كان يدعو إلى ديانة جديدة تؤلّه عيسى وينسبها إلى المسيح نفسه مستمداً سلطته من التعاون والتواصل الذي كان يجري بينه وبين المسيح الذي في السماء كما كان يقول، ولم تقتصر دعوته على تأليه المسيح، بل دعا لعقائد من ضمنها أن موت المسيح كان كفارة لخطايا العالم، وأن الخلاص يكون بالإيمان فقط(٥).

لم يلتق بولس مع المسيح خلال حياته، ومع ذلك صار رسولاً له استناداً على الإلهام الذي كان يتلقاه منه بعد موته حسب قوله، وبذلك تفوّق على كافة الحواريين والصحابة الذين عرفوا المسيح في حياته الدنيوية فقط، في حين أن بولس وحده عرفه بعد مماته! ولهذا السبب ولهذا التفوق فقد اعتبر بولس آراءه نهائية فيما يتعلق بحقيقة بعثة المسيح وتحدى الحواريين أن يخالفوه، فقال

لأتباعه في كورنثوس: (لو جاء أحد -يقصد الحواريين- ليدعوكم إلى عيسى آخر مختلف عن الذي ندعو إليه) (رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس ١١/٤)، ففي هذه الحالة يكون الحواريون حسب رأيه (شياطين أو رسلاً كذبة تحت قناع رسل المسيح) (رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس ١١/١٣-١٤) [٦]، وهذا إقرار صريح من بولس أن مسيحه الذي يدعو إليه لم يكن سوى "كريستوس" هلنستي على طريقة آلهة الإغريق[٧] بخلاف عيسى المسيح الحقيقي الذي عرفه الحواريون والنصارى في فلسطين.

كانت الديانة الجديدة التي ابتدعها بولس مختلفة جذرياً عن رسالة عيسى من عدة وجوه، فمن جهة ركزت ديانة بولس بالدرجة الأولى على قصة صلب المسيح وقيامته من الموت، وبالتالي تأليهه ووضعه في مصاف الآلهة التي تموت وتحيا في الديانات الهلنستية، ومن جهة أخرى صار الخلاص الشخصي هو السمة المميزة للديانة الجديدة، لأن موت كريستوس كان كفّارة لخطايا العالم! (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ١٥/٣-٥)، وهكذا استُعيرت الأساطير الرومانية-اليونانية بالجملة ودُمجت مع حقيقة بعثة المسيح، ولم تقتصر النتائج على تشويه رسالة عيسى وإنما تفريغها من أي مغزى ومعنى، وفي الوقت الذي صُرف الانتباه عن رسالة عيسى، تم الاحتفاظ به رمزاً لديانة بولس.

٣- الإشكال النصراني-المسيحي:

بصورة تدريجية أفلحت جهود بولس التبشيرية بتغريب رسالة عيسى عن اليهودية، ودفعتها باتجاه الوثنية التي كانت راسخة في ضمير بولس منذ طفولته، وهكذا بدأ الصراع الجدّي بين النصارى وبين بولس كنتيجة طبيعية للفجوة الضخمة بين مهمة عيسى المسيح النبوية المسيحانية، وبين فكر بولس الذي تمكن بمفرده من ابتداع كريستوس هلنستي ميثولوجي من صنعه، فلم يكن هنالك بالطبع أي مجال للتوفيق بين الطرفين حيث كان كل منهما على النقيض من الآخر تماماً.

يصف سفر أعمال الرسل زيارة بولس الأخيرة إلى القدس ولقائه مع الحواريين حيث خاطبوه قائلين: (ألا ترى أيها الأخ كيف اهتدى آلاف اليهود وكلهم متمسكون بشدة بشريعة موسى؟ والآن وصل إلى علمهم أنك تعلم اليهود في الشتات أن يديروا ظهورهم للشريعة!) (أعمال الرسل ٢١/١٨-٢١)، مما يعني أن النصارى ومن ضمنهم الحواريون كانوا يهوداً آمنوا بعيسى بصفته المسيح المنتظر، وقبلوا مهمته المسيحانية الإصلاحية.

غير أن بولس الذي هيمنت على فكره العقلية الهلنستية عن الآلهة التي تموت ثم تحيا، وأساطير المخلّصين الذين يهبطون من السماء، كان يبشر بعقائد ذات قاسم مشترك مع أساطير اليونان الوثنية أكثر منها مع رسالة عيسى المسيح، بل أكثر من ذلك كان ينسب كل عقائده بالتمام والكمال إلى بعثة عيسى المسيح.

أما بالنسبة إلى عقيدة عيسى الحقيقية فلا بدّ أن النصارى كانوا على معرفة بها أكثر من غيرهم، وطالما أن النصارى الأوائل، ومن بينهم الحواريون، لم يسبق لهم أن سمعوا شيئاً عن عقائد المسيحية التي نشأت في وقت متأخر: مثل تأليه المسيح، والثالوث، والمخلّص الذي يكفّر عن خطايا العالم، وطقس القربان المقدس، فمن المنطقي أنّ عيسى نفسه لم يكن يعلم شيئاً عن ذلك هو الآخر. وفي الوقت نفسه يستحيل على عيسى المسيح المنتظر لديانة توحيدية كبرى أن يعتقد أنه مؤلّه أو أنه ابن إله، أو الإله المجسّد، أو أنّه الشخص الثاني في ثالوث، فذلك ينسف العقيدة التوحيدية من أساسها، ومن المستحيل على نبي يهودي عظيم بمقام عيسى المسيح أن يقبل أو يصدق بذلك، وحتى العهد الجديد نفسه بكل طابعه الهلنستي لا يشتمل على أقل تلميح أو فكرة أنّ المسيح ادّعى لنفسه الألوهية، أو وعظ الناس عن ألوهيته المزعومة، وبالتالي يمكن الجزم قطعاً أن المسيح لم يكن مؤسساً للمسيحية بشكلها الحالي، ولكن هو بولس الذي قام بمفرده بهذا الدور، فهنالك هوّة واضحة جداً وضخمة بين عيسى المسيح وبين المسيحية .

غير أن العقيدة المسيحية ترتكز على ادعاء بولس أن المسيح نفسه أسس المسيحية، والكنيسة اختارت أن ترتكز على عقيدة بولس مهما بعدت الشقّة بينها وبين عقيدة عيسى، وبنتيجة ذلك بقيَ المسيحي العادي غافلاً عن الهوّة الضخمة الفاصلة بين المسيح الذي يؤمن به من حيث أنه "كريستوس" الذي تخيّله بولس، وبين حقيقة عيسى المسيح التاريخي، لدرجة اعتقاده أن لا فرق بينهما، وقد اجتهد علماء الكتاب المقدس في الغرب خلال الثلاثين عاماً الأخيرة لكشف الغطاء عن هذا الوهم، ولبيان أن المسيحية مبنية على شخصية عيسى الميثولوجية، شخصية كريستوس، التي كانت "توحي" إلى بولس وحده!

ومن جانب آخر اجتهد بعض رجال الكهنوت في التنظير بأن مباديء بولس عن عيسى "كريستوس" وآلامه كإله، ليست سوى استمراراً لليهودية كما هي في العهد القديم، بينما الحقيقة أنّ تنظيرهم ناتج عن ضعف اعتقادهم بعيسى المسيح الذي عرفه التاريخ، وحيث إن أكثرية المسيحيين غافلون عن الفرق بين المسيح الحقيقي وبين كريستوس الذي ابتدعه بولس، فلا شك أنّ هذا الكلام سيبدو شائكاً، إن لم يكن معقداً، ومن الطبيعي أن يميل المرء إلى الاعتقاد أن مسيحه الذي يؤمن به هو المسيح الحقيقي، وليس المسيح الميثولوجي الذي ابتكره بولس وتبنته الكنيسة (٨).

٤- بولس ومسيحه الميثولوجي:

إن مصادر معلوماتنا الرئيسية عن بولس هي رسائله التي كتبها بنفسه، والتي جعلوها فيما بعد جزءاً من الكتاب المقدس، وثانياً سفر أعمال الرسل الذي كتبه لوقا أحد أتباع بولس، وقد أراد لوقا أن يجعل من سفر أعمال الرسل تأريخاً لحياة بولس، ولوقا أيضاً هو مؤلف السفر الثالث المنسوب إليه في العهد الجديد، والمفترض أنه يروي قصة حياة عيسى المسيح، رغم أن لوقا باعترافه لم يكن تلميذاً لعيسى ولم يكن شاهداً على الأحداث وقت وقوعها (لوقا ١/٢).

تودّ الكنيسة أن تعطي الانطباع أنّ بولس كان المفسّر الأوحد لبعثة عيسى المسيح، لدرجة أنّ بولس فهم وفسّر المغزى من بعثة المسيح بطريقة لم تكن تخطر على بال عيسى نفسه، ومن ذلك أنّ موته كان جزءاً من خطة إلهية لإنقاذ العالم من الخطايا، غير أن صحابة المسيح الذين عرفوه على الأرض، وعرفوا تعاليمه تمام المعرفة لم يقبلوا بنظريات بولس، ولذا وجد بولس مخرجاً لنفسه عندما أعلن أن تفسيره لبعثة المسيح لم يكن وليد أفكاره الشخصية، وإنما كان وحياً يتلقاه من عيسى نفسه بعد وفاته، وادّعى أنه على معرفة وثيقة بعيسى الذي نهض من الموت وصعد إلى السماء، بالمقارنة مع الحواريين الذين عرفوا عيسى على الأرض فقط! وبذلك خوّل بولس نفسه صلاحيات أوسع بكثير من صلاحيات الحوارين الاثني عشر الذين انقطع اتصالهم بعيسى بعد موته!.

إذن، الميثولوجيا التي تمحورت حولها ديانة بولس تلخصت بموت مخلّص مؤلّه، كان موته كفّارة لخطايا العالم، والمفترض أن مجرد الإيمان بهذه الأضحية "الإلهية"، مع المشاركة الميثولوجية في أكل جسد الإله الميت والشرب من دمه، كافٍ للخلاص، بل هو الطريق الوحيد للخلاص، مع أن عيسى لم يكن يعلم شيئاً عن هذا الدور الذي أسندوه إليه كأضحية إلهية متألّمة، يأكلون من جسده ويشربون من دمه، وبالطبع لم يجد النصارى بدّاً من رفض عقائد بولس والانفصال النهائي عنه، لأنهم كانوا يعرفون عيسى وتعاليمه أكثر منه بكثير، بصفتهم من صحابة المسيح ومرافقيه خلال بعثته، ويبدو أن بولس لجهله بتعاليم عيسى ركّز على استنباط النظريات فيما سمّاه الكفّارة الإلهية، والتضحية نيابة عن العالم، والخلاص بالإيمان فقط.

٥ـ محاولة لتخطي الفجوة :

يكمن لبّ المشكلة في كون مسيحية بولس تنسب عقائدها إلى عيسى المسيح نفسه، الشيء الذي أنكره أعلم الناس بعقيدة عيسى وهم النصارى الأوائل ومنهم الحواريون كبار صحابة عيسى، ولذلك فإن المسيحيين أتباع عقيدة بولس الذين أخذوا على عاتقهم كتابة الأسفار بعد حوالي (٥٠-٩٠

عاماً) من رحيل المسيح، اضطـروا لمواجهـة الحقيقـة المُرّة وهـي أنّ النصـارى لا زالـوا يعـارضون عقـائد بولـس بشـدة، ولمقابلـة هـذه المعارضـة وجـد المؤلفـون لأنفسهم مخرجاً عن طريق دسّ معلومات غير مشرّفة عــن الحواريـين كتبوهـا في الأسفار، ومن ذلك تصوير الحواريين على أنهم أغبياء، وبطيئـي الفهـم، وقليلـي الاستيعاب لرسالة المعلّم المسيح (مرقس ٨/٣٣)، كما تم إظهارهم بمظهر الجبناء الذين يتخلون عن سيدهم وقت الشدة (مرقس ١٤/٢٧-٣١)، ويصل التشـهير بالحواريين ذروته عندما يُتّهم بطرس بأنه أنكر معرفته بتاتـاً بـالمعلّم المسـيح أثنـاء محاكمة الأخير (مرقس ١٤/٦٦-٧١).

ومن جملة التشهير بـالحواريين في الأسـفار تصويرهـم بـأنهم كسـالى، لا بـل سكارى، يغطّون في النوم ولا يتمكنون من مغالبة النعاس، وأعينهم ثقيلـة، كـل ذلك يحدث في أحلك الأوقـات في حديقـة جتسـيماني رغـم حـث المعلّـم لهـم وتنبيهه المتكرر لهم بالتزام اليقظة حيث كان مهدداً بالقبض عليه، إذ قـال لهـم: (أهكذا ما استطعتم اليقظة والمراقبة معي ولو لساعة واحدة؟) وأيضاً (عندما عاد وجدهم يغطّون في النوم وأعينهم ثقيلة)، وأيضاً (عاد للمرة الثالثة وقال لهـم: لا زلتم نائمين ومسترخين؟) (متى ٢٦/٤٠-٤٥)، (مرقس ١٤/٣٧-٤١) . ثم لما جاء الجنود للقبض عليه خطب عيسى فيهم خطبة مؤثـرة ولكـن (حينئـذٍ تركـه جميع الحواريين وهربوا) {متى ٢٦/٥٦)، (مرقس ١٤/٥٠)، وهكذا تم التشهير بجميع الحواريين بلا استثناء .

وهنالك هدف آخر من التشهير بالحواريين، وهو تبرير تواصل عيسى المتوفّى مع بولس وحده دون غيره، لأن الحواريـين باعتبـارهم أغبيـاء وكسـالى وجبنـاء وحتى خونة -كذا-، لم يكونوا جديرين بتلقي الإلهام من المسيح !.

أما يعقوب James وهو من كبار النصارى بل من الحواريين باعتراف بولـس (غلاطية ١/٢٠)، فالمدهش والملفت للنظر إهمـال الأسـفار لأي دور لـه خـلال

حياة عيسى، ثم اضطرار مؤلفي الأسفار للكلام عنه فجأة بعدما برز كزعيم للنصارى في القدس بعد رحيل عيسى(٩).

وفي محاولة لإخفاء الفجوة الضخمة بين كنيسة بولس وبين النصارى، بذلت الكنيسة جهوداً كبيرةً لإيجاد قنوات وصل وهمية بين الطرفين، وهنالك طبعاً محاولات أخرى للالتفاف حول النصارى وإيجاد حلقة وصل مباشرة بين بعثة المسيح وبين ديانة بولس(١٠).

وفي سفر أعمال الرسل أراد لوقا التقليل من أهمية الخلاف بين بولس والنصارى لكنه لم يستطع إخفاء الاحتكاك بين الطرفين، وقد حاول تصوير الحركة النصرانية بزعامة بطرس كأنها تقترب شيئاً فشيئاً من نظريات بولس(١١)، كما حاول إعطاء الانطباع أن الطرفين توصلا إلى حلول وسط مما أدى إلى اتحادهما تدريجياً رغم الهوة السحيقة بينهما، وقد بالغ في ذلك لدرجة أنه جعل يعقوب وبطرس يدافعان عن نشاط بولس التبشيري في العالم الهلنستي (أعمال الرسل ١٥/٧، ١٣-٢١) . وقد علق أحد الأكاديميين على هذه النقطة بقوله: (إن الادعاء بأن يعقوب وبطرس دافعا عن نشاط بولس التبشيري ليس سوى قصة من نسج خيال لوقا لأن كل الأدلة تشير إلى استحالة ذلك)(١٢).

ولا شكّ أن لوقا قدم للمسيحية خدماتٍ جلّى، بأن أنقذها من الحقيقة المرة المتمثلة بأنها ليست سوى نتاج فكر بولس الشخصي، إذ في سفره "أعمال الرسل" أوجد نوعاً من الاتحاد بين ما سمّاه "كنيسة القدس" أي النصارى وبين كنيسة بولس، جاعلاً من بطرس حلقة الوصل بينهما، وفي ذلك كان شديد المهارة في الإقلال من معارضة النصارى لبولس وبإظهارهم كأنهم يقبلون مواقفه خطوة بخطوة(١٣)، وانطلاقاً من هذا الأساس تمكنت الكنيسة بعد ذلك من التعتيم على عقيدة النصارى.

غير أن بولس في رسائله، وخاصة الموجّهة إلى أهل غالاطية، لم يحاول وضع الأقنعة على معتقداته، بل أبداها بشكل سافر، ولم يبد من جانبه أي استعداد

للتوصل لحلول وسط مع النصارى، غير أنّ الكنيسة تمكنت بعد أجيال عديدة من إظهار بطرس وبولس كما لو كانا توأمين في التفاهم والتجانس رغم أنهما في الحقيقة كانا في عقيدتهما على طرفي نقيض[١٤].

وقد نسبوا إلى كلمنت Clement أسقف روما في النصف الأول من القرن الثاني كتباً هاجم فيها بولس هجوماً عنيفاً متهماً إياه بالضلال والهرطقة ومؤكداً أن بطرس كان يشاطره هذا الرأي لأن الأخير - أي بطرس - أنكر كون بولس رسولاً[١٥]، والنتيجة أنه تم نفي كلمنت إلى شبه جزيرة القوم حيث عوقب بالعمل في المناجم ثم كبلوه بالحديث وألقوه في البحر الأسود[١٦].

٦- التراث النصراني:

وصمت الكنيسة النصارى بأنهم "هراطقة" رغم أنه كان منهم الحواريون وصحابة عيسى وتابعيه الخلّص، ولذلك كانوا أجدر بمعرفة تعاليم عيسى الحقيقية، وقد حافظوا عليها بأمانة ودعوا إليها، وبقيت لهم اليد العليا فوق المسيحية إلى أن تم خراب القدس على يد الرومان عام ٧٠م، وجرى تشتيتهم في مدن عديدة وبالتالي ضَعُفَ مركزهم، ثم إن الكنيسة كتبت عنهم في الأسفار ما أرادت فطمست حقيقة عقائدهم عن بعثة المسيح عليه السلام.

ومع ذلك بقيت بعض معتقداتهم وآرائهم محفوظة في كتابات أعدائهم كما هي الحال في الرسالة التي كتبها إبيفانيوس Epiphanius بعنوان الهرطقات Heresies وهو مؤرخ ورجل دين مسيحي (٣١٥-٤٠٣م)، ومن كتاباته نعلم أن طائفة النصارى بقيت مزدهرة حتى أيامه شرق نهر الأردن[١٧].

وهنالك الرسالة المنسوبة في العهد الجديد إلى يعقوب James الذي تزعّم، مع بطرس، نصارى القدس بعد رحيل عيسى، وهي تمثل آراء النصارى قبل ظهور الحركة المسيحية على مسرح الأحداث، كما هنالك مقتطفات من مبادئهم بقيت في كتاب أعمال الرسل الذي يشير للنصارى تحت اسم "كنيسة القدس" (أعمال الرسل/١٥)، وقد ذكر كل من سفر مرقس وسفر متّى أن زعيمهم

يعقوب كان أخاً لعيسى! كما أن بولس في رسالته إلى أهل غالاطية ذكر عن يعقوب أنه "أخ المعلّم" (رسالة بولس إلى أهل غالاطية ١/١٩)، غير أنه لا يجب اعتبار هذه الأخوّة حرفياً، وإنما مجازاً بمعنى أنه كان أخاً للمعلم بسبب تقواه مما جعله جديراً بهذا اللقب، أي كانا أخوة في العقيدة، والجدير بالذكر أن طائفة الأسنيين Essenes التي كان منها النبي يحيى المعمدان، ويحتمل أن المسيح نفسه كان منها أيضاً، هذه الطائفة كان يطلق عليها اسم الإخوانBrotherhood بمعنى أن أعضائها إخوان في الدين والعقيدة، وبالمعنى نفسه كان يعقوب أخاً لعيسى، وكان من كبار الحواريين أهملت الأسفار اسمه عمداً، وقد يكون أنه يعقوب بن مريم الأخرى التي أشار لها مرقس (مرقس ١٦/١) ولوقا (لوقا ٢٤/١٠)، ممّا أدخل الالتباس في بعض الأذهان.

كان خراب القدس على يد الرومان عام ٧٠م نصراً غير مباشر للحركة المسيحية التي أنشأها بولس، فبعد العصيان اليهودي المسلح خلال الفترة (٦٦-٧٠م) تشتت معظم النصارى من القدس وقُتل بعضهم في الحرب [١٨]، وبذلك زالت سلطتهم لأن القدس كانت بمثابة مركز القيادة لهم ومرجعاً لجميع المؤمنين بعد رحيل عيسى وهي ما يسمونه "الكنيسة الأم" إن صح التعبير، وهكذا تحررت حركة بولس المسيحية من معارضة نصارى القدس بوصفهم الورثة الحقيقيين لرسالة عيسى، ومن ثم بدأت المسيحية بالانتشار، خاصة أنها لم تكن طرفاً في العصيان المسلح ضد روما، ومع ذلك بقيت النصرانية سائدة في المشرق حتى حركة العصيان اليهودية الثانية عام ١٣٥م عندما تم تخريب القدس نهائياً.

وفي نهاية المطاف حلت روما محل القدس كعاصمة دينية للمسيحية، مثلما كانت القدس عاصمة دينية للنصارى، وفي ذلك الوقت تم تشتت النصارى على نطاق أكبر واحتقرتهم المسيحية بصفتهم هراطقة لكونهم رفضوا عقائد بولس.

ولكن رغم المصاعب التي تعرضوا لها استطاع النصارى البقاء عدة قرون يقاومون عقائد بولس التي مفادها أن المسيح نزل إلى الأرض كإله مخلّص لإنقاذ البشرية .

وفي أجيال متأخرة ظهرت طائفة من النصارى أطلقوا عليها اسم (إبيونايت) Ebionites وهي كلمة عبرية بمعنى الفقراء، وبسبب ندرة المصادر التاريخية الناتجة عن طمس عقائدهم وكتاباتهم نتج خلط متأخر فيما يتعلق بالفروقات بين عقائدهم وعقائد أجدادهم النصارى، وعلى أية حال هنالك تشابه كبير بينهما، وفي معرض التهكم كتب المؤرخ ورجل الدين المسيحي يوزيبيوس Eusebius (٢٦٠-٣٣٩م) المعروف بعدائه الشديد لهم: (لقد أطلقوا عليهم اسم الفقراء بسبب فقر عقائدهم وبسبب النظرة الدونية التي كانوا ينظرون بها إلى عيسى!)[١٩] يقصد أنهم لم يكونوا يعتبرونه إلهاً ولا نصف إله ولا ابن إله، كانوا يعتقدون فقط أنه المسيح المنتظر، وقد رفضوا عقيدة بولس واعتبروه مرتدّاً، ويحتمل أن الإبيونايت هم سلالة من النصارى أنفسهم أُطلق عليهم هذا الاسم تحقيراً لهم، ولكن من جهتهم كان هذا الاسم مدعاة فخر لهم لأن عيسى عليه السلام كان يقول: (بارك الله بالفقراء)[٢٠]، (متى ٥/٣)، (لوقا ٦/٢٠).

كتب مكوباي Maccoby عن وثيقة اكتُشفت في إستامبول لمؤلف اسمه عبد الجبار يعود تاريخها للقرن العاشر الميلادي ومبنية على مصدر نصراني من القرن الخامس يذكر أنّ الإبيونايت كانوا ينظرون إلى بولس بوصفه المزيِّف لرسالة عيسى، وتصف الوثيقة مسيحية بولس بأنها ليست سوى ديانة روميّة Romanism وأنّ بولس بدلاً من محاولة تحويل الروم إلى نصارى قام بتحويل النصارى إلى روم، ويصف المصدر النصراني عيسى بأنه المسيح النبي البشر وينتقد أسفار العهد الجديد معتبراً إياها متناقضة وغير جديرة بالثقة، والأهم من ذلك أنه يشير إلى وجود إنجيل موثوق مدوّن بالعبرية، غير أنه لم يذكر إن كان هذا الإنجيل متاحاً وقت كتابة الوثيقة[٢١] .

والانطباع الذي يأخذه المرء من هذه الوثيقة أنها صادرة عن مجتمع نصراني سرّي متخفّي منحدر في أصله من نصارى القدس، والواضح أن الاضطهادات المسيحية أرغمت النصارى على التخفّي واللجوء إلى السريّة فكانوا لا يظهرون على السطح إلاّ عندما تسمح لهم الظروف كما يحدث عند تغير الحكام، وكما حدث مثلاً عندما استولى المسلمون على المنطقة[٢٢].

٧ـ عقيدة مجمّع نيقية:

مقتطفات من العقيدة التي صدرت بمرسوم إمبراطوري عن مجمع نيقية عام ٣٢٥م[٢٣].

(أنا أؤمن ... برب واحد عيسى المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كل العوالم، إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، ذي مادة واحدة مع الأب، الذي به صُنع كل شيء، الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا، نزل من السماء وتجسد بواسطة الروح القدس من العذراء مريم، وصار إنساناً وصُلب من أجلنا على عهد بلاطس، وتألم ودفن وقام في اليوم الثالث بحسب ما ورد في الكتب المقدسة، وصعد إلى السماء وهو جالس عن يمين الأب، وسوف يعود ثانيةً بالمجد، ليدين الأحياء والأموات، الذي لا نهاية لملكوته).

ومن المهم مقارنة عقيدة نيقية هذه بقوله تعالى في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١١٢/١-٤]، فهذه السورة تضع حدّاً للتخبط البشري والتنظير في ماهية الإله، وتؤكد على التوحيد، وتنفي الابن، وأن لا كفؤ له سبحانه، فكأنها نزلت لدحض عقيدة نيقية بصورة غير مباشرة.

والآية التالية تنقض عقيدة نيقية بشكل مباشر: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧/٥]، والكفر في اللغة بمعنى التغطية والإخفاء كما في قوله تعالى ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد: ٢٠/٥٧] فسمّى

الزرّاع كفّاراً بمعنى أنهم يغطّون البذور بالتراب وقت الزرع، ثم صار الكفر إشارةً إلى الذين ينكرون الحقيقة أي يغطّونها عن الفكر.

وينقض القرآن أيضاً عقيدة الثالوث التي ابتُدعت في أواخر القرن الرابع: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة : ٧٣/٥] أي أنهم بهذا القول، الذي ابتدعوه بعد المسيح بقرابة أربعة قرون، ينكرون الحقيقة.

وعن عقيدة مجمع نيقية التي تؤمن بها الكنيسة كتب الأسقف سبونج Spongراعي أسقفية نيوارك في نيوجرسي بالولايات المتحدة ما يلي: (إن كلمات عقيدة بولس التي طوروها بعده إلى ما سمّوه عقيدة نيقية نشأت في منظور عالمي لم يعد له اليوم وجود، بل هي غريبة تماماً عن العالم الذي نعيشه حالياً، لأن ما كانوا يعتبرونه كحقائق عندما صاغوا العقيدة المسيحية قد نسفته المعارف الحالية، وهذه الحقيقة بديهية جداً حتى أنها من نافلة القول، وإذا كان الإله المفترض أن أعبده هو الإله الذي عرّفته العقيدة المسيحية حرفيّاً فهو بالنسبة لي إله غير معقول ولا يستحق عبادتي)(٢٤).

والواضح جليّاً من عقيدة نيقية اهتمام الكنيسة بالدرجة الأولى بنقاط لاهوتية محضة مثل ماهية المسيح وهويته من حيث أنه إله، أم نصف إله، أم ابن إله، أم الابن المولود (هكذا حرفياً) من الإله، والمادة المصنوع منها، وأيضاً وجوده المسبق (أي قبل وجود الكون)، ثم وجوده اللاحق أي بعد وفاته، وفي مقابل هذا الانشغال الكبير بنقاط لاهوتية نظرية تخمينية ظنّية، لم تبدِ الكنيسة أي اهتمام ببعثة عيسى على الأرض ولا بتعاليمه ورسالته إلى البشر وانعكاساتها العملية على المجتمعات البشرية، وكان من نتيجة ذلك أن بقي المسيحيون في الظلام فيما يتعلق بفحوى وجدوى رسالة عيسى المسيح، ناهيك أنّه جرى طمس هويته الحقيقية حتى اختلطت الأمور بالنسبة لعامة الناس إذ اعتقدوا أن عيسى هو "كريستوس" الميثولوجي الذي تخيّله بولس وبشّر الناس بعودته قبل انقضاء العالم، تلك العودة التي أكد بولس أنها ستتم قبل وفاته هو شخصياً.

ثم بعد مؤتمر نيقية تقرر وصم المخالفين بالهرطقة وجرى اضطهادهم بعنف[٢٥]، وكان من أبرز الشخصيات المعارضة في نيقية الأسقف أريوس الإسكندرانيArius ، وقد بدا أنّه وأتباعه كانوا استمراراً للعقيدة النصرانية الأصلية ولذا رفض أريوس الموافقة على عقيدة نيقية باعتبارها مجسِّدة لديانة بولس وليس ديانة عيسى المسيح، فصدر أمر الإمبراطور بنفيه، غير أن الجدال بين عقيدة نيقية ومعارضيها شاع في الإمبراطورية وانتشر لحوالي نصف قرن آخر من الزمن حتى العام ٣٨١م عندما صدر قرار إمبراطوري آخر بإعلان المعارضة الأريسية (نسبة لأريوس) غير قانونية، ومع ذلك انتشرت تعاليم الأريسيين في الإمبراطورية الرومانية لعدة قرون أخرى حتى وصلت شمال وأواسط أوروبا وقبائل القوط[٢٦].

ورغم الاضطهادات المسيحية التي تعرض لها النصارى فقد كانوا يظهرون إلى العلن كلما سنحت لهم الفرصة مثلما حدث بعد هزيمة بيزنطة على يد المسلمين بعد عام ٦٣٥م لشهرة الدولة الإسلامية بضمانها حرية الأديان، وقد رأينا سابقاً كيف ورد ذكر الأريسيين في رسالة النبي إلى هرقل إمبراطور بيزنطة حين دعاه للإسلام (الفصل الأول).

٨- الحركات التوحيدية المسيحية الحديثة:

ومن عجائب القدر أنه بعد مرور حوالي ألف عام على اضمحلال آخر الأريسيين في أوروبا، ظهرت عقائدهم من جديد على أثر نجاح حركة الإصلاح الديني البروتستانتية في مطلع القرن السادس عشر مما أدى لـ ولادة مناخ فكري في أوربا يسمح بالاستفادة من العقل والفكر السليم، فنطورت حركات مسيحية توحيدية نبذت عقيدة الثالوث ورفضت تأليه المسيح وأعلنت أن الله واحد أحد، وأصرّت على وجوب استخدام العقل والمنطق السليم في الدين، وقد كان ذلك بمثابة عودة إلى فكر النصارى الأوائل ومَن خَلَفهم من الإبيونايت والأريسيين الذين كانوا قد زالوا من الوجود بنتيجة قمع الكنيسة المسيحية لهم.

ازدهرت الحركات التوحيدية الجديدة بشكل خاص في كل من بولونيا ورومانيا وانكلترا! ثم انتقلت منها إلى العالم الجديد في أمريكا، وقد أصرت هذه الحركات أنه لايوجد في الكتاب المقدس ما يبرر عقيدة التثليث، لكنها سرعان ما تعرضت لاضطهاد الكنيسة وخاصة في إيطاليا حيث تم عام ١٥٥٣م إحراق أحد مشاهير التوحيديين حياً وهو الطبيب ورجل الدين الإسباني مايكل سرفتس Servetus وكان قد نشر كتابين عن (أخطاء التثليث) و(العودة إلى النصرانية)، وفي بولونيا ازدهرت الحركة التوحيدية بزعامة رئيسها فاوستوس سوسينوس Socinus وقد استمرت لحوالي قرن من الزمن حتى العام ١٦٥٨م ثم انتهت على أثر إنذار أعضائها بالخيار بين مغادرة البلاد أو الموت أو الانضمام إلى الكنيسة الكاثوليكية فكان أن هاجر معظم أتباعها.

وفي رومانيا وهنغاريا انشقت الحركة التوحيدية عن كل من الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية وأكدت أن الصلاة يجب أن توجه لله تعالى فقط لأن المسيح مجرد بشر، ورغم أن الكنيسة قبضت على زعيم الحركة دافيد فيرنك Ferenc وسجنته عام ١٥٧٩م حتى مات في سجنه إلا أن الحركة بقيت مستمرة إلى يومنا هذا.

وفي انكلترا ظهر التوحيدي العالم الكاهن جوزيف بريستلي Priestly وانشق عن كنيسة انكلترا مؤكداً على إنسانية عيسى وعلى أهمية استخدام الفكر في الدين، ثم انتشرت التوحيدية لدى بعض أعضاء البرلمان الإنكليزي ولدى المتعلمين وصار يطلق عليهم اسم المسيحيين الأحرار.

وفي أمريكا تطورت التوحيدية ببطء في الولايات الشمالية الشرقية وخاصة بين الذين رفضوا حركة "الإحياء الديني" التي عرفت "بالصحوة الكبرى" خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر، وقد رأى زعماؤها أنه يجب الاعتدال واتباع الفكر السليم بدلاً من حماس الإحياء الديني، وأطلقوا على عقيدتهم اسم "المسيحية التوحيدية" ووصفوها بأنها عقيدة منسجمة مع الفهم السليم إذ تؤكد

وحدة الخالق وأنه يمكن قبول الكتاب المقدس شريطة تفسيره بصورة منطقية، وفي العام ١٨٢٥م أسسوا ما سموه الجمعية التوحيدية الأمريكية AUS (American Unitarian Association) ومع نهاية القرن التاسع عشر تبنت الجمعية سياسة التسامح والاعتراف بأنه ثمة حقيقة في الأديان غير المسيحية، ثم في العام ١٩٦١م اتحدت مع الكنيسة الأمريكية العالمية Universal Church of America وأصبح اسمها الجمعية العالمية التوحيدية UUA (Unitarian Universalist Association) وهي ترفض العقائد المتوارثة عن طريق الكنائس وتؤكد على وحدانية الخالق وإنسانية المسيح، ومسؤولية الناس عن أعمالهم، وإمكانية تحقيق النجاة ليس بالضرورة فقط عن طريق الدين المسيحي بل بأديان أخرى أيضاً[٢٧].

٩ - المنظور الإسلامي وإنجيل عيسى المسيح :

الواضح أنّ النصارى كانوا أتباع عيسى المسيح منذ البداية (أعمال الرسل ٢٤/٥)، وقد ذكر أيزنمان وغيره أن ليس لتسمية النصارى مغزى جغرافي فهي ليست مشتقة من مدينة الناصرة المفترض أن المسيح نشأ بها، وعندما يُقال: "عيسى الناصري" فقد يكون هنالك خلط بين المغزى الجغرافي والمعنى الإيديولوجي لهذه الصفة، ذلك أن المؤرخ اليهودي الروماني المعروف فلافيوس جوزيفس Flavius Josephus لم يذكر الناصرة في كتاباته قط، رغم أنها كانت مفصلة جداً، كما لم يرد ذكر الناصرة في أي من كتب العهد القديم، أما المدينة الرئيسية في الجليل فكانت صفورية، والناصرة على فرض أنها كانت موجودة فقد تكون قرية صغيرة غير بعيدة عن صفورية، وهنالك احتمال أن تكون الناصرة نشأت في وقت متأخر إذ يبدو أن الكنائس الأولى فيها نشأت في القرن الخامس[٢٨].

يقول سفر متّى: (لكي يتم ما قاله الأنبياء أن عيسى سوف يكون ناصرياً) (متّى ٢/٢٣)، وهنالك أسباب قوية تؤكد عدم علاقة التسمية بالجغرافيا أي بموقع الناصرة ولكن بالعقيدة، وهذا الرأي ذكره كثيرون غير أيزنمان[٢٩]، والملفت للانتباه أن كلمة نصارى في العربية تؤدي معنى عقائدياً بحتاً لأنها اشتُقت في الأصل من النصرة، فالنصارى هم الذين نصروا وينصرون المسيح، والملاحظ أيضاً أن القرآن الكريم استخدم كلمة النصارى لأتباع المسيح كما استخدمها مجازاً لأتباع بولس كونهم يظنون أنهم على ديانة المسيح.

ولنلاحظ أن الآية القرآنية التالية ذات مغزى خاص في اشتقاق كلمتيْ النصارى والنصرانية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ٦١/١٤]. فمن جهة يبدو من الآية أن النصارى هم الذين استجابوا لعيسى وبادروا لنصرته، ومن جهة أخرى أنه تعالى أيّد الذين آمنوا (النصارى) بظهور الإسلام، لأن الإسلام أنصف عيسى وأكّد رسالته الحقيقية وبيّنها.

أما الحواريون المشار لهم في الآية وهم صحابة المسيح الاثني عشر فيحتمل أنهم كانوا من طائفة الأسنيين Essene Brotherhood التي كان من ضمنها عيسى نفسه قبل بعثته، وهي إحدى الطوائف اليهودية المشهورة الثلاثة إلى جانب طائفة الفريسيين Pharisees وطائفة السدوقيينSaducees ، ويؤيد ذلك مكتشفات وثائق البحر الميت مؤخراً، ولمّا كان الأسنيون، الذين اتصفوا بالسمو الروحي والتفاني وإنكار الذات، يرتدون ثياباً بيضاً كناية عن صفاء عقيدتهم فأُطلق عليهم لقب الحواريين، أي ذوي الثياب البيضاء [٣٠]. وبحسب بعض المصادر فإن الأسنيين الذين دأبوا على ارتداء الثياب البيضاء هم أنفسهم النصارى أو صاروا نصارى وأطلقت عليهم الأسفار اسم "كنيسة القدس" [٣١].

وهنالك آية قرآنية تشير لظنّ المسيحية أنهم نصارى أي أنصار المسيح: ﴿وَمِنْ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمْ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٥/١٤].

فمغزى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ أي نسبوا أنفسهم إلى نصرة المسيح في حين أنهم أنصار بولس وتكرر هذا الوصف في آية [المائدة : ٥/٨٢]، فالمسيح عليه السلام كان "النصراني" الأول، أما "المسيحي" الأول فكان بولس، ومن معجزات القرآن الكريم أنه استخدم كلمة "النصارى" بعد أن كانت قد اضمحلّت وطغت عليها تسمية "المسيحية"، ولم يكن بوسع النبي أن يعلم ذلك لأن لقب النصارى كان قد اضمحل قبل البعثة الإسلامية، وينطبق الشيء نفسه على تسمية الحواريين ذوي الثياب البيضاء.

ومعنى قوله: ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ الحظ في اللغة هو النصيب أي الجزء، وما ذكّروا به الإنجيل، والقرآن يطلق كلمة الذكر على الوحي لأنه تذكير للبشر بالميثاق الفطري المأخوذ عليهم [الأعراف: ٧/١٧٢] [الرعد: ١٣/١٩-٢٠]، والمعنى أنهم أضاعوا قسما من الإنجيل ولم يعملوا بالقليل الذي بقي عندهم منه وهذا النسيان هو المشار له بقوله تعالى ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ٢/١٠٦]، ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي كان نسيان حظ كبير من كتابهم سبباً لاتباعهم الهوى، وتفرقهم طوائف كثيرة جداً يعادي ويبغض بعضها بعضاً، حتى سُفكت دماء كثيرة في الحروب الدينية والاضطهادات بينهم، فمن ذلك على سبيل المثال حرب الثلاثين عاماً التي نشبت بين الكاثوليك والبروتستانت في ألمانيا خلال الفترة ١٦١٨-١٦٤٨ وقتل فيها من الشعب الألماني حوالي سبعة ملايين من أصل عشرين مليونا من السكان، ومن ذلك أيضاً انقسامهم إلى طوائف وكنائس كثيرة لا يزال يتزايد عددها إلى اليوم تزايداً هندسياً، وقد أسند تعالى إغراء العداوة والبغضاء بينهم إلى ذاته العلية مع كونه من أعمالهم الاختيارية بمقتضى سننه في خلقه من

أسباب ومسببات ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمْ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ فيعلمون حقيقة معتقداتهم، ومؤخراً قدّروا أنه يوجد في أنحاء العالم حوالي (٢١٠٠٠) إحدى وعشرون ألف طائفة مسيحية مختلفة عن بعضها البعض[٣٢].

والملاحظ أن هنالك توافقاً كبيراً بين معتقدات النصارى وبين اعتقاد المسلمين فيما يتعلق ببعثة المسيح عليه السلام، فمن جهة يؤمن النصارى والمسلمون معاً بعيسى على أنه المسيح الموعود، ومن جهة يؤمنون أيضاً أن مهمة المسيح كانت إصلاح اليهودية من الشوائب والفساد والخرافات وتنقيتها من الوثنية، وينكرون ما ابتدعته مسيحية بولس من ألوهية المسيح، كما ينكرون عقائد بولس المتعلقة بالأضحية الإلهية المفترض أن تكفّر خطايا العالم، ويؤمنون بعذرية مريم عليها السلام، ومن هنا يتضح قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢/٥]. وهم لا يستكبرون من حيث أنهم، بخلاف اليهود، لا يعتقدون أنهم الشعب المختار ولا أن الله تعالى اختصهم بالوحي الإلهي دون غيرهم من البشر، ولا يعتقدون بإله (يهوه) خاص بهم من دون باقي الناس، والملاحظ أن الآية ذكرت ﴿الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ في مقابلة ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ بمعنى أنهم مقروّن بالوحدانية وفي الآية التي تليها تأكيد دخولهم الإسلام وهي من قبيل الإخبار بالغيب لأن أكثرية النصارى دخلوا الإسلام بعد الفتح الإسلامي: ﴿وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣/٥].

وقد كان للنصارى إنجيل خاص بهم يشتمل على أقوال المسيح، وقد يكون له علاقة بالإنجيل المذكور في القرآن الكريم، وهنالك إشارة له أيضاً في وثيقة عبد الجبار المذكورة أعلاه، وعلى أية حال فإن إنجيل عيسى قد لحقه الضياع

بسبب اضطهادات المسيحية للنصارى، ولا يمنع وجـود شـذرات وبقايـا منـه في أسفار العهد الجديد، وإلى مدى أكبر في سفر الأقوال وسفر توما.

نجحت كنيسة بولس في التعتيم على إنسانية عيسـى حتى فصلتـه عـن عـالم البشر، وفي الوقت نفسه جعلـت رسـالته الحقيقيـة تبـدو غـير ذات بـال، وعلـى الرغم من ذلك تطورت الكنيسة وأصبح لها أكبر عدد من الأتباع في العالم، ثم استغرق الأمر ستة قرون (ثلاثة قرون بعد مجمع نيقية) كي تنتصر رسالة عيسـى جزئياً بمجيء الإسلام الذي أنصف المسيح وسلط الضوء علـى رسـالته، غـير أن الكنيسة لا تزال تفضـل تجـاهل ذلـك والتمسـك بشـخص المسـيح (كريسـتوس Chrestos أو Christ) الذي أوجده بولس.

غير أنه في الوقت الذي تبدو الكنيسة متمسكة بعقيدة بولـس يحـاول الكثير من الأكاديميين وعلماء الكتـاب المقـدس وبعـض رجـال الكهنـوت إيجـاد بديـل عقلانـي للوضـع الراهـن، ولكـن دون نجـاح يُذكـر، والسبب أنهـم يبتكـرون نظريات جديدة من عندهم، فمنهم مَن ينكر بعثة المسيح التاريخية إطلاقاً، ومنهم مَن يزعم أن المسيح لم يكن سوى واعظ ديني فقط وينكر الوحي الإلهي الـذي نزل عليه، ومنهم من يحاول اختراع أساطير جديدة عن بعثته، ومنهـم مَـن دعـا إلى كتابـة عهـد جديـد غـير العهـد الجديـد! وآخـرون دعـوا إلى إعـادة إخـراج المسيحية في ثوب جديد![٣٣].

وقد شخّص القرآن الكريم أحوالهم هذه بقوله تعـالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِيـنَ أُورِثُـوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤/٤٢]، فهـم في شـك مـن كتابهم المقدس جعلهم في حالة من الريبة.

والقليل منهـم حـاولوا النظـر للأمـور مـن منظـار الإسـلام، والأعجـب أن القرآن الكريم قد شخّص مواقفهم سلفاً بقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِـنْ ذِكْـرٍ مِـنْ رَبِّهِـمْ مُحْدَثٍ إِلاّ اسْـتَمَعُوهُ وَهُـمْ يَلْعَبُـونَ﴾ [الأنبياء ٢/٢١]، وقولـه تعـالى: ﴿وَمَـا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ الرَّحْمَـانِ مُحْـدَثٍ إِلاّ كَـانُوا عَنْـهُ مُعْرِضِـينَ۞ فَقَـدْ كَذَّبُـوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/٥-٦]، فمنذ أربعة عشر قرنـاً

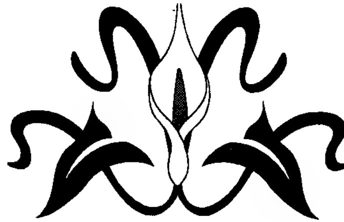
وصفَ القرآن توجهاتهم أنهم يتلقون رسالة النبي بسخرية وفوقية، سرعان ما تتحول إلى عداء مكشوف أو إلى عدم اكتراث وإهمال.

وأخيراً من المفيد مقارنة ملخص لعقائد اليهود والمسيحية والإسلام فيما يتعلق ببعثة عيسى عليه السلام :

من الناحية السلبية هنالك توافق غريب بين المعتقد اليهودي والمعتقد المسيحي فكلاهما لا يعترف ببعثة عيسى المسيح التاريخية ولا برسالته على الأرض، غير أنّ المسيحية تعترف فقط بعيسى الهلنستي كما رآه بولس، في الوقت الذي تنكر اليهودية كلاهما أي تنكر عيسى المسيح التاريخي وعيسى الهلنستي كريستوس، فقط النصارى وهم الأقلية يؤمنون بعيسى المسيح التاريخي في حين ينكرون عيسى الهلنستي، حتّى جاء الإسلام بعد ستة قرون فرجّح كفة النصارى بالإيمان بعيسى المسيح التاريخي وببعثته النبوية المسيحانية، وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤/٦١]. وفي نفس المعنى نقرأ قوله تعالى مخاطباً عيسى: ﴿وَجاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥/٣] فالذين اتبعوه هم المسلمون جعلهم تعالى فوق الذين كفروا بالحجة الصحيحة والمنطق السليم، وأما السلطان فقد جعله تعالى لمن يتبع سننه في الكون مؤمناً أو كافراً.

مراجع الفصل الرابع:

1. (Parrinder SOJ p.80), (Maccoby TMM p. 175), (Eisenman JBJ 250)
2. (Rhymer ATB p. 39, 49), (Jeremiah 7/9-11).
3. (Maccoby TMM p. 179)
4. (Vermes, JTJ p. 38)
5. (Wilson JAL p.171-172)
6. (see Sanders Paul p.6-7)
7. (Maccoby TMM p. 176), (Schonfield MOM p.8)
8. (Maccoby TMM p.127-128)
9. (see Maccoby TMM p. 5), (also Eisenman JBJ)
10. (see Maccoby TMM p.11-13, 73, 105-106)
11. (Sanders Paul p.18), (Maccoby TMM p.4, 130-133, 139)
12. (Mack WWNT p. 230, 232)
13. (Maccoby TMM p. 4, 130 ,139-147)
14. (Maccoby TMM p.139)
15. (Freke & Gandy TJM p.161)
16. (Livingstone ODCC p.124)
17. (Maccoby TMM p.17)
18. (Mack WWNT p.150-151)
19. (Eusebius HTC p.90), (Eisenman JBJ p.156)
20. (Ferguson BEC p.577), (Maccoby TMM p. 175)
21. (Maccoby TMM p.181), (see also Eisenman JBJ p. 249)
22. (Maccoby TMM p.181-183)
23. (see Vermes JTJ p.15)
24. (Spong WCMCD p.4)
25. (Mack WWNT p. 277), (see also Allegro DSS p.xxv), (Rubenstein WJBG p.170)
26. (Le Glay HOR p.525), (Rubenstein WJBG p.170)
27. (Livingstone ODCC p.595), (Encyclopedia Britannica 94-98).
28. (Grant J p. 72), (Eisenman JBJ p. 251)
29. For example: (Schonfield TPP p. 207), (Maccoby TMM p. 175)
30. (Asad TMQ p. 75)
31. (Knight & Lomas TSM p. 22, 99), (Baigent & Leigh DSSD p.174, 148-149)
32. (Wilson B. Christianity p.15)
33. (Spong WCMCD)



الفصل الخامس

ديانة المسيح
أم ديانة بولس؟

الفصل الخامس

ديانة المسيح

أم ديانة بولس؟

﴿وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لاَ يُؤْمِنُونَ ۞ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف ٤٣/٨٨-٨٩].

١- المعالم الرئيسية:

عندما يبحث المرء عن أصول المسيحية لا بد له أن يبدأ أو ينتهي بدراسة عن بولس، رائدها الأول، لأن بولس الذي لم يكن من الحواريين الاثني عشر، ولم يكن من صحابة عيسى ولم يكن شاهداً على أحداث بعثته، تمكن بمفرده من تأسيس المسيحية، وهو السبب الذي من أجله يطلق على الديانة المسيحية اليوم اسم مسيحية بولس، نسبةً إلى مؤسسها الفعلي، برغم الانطباع السائد بين العامة أن عيسى المسيح هو المؤسس، ذلك أنهم احتفظوا بعيسى المسيح رمزاً لعقيدة بولس، وقد يكون من المفيد التأمل فيما كانت ستكون عليه المسيحية – أو النصرانية- اليوم لو لم تنفجر ظاهرة بولس على مسرح التاريخ بعد وفاة المسيح.

خلال سني دعوته في العالم الروماني-الإغريقي تميّز بولس إمّا بجهله رسالة عيسى وتعاليمه على الأرض، أو بعدم اكتراثه بها، وبالتالي فإنّ دعوته تركزت على ثلاثة نقاط أو مفاهيم رئيسية انبثقت من قناعته بأنّ الهدف من بعثة عيسى لم يكن سوى افتداء خطايا البشر قبل النهاية الوشيكة، النقطة الأولى: أنّ عيسى، من حيث أنه أضحية إلهية، أصبح المنقذ المخلّص للبشرية والمكفّر عن خطايا العالم، والثانية: أنه أنشأ طقس القربان المقدس، من حيث أن عيسى كان

قرباناً مقدساً مات على الصليب، والثالثة: أنه أنذر الناس بنهاية التاريخ، وبالمجيء الثاني لعيسى خلال حياته هو وحياة معاصريه.

والنتيجة أن العقيدة المسيحية لم تنبثق من التاريخ الواقعي لرسالة المسيح، وإنما العكس فقد تضمنت الأسفار إعادة كتابة التاريخ المسيحي انطلاقاً من عقيدة بولس بتجاهل تام لرسالة المسيح.

٢- مفهوم المنقذ أو المخلّص:

يمكن تلخيص عقيدة بولس بالمسيح بعبارة واحدة وهي: (هبوط إله مخلّص من السماء)[١]، أو بمزيد من الوضوح: هبوط المخلّص ليفتدي خطايا العالم قبل النهاية التي أوشكت أن تقع، إذ الواضح من كتابات بولس أنّه أحلّ محلّ عيسى المسيح ورسالتَه وتعاليمَه الفعلية، مسيحاً آخر من ابتكاره، فبولس لم يكن من تلاميذ عيسى ولا من صحابته، وبولس نفسه لم يدّعِ هذا الشرف لنفسه، والأكثر من ذلك أنه لم يكن على علاقة جيدة مع صحابة عيسى وتلاميذه بعد رحيل عيسى، وباعترافه أنه لم يكن يختلط معهم خلال سني جهوده التبشيرية بل كان يَصِمُهم بأنهم (أخوة مزيّفين) وأنهم (رسل كَذَبة وشياطين) (رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس ١١/١٣،٢٦)، وقد كان من أسباب نجاحه أنه ادّعى عيسى المسيح لنفسه، وزعم أنه الوحيد الذي فهم المغزى من مجيئه "الأول"، وبذلك جعل منه رمزاً لمعتقداته الخاصة.

والمبرر الوحيد الذي بواسطته جعل بولس نفسه "رسولاً" لعيسى، أنّ عيسى بعد وفاته ببضع سنوات "ظهر" لبولس في "رؤيا"، ثم من خلال رؤى متتالية ومستمرة كان يتلقى الإلهام والتعليمات منه، وأنّ عيسى اختاره لهذا الإلهام .بمفرده من دون الحواريين الاثني عشر صحابته، ولذلك كتب بولس لأتباعه قائلاً: (إن جاءكم أحد يدعوكم إلى عيسى غير الذي ندعو إليه) (رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس ١١/٤)، .بمغزى أن بولس هو الأوحد المخوّل بتلقي

الإلهام من عيسى الميثولوجي، والمغزى أيضاً أنه ينكر ولا يقر بأي من تعاليم عيسى خلال بعثته على الأرض التي قد يواجهه بها الحواريون.

ومنذ ذلك الوقت أزيح جانباً عيسى المسيح التاريخي، ليحلّ محله عيسى الميثولوجي -كريستوس- الذي بموته على الصليب صار كفّارة لخطايا العالم لأنه أنقذ البشرية سلفاً من ربقة الخطيئة وتبعاتها، ويتضح ذلك من قول بولس: (لو كانت الاستقامة باتّباع الشريعة، لكان موت عيسى بلا جدوى) (رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٢١/٢)، وأيضاً: (ليكن معلوماً لديكم يا إخواني أنه بواسطة هذا الرجل -عيسى- تم إعلان المغفرة لخطاياكم، وبواسطته يمكن لأي شخص يؤمن به أن يتحرر من كل شيء لم يكن بإمكانه التحرر منه بحسب شريعة موسى) (أعمال الرسل ١٣/٣٨-٣٩).

كان ذلك جوهر عقيدة بولس التي عُرفت فيما بعد بالديانة المسيحية، وبديهي أن بولس لم يكن يخطط لإنشاء ديانة جديدة لأجيال قادمة، بل على النقيض من ذلك، كان يؤمن حرفياً، وليس مجازاً، بأن العالم سينتهي خلال حياته هو شخصياً.

والمذهل أنّ "الإلهام" الذي كان يتلقاه بولس من عيسى بعد وفاته، كان على النقيض تماماً من رسالة عيسى المسيح على الأرض! هذا "الإلهام" المناقض لرسالة المسيح جعله بولس أساساً لنظرته إلى الجنس البشري: الفصل التام بين الإيمان والعمل، والفصل التام بين الدين وقواعد السلوك الأخلاقية، كل ما هو مطلوب من المؤمن لكي ينجو: التصديق بعيسى كمخلّص له، وبعبارة أخرى أن نجاة المؤمن بعيسى كمنقذ يأتيه اوتوماتيكياً وبلا مقابل، فهو هدية مجانية، المطلوب فقط أن يؤمن الفرد أنّ موت المخلّص على الصليب كان كفارة لخطايا البشرية، وهذا الاعتقاد وحده بحسب بولس كافٍ لجعل صاحبه متفوقاً على باقي البشر ممّن لا يشاركونه هذا الاعتقاد، وفي الوقت نفسه لم يذكر بولس شيئاً عن تعاليم عيسى وأعماله على الأرض.

غير أن الحقيقة البسيطة أن عيسى لم يتفوه بأي كلمة في حياته تفيد أن الإنسان يتحرر من تبعة أعماله ما دام مؤمناً أن عيسى دفع الثمن مقدماً بالنيابة عنه ، فلو صحّ ذلك لكان بمثابة رخصة للفوضى الاجتماعية والجريمة والتحلل الأخلاقي والفساد، غير أن بولس قالها دون مواربة: (لأن خرق الشريعة يسبب الغضب -الإلهي- فعندما لا تكون شريعة، لا يكون بالتالي خرق لها) (رسالة بولس إلى أهل رومية ٤/١٥)، والمعنى أنك لا تستطيع خرق شريعة لا وجود لها! وكتب أيضاً: (جاءت الشريعة كي يزداد خرقها، ولكن حيثما يكثر خرق الشريعة تكثر النعم أكثر) (رسالة بولس إلى أهل رومية ٥/٢٠)، أي أن النتيجة الوحيدة من وجود الشريعة أن تكثر الخطايا حسب نظريته، ولذلك استنتج: (لذا نحن -أي بولس- نقرر تبرير أعمال الإنسان من خلال إيمانه، بدون التزامه بالشريعة) (رسالة بولس إلى أهل رومية ٣/٢٨).

أمّا كيف يمكن الفصل بين الدين وبين قواعد السلوك الأخلاقية؟ ولِمَ ينبغي على المرء أن يؤمن بمخلّص كي يغسل خطاياه؟ وكيف يمكن للإيمان وحده أن يكون كافٍ برغم خرق الشرائع؟ وكيف يمكن للمجتمعات أن تعمل إن لم يكن الأفراد مسؤولين عن أعمالهم؟ وماذا كان بولس يأمل من هجومه على الشريعة التي تنظم المجتمعات؟ قد يكون أنّ بولس اعتقد بتفاهة هذه الأسئلة وهذه القضايا بالنظر لاعتقاده الجازم بقرب النهاية، ففي هذه الحالة لا يبقى هنالك مجتمعات تحتاج إلى تنظيم، وليس من مبرر للمؤمنين أن ينصرفوا لتنظيم أمور الدنيا طالما أن نهاية العالم تقترب بسرعة والوقت الباقي قصير جداً (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورينثوس ٧/٢٩،٣١).

وبعكس ذلك كتب يعقوبJames ، الذي تزعَّم نصارى القدس بعد وفاة عيسى، قائلاً: (ما المنفعة يا إخواني إن قال البعض أنّ له إيماناً ولكن ليس له أعمال – صالحة –؟ ألا تعلم أيها الإنسان التافه أن الإيمان، بدون عمل صالح، ميت؟ ألا ترون أن الأعمال الصالحة للإنسان هي المبرر له وليس مجرد إيمانه؟ فكما أن الجسد بدون روح يكون ميتاً فكذا الإيمان بدون أعمال ميت أيضاً)

(يعقوب ٢/١٤، ٢٠، ٢٤، ٢٦)، مما يناقض عقيدة بولس بشكل سافر، ولذلك رأت الكنيسة في يعقوب تهديداً لها منذ البداية فعمدت إلى تكييف التاريخ بأن حذفت الكثير من المعلومات عن هذه الشخصية النصرانية الهامة، لكن اكتشاف وثائق قمران قرب البحر الميت عام ١٩٤٧ كشف هذا الزيف[٢].

غير أنه تأصّلت في عقلية بولس انطباعات مغايرة للنصرانية تماماً، فكان المهم عنده أن يتوب الناس، إذ لم يعد هناك متسع من الوقت لتنظيم السلوك والأخلاق والعمل في هذه المرحلة النهائية من الزمن الدنيوي، لذا يكفي الإيمان!

وقد يكون أيضاً أنّ قناعات بولس هذه تعززت بسبب الممارسات السائدة في العالم الروماني الإغريقي في عصره، فهو قد نشأ وعاش في عالَم يعجّ بالآلهة الإغريقية من الطراز الذي يصادفه المرء في ملحمة هومر، تلك الآلهة التي لم تكن لديها مقاييس أخلاقية أصلاً، دعكَ من تعليمها الأخلاق للناس، ففي الأساطير والملاحم التي ألفها أدباء الإغريق كانوا ينسبون إلى آلهتهم أنواعاً من المكائد والتعطش للدماء والغرائب الجنسية والشذوذ، وكانت العربدة التي تعيشها أمثال هذه الآلهة، بحسب مؤلفيها، لا تقل عن الفوضى اللاأخلاقية التي عاشها البشر المعاصرون لأساطيرها، بل أكثر من ذلك كانت آلهة الإغريق الوثنية تنغمس في التحيز والمحاباة والساديّة دون اهتمام بالعدالة، ولم يكن للمؤمنين بها مناشدتها باسم العدالة أو الحق[٣]، والعجيب أن مثل هذا التأثير الوثني على المناخ الفكري الذي عاشه بولس لم يفلت منه اليهود ولا حتى كتبهم" المقدسة" التي تعجّ بالفساد، انظر مثلاً: (سفر التكوين ٩/٢١، ١٩/٣٠-٣٨، ٣٥/٢٢، ٣٨/١٥-٣٠)، (٢صموئيل ١١/١-٢٧، ١٣/٥-١٤، ١٦/٢١-٢٣)، (الأمثال ٧/٧-٢٢)، (إرميا ٢٠/٧)، (هوشع ١/٢، ٤/١٢، ٦/١٠، ٩/١)، (حزقيال ٢٣/٢-٤٩).

نشأ بولس في طرسوس حيث كان تمثال ضخم للإله اليوناني هراكليس Herakles (هرقل عند الرومان) يُعرض خلال شوارع المدينة سنوياً، كان هراكليس عند اليونان ابن الإله زوسZeus وكانوا يعبدونه لما يعتقدون فيه من

جلب الحظ السعيد، ولكونه مخلّص المؤمنين به، ففي الدراما الإغريقية الميثولوجية ألكستيسAlkestis ، كتابة الأديب يوريبيديس Euripides، ترد قصة نصف الإله هراكليس وهو يغامر بالنزول إلى عالم الموت لإنقاذ ألكستيس زوجة صديقه.

فلا بد أن بولس في طرسوس كان يشاهد سنوياً، ومنذ نعومة أظفاره، الجموع الهستيرية التواقة لغسيل خطاياها وهي تهتف لمخلّصها نصف الإله هراكليس، حاملةً تمثاله الضخم عبر شوارع المدينة، وأنّ بولس بعدما نشأ وترعرع في هذا الوسط الوثني اكتسب من القناعة والأمل أنه يمكن للبشر بكل ما فيهم من آثام أن يغسلوا خطاياهم بدم مخلّص ما، تماماً كما اعتقد الوثنيون في طرسوس أنهم يغسلون خطاياهم بدم الإله ميثراس، أو كما اعتقدوا أنه يمكن إنقاذهم من قبل نصف الإله هراكليس الذي نزل إلى عالَم الموت لإنقاذ أرواح البشر(٤).

كان المناخ الفكري في ذلك العصر مواتياً جداً لجهود بولس التبشيرية، كما كان مواتياً لنظرياته التي طوّرها عن المسيحية، حتى قبل "ظهور" المسيح له في "الرؤيا" وقبل "اعتناقه" المسيحية التي قدّر له أن يبتكرها. كانت الفكرة تختمر في عقل بولس بأنّ عيسى يجب أن يكون إلهاً أو نصف إله من الطراز الهرقلي، أو أن يُرفع إلى مصاف الآلهة، وكانت مثل هذه الفكرة مستساغة ومعقولة جداً في أذهان الهلنستيين من سكان أنطاكية السورية، ولذا أصبحت أنطاكية مركزاً للعقيدة الهلنستية عن عيسى المسيح، ولمّا كان هذا المفهوم بالنسبة لبولس على جانب كبير جداً من الأهمية فقد ربط نفسه منذ البداية بالهلنستيين في أنطاكية، وبرز فيها زعيماً مسيحياً منذ البداية، بدلاً من أن يرتبط مع نصارى القدس وصحابة وتلاميذ المسيح، وهكذا تم ابتداع مصطلح "المسيحية" و "المسيحيين" للمرة الأولى في أنطاكية (سفر أعمال الرسل ١١/٢٦) في مقابلة مصطلح النصارى الذي كان يطلق في القدس على صحابة عيسى المسيح وأنصاره (سفر أعمال الرسل ٢٤/٥).

كتبَ قدامى شعراء الإغريق أنّ الآلهة تتجول بنفسها بين الناس متخفية على شكل بشر، ولهذا السبب طرد أفلاطون الشعراء من جمهوريته التي تخيّلها، كَتَبَ الشاعر الإغريقي هومر في الأوديسة Homer's Odyssey (أنّ الآلهة تتخفى في زيّ الغرباء القادمين من بلاد بعيدة وتتقمص مختلف الأشكال وتتجول في المدن لكي تلاحظ وتنظر في شرور الناس واستقامتهم)، وقد رأينا بالفصل (٣-٣) أن سفر أعمال الرسل يحتوي على قصص مشابهة لهذه الفكرة (أعمال ١٤/١١-١٢)[٥].

تماماً كما في أساطير الإغريق عن الإله ديونيسسDionysus الذي يتجول في عالم البشر مخفياً حقيقة ألوهيته والذي كانت ديانته من أكثر الديانات شيوعاً عند الإغريق وفي العالم الروماني-الإغريقي، وبفضل جهود بولس، نجحت شخصية الإله ديونيسس في إزاحة شخص عيسى المسيح تدريجياً وحلّت مكانه، كتب بولس إلى أتباعه في فيليبي: (رغم أنّ عيسى وُجد في صورة الله لكنه لم يعتبر مساواته بالله اختلاساً، فجعل نفسه بلا سمعة وتقمص شخصية الخادم متشبهاً بالبشر فكان في ظاهره بشراً) (رسالة بولس إلى أهل فيليبي ٢/٦-٨). وهكذا نجح بولس في تحويل أساطير الإغريق إلى نظريات لاهوتية.

دمجت العقلية الهلنستية آلهة الإغريق مع آلهة المشرق، وغصّت الميثولوجيا بقصص الآلهة وأنصاف الآلهة وأبناء وبنات الآلهة حتى صارت سمة مميزة لتلك العقلية، وفي ذلك العالم وتلك العقلية تم تدريجياً تشويه لقب المسيح ومغزاه ومعناه، ولم يعد لقب المسيح يعني النبي الذي اختاره الله لإصلاح الدين، وإنما كانت كلمة "كرستوس " Chrestos اليونانية التي استعارها بولس من عقيدة الإغريق [٦] ، بالرغم من عقيدة النصارى الأوائل التي لم تكن تشمل أدنى فكر من هذا القبيل، ولم يكن عيسى بالنسبة للنصارى إلهاً ولا نصف إله ولا مؤلهاً، وإنما المسيح المنتظر النبي العظيم الذي اختاره الله خاتمة أنبياء بني إسرائيل العظام.

ولكن بولس الهلنستي الفكر والثقافة كان قد استوعب الكثير من "حكمة الإغريق"، فقرر من البداية أن يدير ظهره للنصارى في فلسطين، ومن العجَب أن بولس لم يدّعِ أنه كان مصاحباً لعيسى ولا من تلامذته ولا أنه كان على معرفة به قبل رحيله، لم يدّعِ أيّاً من ذلك لأنه لو فعل لأصبح مع بقية صحابة المسيح وتلامذته على قدم المساواة، فعلى النقيض من ذلك أعلن نفسه "رسولاً" للمسيح المتوفّى، وبالتالي صار أعلا منهم منزلةً، قالها بكل وضوح في رسالته إلى أهالي غلاطية: (وأنا أشهد لكم يا أخواني أنّ الإنجيل الذي أُعلنه لكم ليس من اختراع البشر ولم أتعلمه من أي إنسان، وإنما أوحاه إلي عيسى نفسه) (رسالته إلى غلاطية ١/١١-١٣)، بمعنى أنه كان يتلقى الوحي من عيسى المتوفّى، فهو عيسى آخر غير الذي عرفه الحواريون والصحابة وهكذا حسم بولس النزاع لصالحه، لقد أنشأ لنفسه اتصالاً مباشراً مع شخصية جديدة لعيسى، فمَن يجرؤ على معارضته إذن؟!

وهكذا بالنسبة لبولس بدأ كل شيء من الصفر، أي من لحظة رحيل المسيح عن هذا العالم، فهو لم يكن يعرف شيئاً عن حياة المسيح ولاعن بعثته ورسالته ولم يكترث أن يعرف، لأن رسالة المسيح على الأرض بالنسبة له لم تكن تحمل أي معنى، ولذا صرف كل طاقته في البحث عن ماهية المسيح وعن "مغزى صلبه وقيامته" فكتب بكل وضوح: (لذا ومن الآن فصاعداً نحن لا نعرف أحداً بحسب الجسد، فمع أننا عرفنا عيسى بلحمه ودمه، فإننا لا نقر به على هذا النحو بعد الآن) (رسالة بولس الثانية إلى أهل كورينثيوس ٥/١٦)، وهكذا أقر بولس صراحة أن عيسى الذي يتحدث عنه هو كريستوس الميثولوجي وليس عيسى الحقيقي الذي عاش على هذه الأرض.

٣- طقس القربان المقدس:

طقس القربان المقدس ابتكار آخر من مبتكرات بولس، وهو مشتق من قصة العشاء الأخير لعيسى مع الحواريين المعروفة في الأسفار الثلاثة الأولىsynoptic

والتي يجب أن نذكر أنها كُتبت بعد الأحداث بعقود من الزمن، وبالتأكيد بعد زمن بولس وفي هيمنة مناخه الفكري، ومع ذلك فالسفر الرابع لا يعرف عن هذه القصة شيئاً! كان بولس أول مَن كتب عن هذا الطقس في رسالته إلى أهل كورينثيوس ثم بعده بعقود نقلت الأسفار المتشابهة القصة عنه، ونسبت إلى عيسى أقوالاً لا يليق لنبي يهودي أن يقولها، ولا تتناسب مع احتفال عيد الفصح اليهودي المفترض أنّ عيسى كان يحتفل به(٧).

تخيّلَ بولس أن عيسى المسيح، عندما استسلم سلفاً للصلب الذي كان يتوقعه! أمرَ صحابته أن يأكلوا من لحمه ويشربوا من دمه، رمزيّاً، ويجدر الذكرى بهذا المقام أن شرب الدم كان من طقوس العبادات الهلنستية الغامضة التي ترمز إلى قهر الموت(٨).

هذا التشبيه الرمزي من قبل بولس يلفت النظر جداً، فكما أنّ اليهود يذبحون ويأكلون الخراف احتفالاً بعيد الفصح الذي هو ذكرى نجاتِهم من فرعون مصر، فكذا المسيحيين يأكلون لحم المسيح -حَمَل الله- ويشربون دمَه في ذكرى خلاصهم من الذنوب، وهكذا ومن وجهة نظر بولس تم اختراع إله هلنستي جديد بمسمّى "كريستوس"، وبالمعنى الذي يؤديه هذا اللفظ اليوناني، ولأنّ موت كريستوس كان كفّارة لخطايا العالَم، فهو بالتالي فقد أصبح المنقذ أو المخلّص (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورينثوس ١٥/٣)، والخلاصة أن عيسى المسيح تحوّل إلى "كريستوس" هلنستي.

كان بولس هو المصدر الوحيد والأول الذي أخبر عن قصة القربان المقدس وابتدع الاحتفال بها، علماً أن الحواريين والنصارى في القدس لم يكونوا يحتفلون به، وبولس نفسه كتب أنّه لم يتعلم هذا الطقس من الحواريين أو صحابة المسيح، ولكن تلقّاه من السماء مباشرة من عيسى نفسه (سفر الكورنثيين الأول ١١/٢٣-٢٦)، وكان هذا الإقرار منه بأن ليس للنصارى

علاقة بهذا الطقس ضرورياً له ومناسباً في الوقت نفسه، لأنه يستحيل التصديق أن يكون عيسى هو الذي أسّسه، ولكنه بولس الذي كان أول من تكلّم عن "صلب المسيح" الذي أصبح بذلك حَمَلاً جديداً لعيد الفصح إذ كتب: (لأنه حتى عيسى "كريستوس" حَمَل الفصح جرى التضحية به لأجلنا) (رسالة بولس الأولى إلى أهل كرينثوس ٥/٧)، ثم بعد بولس بحوالي سبعين عاماً اختار يوحنا مؤلف السفر الرابع أن يضع على فم يحيى المعمدان أكثر الألفاظ إلحاداً في الدين اليهودي فكتب: (انظروا حَمَل الله الذي يغسل خطايا العالَم) (يوحنا ١/٢٩)، والمغزى أن الخلاص قد تم بإهراق دم "كريستوس"، وهو تشبيه شديد الوضوح مع المفاهيم الوثنية الهلنستية لتكفير الذنوب، إذ جعلوا من عيسى قرباناً مقدّساً.

هذا الطقس الذي تبنته المسيحية أكثر ما يبرز التفاوت الصارخ بين عيسى "كريستوس" الميثولوجي الذي آمن به بولس، وبين عيسى المسيح الذي ظهر على مسرح الأحداث في فلسطين، وهو من أكبر البراهين على أن المسيحية قد اشتُقت من ميثولوجيا بولس، وليس من التاريخ الواقعي لعيسى المسيح، حتّى أنّ السفر الرابع، وهو أكثر الأسفار إغراقاً في الميثولوجيا، لم يذكر شيئاً عن تأسيس طقس القربان المقدس!

وأما العبارة الواردة في السفر الرابع: (مَن يأكل لحمي ويشرب دمي يتحقق له الخلود) (يوحنا ٦/٥٤)، فلا بدّ أنها إضافة متأخرة مِن قبل أحد المنقحين الذين أحرجهم عدم وجود وصف لهذا الطقس في سفر يوحنا، كتب ويلسون: (حتى لو قبلنا تصديق الإدعاء المذهل أنّ عيسى أراد تأسيس دين جديد بكادر متكامل من رجال الدين كالأساقفة والشماسين وغيرهم، فيستحيل أنّ نصدّق أنه أسّس طقس القربان المقدس كما يجزم بذلك بولس والأسفار المتشابهة الثلاثة)[٩].

كان قدماء المصريين يعبدون الإله أوزيريس ويصنعون له جسداً من عجين القمح ثم يأكلونه قرباناً مقدّساً، معتقدين أنهم يستمدّون السطوة من جسد

أوزيريس ودمه، الحبوب كانت رمزاً لأوزيريس، والخبز المصنوع من القمح كان طعاماً مقدساً، في حين أن الجعة المخمّرة من الشعير كانت شراباً مقدساً، وكانوا يعتقدون أن الخبز والجعة هي جسد ودم أوزيريس حرفيّاً وليس مجازاً، كان هاجساً قوياً في العالم القديم أنّ كل من يأكل من جسد الإله الميت ويشرب من دمه يتحقق له الخلود، وأن أوزيريس يصبح فيه وهو يصير في أوزيريس ويتحد معه، وفي إحدى مخطوطات الأهرامات المؤرخة ٢٦٠٠ ق م ذكروا (أن الآلهة تعطيك من جسدها ومن دمها.. لكي لا تموت –أيها البشر–) وفي صلاتهم كانوا يرتلون للإله: (خبزك الذي يحقق الخلود وجعتك التي تحقق الدوام)، وعن الإله هوراس Horus ابن أوزيريس كتبوا أيضاً: (هوراس هو الأضحية والطعام المقدس معاً).

وفي ديانات الإغريق اتّخذ أوزيريس اسم الإله ديونيسس Dionysus ذي الشخصيات المتعددة، وفي إحداها اعتبروه إلهاً مخلّصاً مات لأجل البشرية، يأكلون من جسده ويشربون من دمه في طقس القربان المقدس[١٠].

وفي ذلك كتب الأسقف جون سبونج Spong راعي أسقفية نيوارك في نيوجرسي بالولايات المتحدة مايلي: (في السلوكيات البدائية لبشر ما قبل التاريخ كانوا يحاولون أن يكتسبوا لأنفسهم قوة وسطوة أعدائهم، ومن ثم آلهتهم، بأن يأكلوا من لحومهم ويشربوا من دمائهم، وعلى الغالب فإنّ طقوس أكل لحوم البشر هذه قد دخلت المسيحية عن طريق الديانات المتنوعة الغامضة التي كانت منتشرة في شرق المتوسط كديانة ميثراس Mithras مثلاً)[١١].

غير أنّ بولس صرّح بلا غموض ولا إبهام أنّ عيسى بعد صعوده إلى السماء هو الذي أمَرَه أن يؤسس هذا الطقس المسيحي الهام: (لقد تلقيت من الرب ما قمت بتلقينه إياكم، أنّ الرب في الليلة التي غدروه فيها أخذ خبزاً وبعد أن قدّم الشكر قطع الخبز وقال: خذوا، كلوا، هذا جسدي أقدمه لكم، وبنفس الطريقة أخذ الكأس بعد العشاء قائلاً هذا الكأس هو العهد الجديد بدمائي، فلتقوموا

بذلك كلما شربتم منه في ذكراي) (سفر الكورنثيين الأول ١١/٢٣-٢٦)، وهكذا صار المسيحيون يأكلون جسد المسيح ويشربون دمه، تماماً كما فعل الوثنيون الهلنستيون في عباداتهم مِن قبل، والواضح أن مثل هذا الإيماءة مهما كانت رمزية كانت ستصيب عيسى بالدهشة، لأنه كان بالدرجة الأولى نبي اليهودية ومسيحها المنتظر لا شك فيه.

إن الاحتفال بطقس القربان المقدس أو "عشاء الربّ" كما كان يسمّى في الأصل، والذي اشتُقّ بالذات من طقس عبادة الإله الهلنستي ميثراسMithras ، دفعَ بالمسيحية بعيداً جداً عن ديانة عيسى[١٢]، فالنصارى في القدس الذين يفترض أن كانوا مطلعين على الأمور أكثر بكثير من غيرهم لم يحتفلوا بطقس القربان المقدس، بل لم يكونوا على علم به أصلاً، والواقع أنه لو كان نصارى القدس يحتفلون بهذا الطقس من قبل، كما يحلو للبعض الادعاء، لأصبح غير ذي معنى ادعاء بولس المتأخر بأنه تلقى الأوامر بتأسيس طقس كان النصارى يمارسونه أصلاً!.

أطلق بولس على طقس القربان المقدّس اسم (عشاء الرب)، وهذه التسمية بالذات كانت مألوفة في الأديان الهلنستية الميثولوجية، إذ كانوا يطلقونها على وجبات الطعام المقدسة التي تكرسّها آلهتهم المنقِذة، ممّا سبب حَرَجاً كبيراً لآباء الكنيسة الأوائل حتى أنهم غيّروا التسمية فجعلوها (طقس القربان المقدس)، بمعنى أنّ عيسى عندما صُلب صار قرباناً مقدساً[١٣]، ورغم التغيير فإنّ تعبير (عشاء الرب) المستعار من طقوس عبادة الإله ميثراس ابتعد بالمسيحية كثيراً عن رسالة عيسى[١٤].

وليس مستغرباً على بولس أن استخدَمَ تعبير عشاء "الرب" (باليونانية kyrios)، فلا ننسى أن بولس كان يتكلم ويراسل أتباعه باليونانية، وإنّ كلمة كوريوس kyrios اليونانية لقب للإله، حتى أن الكتاب المقدس اليهودي في ترجمته السبعينية باللغة اليونانية استخدم كلمة الربkyrios بدلاً من "يهوه"

الكلمة ذات الأربعة حروف YHWH التي لا يجرؤ يهودي على لفظها احتراماً وإجلالاً لله تعالى(١٥)، فيلفظون كلمة الربkyrios بدلاً عنها، فلو أن أي يهودي وصفَ إنساناً بكلمة "الرب" قاصداً تأليهه لاعتُبر ذلك كفراً صريحاً، ولكن الأمر كان عاديّاً جداً بالنسبة لبولس وللهلنستيين الذين تلقّوا المسيحية عنه، فقد كانوا يستخدمون تعبير "الربkyrios " لآلهتهم الهلنستية الوثنية على أية حال .

لكنّ الإحراج الذي سببه طقس القربان المقدس لآباء الكنيسة الأوائل بلغ مبلغاً كبيراً حتى أنّ أحدهم في القرن الثاني وهو اللاهوتي المتأوِّل جوستين مارتير Justin Martyr اعتذر عنه قائلاً: (هذا الطقس قامت الشياطين بتقليده سلفاً في طقوس عبادة الإله ميثراس وأمرت أتباعها أن تقوم به، فكانوا في طقوسهم يستعملون الخبز وكأس من الماء مع تعويذات ورقيّ لكل من يدخل ديانتهم) ويرمي جوستين من كلامه إيهام الناس أنّ الشياطين توقعت هذا الطقس المسيحي قبل بولس بكثير فأمرت أتباعها بالاحتفال به قبل بولس، كما كتب اللاهوتي المتأوِّل ترتوليان Tertullian عن ذلك عبارات مشابهة، وقد أقرّ بولس نفسه بأنّ هذا الطقس كان معروفاً قبله في عبادة ميثراس فكتب: (لا يمكنك أن تشرب كأس الرب وكأس الشياطين في آن واحد، كما لا يمكنك أن تأكل من مائدة الرب ومائدة الشياطين معاً) (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورينثوس ١٠/٢١)، (١٦).

كان ميثراس Mithras في الميثولوجيا الهندية-الفارسية إله النور، وكان من نتائج هزيمة الفرس على يد الاسكندر المقدوني أن انتشرت عبادة ميثراس في العالم الهيلينستي حتى وصلت ألمانيا وبريطانيا وإسبانيا، وفي القرنين الثالث والرابع الميلادي شاعت عبادة ميثراس إذ نشرها الجنود الرومان حتى أصبحت المنافس الرئيسي للمسيحية، ويكفي القول أن أباطرة روما كومودوس Commodus وجوليان Julian دخلا في عبادة ميثراس، حتى أنه في العام

٣٠٥م أمر الإمبراطور ديوكليتيان Diocletian ببناء معبد على نهر الدانوب كرّسه لعبادة ميثراس باعتبار الأخير -أي ميثراس- "حامياً للإمبراطورية ."

وبحسب الأساطير فإن الإله المخلّص ميثراس تمكن من ذبح الثور الكوني الذي يمدّ الكون بالحياة بواسطة دمه الذي يسمّد الأرض ويُنبت النبات، وقد تمّت التضحية بالثور كي تتمكن البشرية من الحصول على الخبز لتحيا، وقد شرب ميثراس من دم الثور الذبيح، وهكذا صار ذبح الثور طقساً مهماً من طقوس عبادة ميثراس حتى شاع في الفن الهلنستي وصار نموذجاً يُحتذى به، ثم تحول ميثراس عند اليونان إلى هليوس إله الشمس، وعند الرومان تحوّل إلى (سول إنفكتوس) Sol Invictus الشمس التي لا تقهر.

كانت مدينة طرسوس، مسقط رأس بولس، مركزاً رئيساً من مراكز عبادة الإله ميثراس، ومن أبرز معالم هذه العقيدة أن كان على المعتنقين الجدد لها أن يشربوا من دم الثور الذبيح المقدس ، أو يشربوا كأساً من النبيذ مجازاً عن دم الثور، كان يذبحون الثور المقدس فوق منصة يقف تحتها المبتدىء، فيغتسل بالدم الذي يسيل من فوقه ويمسح به وجهه وجسده، ممّا يُعتبر رمزاً للخلاص، وفي ذات الوقت يشترك الحاضرون في المعبد بالشرب من دم الثور الذبيح، ولا بدّ أنّ بولس شاهد مثل هذه الاحتفالات في صغره وأثناء شبابه عندما نشأ في طرسوس لكثرة شيوعها، وعلى فرض كون والديه من اليهود -بعض المصادر تشكك في ذلك- فمن المؤكد أنهما كانا يتقززان من طقوس ميثراس لأن شرب الدماء من أكثر الأمور حرمةً في الديانة اليهودية[١٧].

والخلاصة أنّ طقس القربان المقدس من ابتكار بولس بالكامل، إذ ليس هنالك أدنى ادّعاء من جانبه أنّه أخذ هذا التقليد عن أي من صحابة عيسى الذين رافقوه ليلة العشاء الأخير وقت احتفالهم بعيد الفصح اليهودي، بل قال صراحةً أنه استلهمه من عيسى بعد وفاته، وهو قول يستحيل تصديقه لأن شرب الدم محرّم إطلاقاً عند النصارى واليهود معاً كما يشهد بذلك سفر أعمال

الرسل نفسه (سفر أعمال الرسل ١٥/٢٩)، ثم إنّ هذا التحريم استمرّ عند نصارى القدس لأجيال طويلة بعد بولس، ولأنّ النصارى كانوا أعلم الناس برسالة عيسى وتعاليمه فإنهم لم يحتفلوا بطقس القربان المقدس، في حين لو كان عيسى هو المؤسس لهذا الطقس لكانوا أول من يحتفل به .

ولكن رسائل بولس طافحة بالابتكارات والخيال، فبالنسبة له كان طقس القربان المقدس جزءاً من فهمه "لصلب" عيسى، ومن البداية كان "صلب" عيسى هو المهم بالنسبة لبولس، لم يقدم عيسى إلى أتباعه كمعلم ذو رسالة روحية قيّمة، ولكن جعل منه فقط ميثولوجيا جديدة.

رأى بولس في عيسى ما كان يراه عَبَدَة ميثراس في موت الثور المقدس، فهنالك ترنيمة لعَبَدَة ميثراس تقول: (لقد خلّصتنا أيضاً بأن سفكت الدم الخالد)، كان بولس يتخيل أنّ بإمكانه الاغتسال بدم "المصلوب" كي يشعر أن حياة المسيح قد حلّت فيه وأن خطاياه قد مُسحت[١٨]، كتبَ بولس (لقد أخبرتكم ما وصلني بالدرجة الأولى من الأهمية أن "كرستوس" مات لأجل – محو- خطايانا) (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورينثوس ١٥/٣)، وكتب أيضاً: (إنّهم سلّموا عيسى -للقتل- بسبب تجاوزاتنا) (رسالة بولس إلى أهل رومية ٤/٢٥)، وأيضاً: (لأنه جعل الذي لم يعرف خطيئة، خطيئةً لأجلنا، لكي نصبح بر الله فيه) (رسالة بولس الثانية إلى أهل كورينثوس ٥/٢١).

ولا بد أن هذه الفكرة كانت ذات جاذبية هائلة لدى الهلنستيين في الإمبراطورية الرومانية، إذ كانت ديانة ميثراس منافساً قوياً وجدّياً للديانة المسيحية، غير أن بولس أفلح في استنباط أوجه تشابه بين عقيدته وبين معتقداتهم مما جعلهم يشعرون بالألفة، إذ سمح لهم أن يحتفظوا بعقائد واحتفالات ومناسبات سبق لهم أن اعتادوا عليها[١٩].

ومن ذلك أن اتخاذ أيام الآحاد كعطلة، والاحتفال بعيد الميلاد يوم ٢٥ ديسمبر، تعود في أصلها إلى عَبَدَة ميثراس الذين كانوا يقدّسون أيام الآحاد، أما يوم ٢٥ ديسمبر فكان عيد ميلاد ميثراس عندهم، وكذا الأمر عند الزرادشتيين

الذين كانوا يعظّمون يوم ٢٥ ديسمبر باعتباره يوم ميلاد إله الشمس أو النور أو النار.

وقد أصدر الإمبراطور الروماني أوريليان Aurelian في العام ٢٧٤م أصدر أمراً حدد فيه يوم ٢٥ ديسمبر عيداً لميلاد إله الشمس التي لا تقهر Sol Invictus، وهو كما ذكرنا أعلاه نفس إله الشمس اليوناني هليوس Helios، المكافيء لإله النور ميثراس Mithras ، ثم بعد انعقاد مجمع نيقية تقرر اعتماد يوم ٢٥ ديسمبر عيداً لميلاد المسيح، مع أنه لا يوجد في العهد الجديد ما يبرر تحديد هذا التاريخ، بل على النقيض من ذلك (انظر لوقا ٢/٨)، وهنالك عدة تواريخ محتملة لميلاده عليه السلام تتراوح من (مارس/آذار) إلى نوفمبر وهي الفترة الزمنية التي يخرج فيها الرعاة إلى الحقول مع مواشيهم في المناخ الفلسطيني حيث تلقوا بشارة الملائكة بميلاده عليه السلام.

والجدير بالذكر أيضاً أنه قبل مؤتمر نيقية وحتى القرن السادس، كانت بعض الكنائس الشرقية تحتفل بما تسميه عيد الظهور أو عيد الغطاس Epiphany يوم ٦ يناير من كل عام، باعتباره اليوم الذي ولد فيه المسيح وتعمَّد وظهَرَ لمجوس الفرس الذين جاؤوا إليه من بلادهم مهتدين بنجم دلّهم على مكان ولادته! وهذا التاريخ بالضبط كان يُجلّه أتباع ديانة الإلهة بيرسيفون Persephone عند الإغريق وهي ابنة الإله زوس Zues وملكة عالَم الموت التي أنجبت الإله ديونيسس يوم ٦ يناير[٢٠].

٤- الإنذار بنهاية العالَم:

كان لدى بولس هاجس قوي، بل عقيدة، أنّ "يوم الرب" (يقصد نهاية العالَم حسب تعبيره) كان وشيكاً، ليس بالنسبة له بمفرده، وإنما للعالَم أجمع، وقد تكون هذه أكثر معتقداته أهمية وأقواها من حيث كونها القوة الدافعة وراء نشاطه التبشيري، وقد توقع بولس حدوث هذه النهاية حرفياً وليس مجازاً، وعاجلاً وليس آجلاً، أي خلال أيامه شخصياً وأيام معاصريه[٢١].

رأى بولس أنّ حياة ومعاناة المسيح "وموته وقيامته" وصعوده إلى السماء، كلها لم تكن سوى مؤشرات لنهاية العالم، وكان يعتقد أنّ قَدَره القيام بدور فريد في أحداث عصره، ومن هذا الدور إنذار المؤمنين بالنهاية الوشيكة، كانت تلك هي القوة الدافعة وراء "مهمّة" بولس، كان الوقت قصيراً يوشك على النفاد والعالم على وشك أن يتبدّد: (أقول لكم يا أخواني أن الزمن -الباقي- قصير،...وأن العالم بشكله الحالي قارب نهايته) (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورينثوس ٧/٢٩، ٣١)، وبعد أن انتهت حسب رأيه مهمته التبشيرية في المشرق، بدأ يخطط للذهاب إلى أقصى العالم -إسبانيا- لينذر الناس هنالك أن عليهم التوبة قبل النهاية الوشيكة، كتب إلى أتباعه في روما: (وحيث لم يعد مكان لي في هذه المناطق -في المشرق-... فسأمضي ماراً بكم إلى إسبانيا) (رسالته إلى أهل رومية ١٥/٢٣، ٢٨)، كان يخشى أن يدركه الوقت فينتهي العالم قبل أن ينذر الناس في إسبانيا، وفي طريقه إليها كان يريد المرور في روما للقاء أتباعه فيها .

الواضح إذن أن بولس لم يكن ينوي تأسيس ديانة جديدة للأجيال القادمة، حتى أنّ كلمة "المسيحية" لم تظهر في كتاباته ولا مرة واحدة، رغم أنهم أقحموا مؤخراً في طبعة الكتاب المقدس الجديدة بالإنكليزية New English Bible كلمات "المسيحية" في رسائل بولس[٢٢]، لقد كان همّه الأول إنذار البشرية بالنهاية القادمة وتلك كانت القوة الدافعة وراء مجهوده[٢٣].

ففي هذا النطاق من تفكير بولس لم يرَ حاجةً لعمل إصلاحات اجتماعية ولا لتكوين نظام اجتماعي جديد حيث لم يتوقع أن يستمر العالم بعده، ومن الطريف أنه على عكس ما توقع كان لرسائله دور كبير في تكوين مجتمعات المستقبل التي لم يتخيل أن ستكون أصلاً، كان يظن أنه بنهاية العالم في أيامه سيعود المسيح فوق السحاب على صورة ابن الإنسان المذكور في الفصل السابع من سفر دانيال، وكان المفترض على المسيح في ظهوره المجيد الثاني أن يقضي على الإمبراطورية الرومانية وينشيء بدلاً منها مملكة الله على الأرض، وتوقع

بولس أن يكون معظم معاصريه على قيد الحياة لمشاهدة المجيء الثاني للمسيح: (ثم نحن الأحياء والباقون سنلتقي معاً في السحاب لملاقاة الرب -عيسى- في الجو) (رسالة بولس الأولى إلى أهل تسالونيكي ٤/١٧).

وفي ذلك كتب ولسون: (كان ظنّ بولس أن المسيح سيعود ويظهر لصحابته وأنصاره المخلصين في القدس حيث المفترض أن تنشأ إسرائيل جديدة، لم يدر في ذهنه أن ستنشأ كنيسة مسيحية بكوادرها من رجال الدين البطاركة والقسس والشماسين مع كتاب العهد الجديد، فتستمر كل يوم أحد، أسبوعاً بعد أسبوع إلى ما لانهاية، مثل هذا التخيل كان سيذهل بولس، فبالنسبة له كان الوقت قد انتهى أو قارب، ولا مجال للبدء بديانة جديدة من الصفر!)[٢٤].

ومع أنّ الأحداث برهنت خطأ توقعات بولس فقد استمر بعضهم بالاعتقاد بها، ثم بعده بعدة سنوات كرر يوحنا مؤلف سفر الرؤيا تنبؤات مماثلة، غير أنّ المذهل كيف أن الكنيسة في أوقات لاحقة قررت إدخال سفر الرؤيا ضمن العهد الجديد فجعلته جزءاً من الكتاب المسيحي المقدس رغم فشل نبوءات يوحنا بشكل سافر، مثلما فشلت قبله نبوءات بولس!

وبعد انقضاء عشرات السنين على وفاة بولس ورغم عدم تحقق نبوءاته عن نهاية العالم، وعن المجيء الثاني لعيسى، فإن الكنيسة بقيت متمسكة بها ولم تبحث لنفسها عن أية إمكانية للتراجع أو المراجعة، لقد ارتبطت نهائياً وإلى غير رجعة بفكر بولس وبنظرياته اللاهوتية، ولم يعد هنالك إمكانية لبحث الأمور من جديد، ولا العودة إلى رسالة عيسى التاريخية، صار هنالك مؤسسة كنسية مبنيّة على فكر بولس ولم يعد من مصلحة أحد نسفها، كان البديل الوحيد الذي ألزمت الكنيسة نفسها به هو محاولة البحث عن مخرج منطقي للاهوت بولس، رغم عدم وجود شيء من هذا القبيل[٢٥].

ولهذا الغرض، وللمحافظة على مسار الكنيسة وإيجاد مخرج لها، فقد لزم أن يقوم المنظّرون واللاهوتيون بمحاولات لتفسير المتناقضات وإخراجها بشكل

فلسفي وتفسيرها تفسيراً رمزياً غير حرفي"[٢٦]، وهذا الأمر بدوره ساهم بصورة نهائية بتشويه ما قد يكون بقي من رسالة عيسى الحقيقية، واستمرت الأمور على هذا النحو حتى مطلع القرن السابع بمجيء الإسلام الذي أعاد الأمور إلى نصابها بكشف النقاب عن رسالة المسيح الحقيقية وإنصافها.

تزودنا نبوءات بولس عن نهاية العالم الوشيكة بوسيلة قيّمة لفهم نظرياته الاجتماعية فيما يتعلق بالمحافظة على الأوضاع الراهنة وعدم محاولة تغيير أي شيء حتى في الأمور الفردية البسيطة، فعلى الأغلب أنه اعتقد بعبث وعدم جدوى محاولات التغيير طالما الوقت الباقي قصير جداً، وأن المسيح وقتما يعود في القريب العاجل سيقوم هو نفسه بإحداث التغييرات الجذرية على أية حال، ولذلك كتب: (بسبب الأزمة الراهنة أعتقد من الأفضل لكم أن لا تغيّروا شيئاً، هل أنت متزوج؟ لا تطلب الطلاق، هل أنت عازب؟ لا تبحث عن زوجة، الزواج ليس إثماً ولكن مَن يتزوج يواجه المتاعب في الجسد وأريد أن أغنيكم عنها، وأنا أقول لكم أن الوقت -الباقي- قليل) (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورينثوس ٧/٢٦-٢٩)، ولعله نصح الناس بعدم الإقبال على الزواج لهذا السبب إذ كتب: (مِن الحَسَن للرجل أن لا يتزوج) (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورينثوس ٧/١).

كان هاجس بولس بنهاية التاريخ سبباً لإصراره من البداية على تجاهل رسالة عيسى الدنيوية واعتقاده بعدم أهميتها، فطالما أن المخلّص سيعود قريباً جداً، عاجلاً غير آجل، فينتهي تاريخ العالم وتتأسس مملكة الله على الأرض، فلا يمكن أن يكون هنالك من مغزى أو هدف للمجيء الأول لعيسى سوى أنه كان أُضحية إلهية ذبحت على الصليب لتكفّر عن خطايا البشر قبل النهاية المقبلة، وهكذا انصبّت كافة جهود بولس التبشيرية في هذه النقطة.

٥- القيم الاجتماعية عند بولس:

أ- رسائل بولس، الإنجيل الشرعي الوحيد:

أراد بولس أن يؤكد لأتباعه وسامعيه أنه وحده (فقط دون غيره) يبشرهم بالإنجيل الشرعي الوحيد، إذ كان يعتقد أنه الوحيد المطّلع على "الحقيقة" من دون باقي البشر، بل من دون ملائكة السماء حسب قوله، حتى أنه تحدّى الملائكة بصبّ اللعنات عليها (كذا) إن جاءت بإنجيل غير إنجيله، كتب إلى أتباعه في غالاطية: (حتى لو جئنا نحن، أو جاء مَلَك من السماء يبشركم بإنجيل غير الذي بشرناكم به نحن، فلتكن عليه اللعنة (كذا)، وكما قلنا سابقاً نكرر ونقول لو جاء رجل يبشركم بإنجيل غير الذي وصلكم منّا فلتكن عليه اللعنة) (رسالته إلى أهل غالاطية ١/٨-٩)، وبهذه الطريقة جرّد بولس جميع الحواريين الاثنا عشر وصحابة المسيح وأتباعه من أي صلاحية لتبشير الناس بأي معلومة عن رسالة المسيح مغايرة لما يقوله.

ب- الخضوع لسلطة الحكام:

(ليخضع كل إنسان لسلطة الحاكم، لأنه لا سلطة إلاّ من الله فالحكومات الموجودة نصّبها الله، فمن يقاوم الحاكم يقاوم قضاء الله، ومن يقاوم تحلّ عليه اللعنة، لأن الحكام ليسوا إرهاباً للعمل الصالح ولكنهم إرهاب للشر، أتريد أن تتحرر من الخوف من الحاكم؟ إذن إعمل صالحاً فتحصل على الشكر منه، لأن الحاكم ممثل الله تجاهك لعمل الخير ولأجل الخير، ...إنه وكيل الله) (رسالة بولس إلى أهل رومية ١٣/١-٤).

لعبت رسالة بولس هذه الدور الأكبر في تبرير الحق الإلهي المقدس للحكام والملوك والأباطرة عبر التاريخ المسيحي، وتم استخدامها كوسيلة شرعية -بل إلهية- لقمع المعارضة والثورة والنقد، والجدير بالذكر أن إمبراطور روما وقت كتابة هذه الرسالة كان نيرون (٥٤-٦٨م)! وكيل الله على الأرض لخير العالم!

وقد رأينا، في الفصل الثالث، كيف أنه بعد بولس بأكثر من قرنين ونصف من الزمن، قام أسقف قيسارية يوزيبيوس Eusebius بتكريس فكر بولس السياسي في مجمع نيقية، فجعل من الأمبراطور تجسيداً لكلمة الله ولإرادته في الخليقة، وبالتالي في حكم العالم.

ج ـ منزلة المرأة:

كان بولس يعتبر النساء أقلَّ منزلة من الرجال، وفي كتاباته: (لتصمت نساؤكم في الكنائس لأنّه ليس مأذوناً لهنّ في الكلام، بل أُمرنَ أن يخضعنَ للطاعة، هكذا تأمر الشريعة، فإن أردنَ أن يتعلّمنَ شيئاً ليسألنَ رجالهنّ في المنزل، لأنه من المعيب للمرأة أن تتكلم في الكنيسة) (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورينثوس ١٤/٣٤-٣٥).

وكتب أيضاً: (لا أسمح للمرأة أن تُعلّم ولا أن تغتصب السلطة -من الرجل- ولا تتسلط، وعليها أن تبقى صامتة، لأن آدم جُبل أولاً ثم حواء، وآدم لم يُغوَ وإنما حواء أُغويت وتعدّت) (رسالته الأولى إلى تيموثي ٢/١٢-١٤).

وبسبب نظرة بولس الدونية للمرأة حصلت في العصور المسيحية كراهية شبه رسمية للمرأة واعتُبرت مصدراً للشر، وأما العمل الجنسي فكانوا ينظرون إليه كشيء منحط[٢٧].

د- العبودية:

لم يبذل بولس جهداً لإلغاء الرقّ، بل على العكس استحسنه وتغاضى عنه، قال في كتاباته مخاطباً العبيد: (أيها العبيد أطيعوا ساداتكم في كل شيء بحسب الجسد ونفّذوه بقبول، لأنكم -بذلك- تخدمون الربّ عيسى) (رسالته إلى أهل كولوسي ٣/٢٢،٢٤). ولكنه أوصى السادة بحسن معاملة العبيد: (أيها السادة قدموا للعبيد العدل والمساواة) (رسالته إلى أهل كولوسي ٤/١)، وكان من تأثير كتابة بولس هذه أن برّر العالم المسيحي العبودية لتسعة عشر قرناً تلت[٢٨].

٦- الإسلام يناشد العقل:

في نقض العقيدة المسيحية بالخلاص بالإيمان فقط نقرأ قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَلا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ٤/١٢٣].

وفي النهي عن التقليد يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ أي يعتذرون بالتقليد وأنهم نشؤوا على ذلك، مع أنه تعالى نهى عن التقليد، وأمر بالتفكر بالحجج والدلائل واستخدام العقل، ثم يقولون: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ بمعنى لو شاء تعالى ما فعلناها ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ أي تكتبون من عندكم وتنسبونه إلى الله؟ أم تعتذرون بالجبرية، أم تقليد الآباء؟ [الأعراف: ٧/٢٨].

فخلاصة موقفهم: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ ، فَهُمْ عَلَى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ [الصافات: ٣٧/٦٩-٧٠]. وهكذا يبين القرآن أن سبب شقاء الإنسان هو التقليد الأعمى لعادات ولمعتقدات سخيفة توارثها عمّن سبقوه بغض النظر عن كل براهين الحقيقة التي يزودنا بها العقل وهدي الوحي الإلهي.

كما يحذّر القرآن من المعايير المزدوجة في التعامل: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ والحث على تحكيم العقل: ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٢/٤٤]. ألا تستخدمون عقولكم؟ لأن العقل لا يقبل ازدواجية المعايير!.

ويحض على استخدام العقل لإدراك المغزى من حياة الإنسان: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٦/٣٢]. أفلا تستخدمون عقولكم لإدراك هذا المغزى؟

والتفكر في رسالة القرآن التي فيها كل ما يحتاج المرء لمعرفته وتذكره في الحياة: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠]. أفلا تستخدمون عقولكم لإدراك رسالة القرآن؟

وأن الإنسان لو استخدم عقله لما أشرك: ﴿ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٦٧]. لأن الشرك منافٍ للعقل.

ويحض على التفكر في معجزة الخلق والحياة والموت: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧/٨٠].

وفي معجزة الخلق من العدم بعد الموت: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ٥٧/١٧]. فهذه المعجزات الباهرة تنبه العقول للحقيقة.

وفي معرض التذكير أن الرسول، وبالأحرى غيره، ليس وكيلاً على من يختار اتباع هواه، وتشبيه مَن لا يستوعب الرسالة ولا يستخدم العقل بالأنعام: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ۞ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان: ٢٥/٤٣-٤٤]. أي هم كالأنعام في عدم استعمال العقل.

ويحض الإنسان على التفكير والاستفادة من ملكاته العقلية قبل أن يدركه تقدم السن فتفوته الفرصة، لأن الفكر والعقل والمواهب قد تتدهور مع تقدم العمر: ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [يس: ٣٦/٦٨]، أي قبل فوات الأوان، فمن غير الحكمة تأجيل اتخاذ القرار الأخلاقي للمرء إذ لا يوجد متسع لا ينضب من الوقت، والفكر والعقل هو ما يميز الإنسان عن سائر المخلوقات فكيف يهمل الاستفادة منها؟[٢٩].

والواقع أنّ الحضارة الإسلامية ازدهرت منذ القرن السابع بنتيجة مناشدة الإسلام للعقل، وعلى النقيض من المسيحية في أوروبا ذلك الزمن، كان المسلمون يعتبرون الفكر شيئاً سامياً وصفة محترمة من صفات الإنسان[٣٠]، يضاف إلى ذلك أن الإسلام أعاد حرية الأديان والتسامح الديني إلى كافة المناطق التي انتشر فيها بعد قرون طويلة من الاضطهاد الديني والفكري الذي مارسته الكنيسة .

وعلى النقيض من ذلك تسبب إنشاء الكنيسة الرومانية قبل الإسلام بستة قرون بافتتاح عصور الظلام، وبنتيجتها انتكست الحضارة والعلوم بصورة حادة، ومن الغريب أن التزمّت والقهر الفكري والديني كان شيئاً جديداً ابتكرته الكنيسة لم يكن معروفاً من ذي قبل، حتى بين الوثنيين في الإمبراطورية الرومانية، إذ كان الوثنيون يعبدون العديد من الآلهة في مناطق مختلفة دون أن يعتبر أي فريق منهم أنه يحتكر الحقيقة دون غيره، ولكن بنتيجة هيمنة الكنيسة تدهورت العلوم والتعليم في أوروبا بشكل حاد وحلّت الخرافات محل المعارف واستمر الأمر في الغرب على هذا النحو حتى حركة الإصلاح الدينية البروتستانتية في القرن السادس عشر، وقد وصف بعض الأكاديميين هذا الوضع على النحو التالي[٣١]:

(توقف التقدم الفكري والأخلاقي بشكل شبه مفاجىء، وتراجعت الحضارة الغربية نحو بربرية فظّة، ومنعت الكنيسة انتشار الثقافة باعتبار أن العلم يشجع الإلحاد والهرطقة، حتى سادت الأمية في أنحاء الإمبراطورية الرومانية وحلّت الخرافات محلّ العلوم، وأصبح التقدم في المجالات الهندسية التي تميزت بها روما من الماضي الغابر، الفنون والفلسفة والآداب العلمانية والفلك والرياضيات والطب وحتى الجنس كلها أصبحت من المحرّمات)

وفي حين أن ظهور البعثة الإسلامية كان إيذاناً لبزوغ نجم الدولة الإسلامية وانتشار حضارتها في العالم القديم فإن تبني الإمبراطورية الرومانية للديانة المسيحية كان إيذاناً بسقوطها إذ بعد مؤتمر نيقية بـ٨٥ عاماً فقط سقطت روما بيد القبائل الجرمانية.

في العصر الحاضر كتب الأسقف جون سبونج راعي أسقفية نيوارك في نيوجرسي بالولايات المتحدة ما يلي: (لقد أصبحنا نحن الأقلية الصامتة من

المؤمنين نجد صعوبات جمة ومتزايدة في الجمع بين عضويتنا في الكنيسة وفي الوقت نفسه الحفاظ على تفكيرنا الحرّ[٣٢].

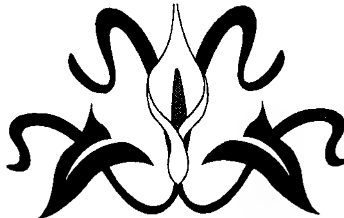
وبعبارة أخرى فإنّ الغربيين أصبحوا، أو أمكنهم أن يصبحوا، مفكّرين، فقط عندما تحرروا من ربقة الكنيسة وهيمنتها، مما يفسّر إلى حدّ كبير أن الحضارة الغربية لم تزدهر إلاّ بعد تحرر الغرب من هيمنة الكنيسة، وهذا الموضوع أقرّه البابا يوحنا بولس الثاني، من جملة أمور أخرى، في اعتذاره الكبير الذي طلع به على العالم يوم ٢٠٠٠/٣/٧م معتذراً عن ما سمّاه ألفي سنة من أخطاء الكنيسة، وبالتالي لا نستغرب أن المجتمع الغربي اليوم يعتقد أن التقدم العلمي والحضارة مرادفتان للعلمانية أي لنبذ الدين.

وعلى النقيض التام من ذلك، فإن التصور العلماني الدنيوي أخذه القرآن الكريم في الاعتبار أصلاً، وتكرر في آيات عديدة لا تفصل الدين عن الدنيا، بل في آيات عديدة يحض القرآن البشر على استخدام الفكر والعقل، كما يحضهم على الإقبال على نصيبهم من الدنيا: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧/٢٨]، والواضح أن الشعوب الإسلامية وقعت في التخلّف عندما تخلّت وغفلت عن التصوّر الإسلامي الفكري العلماني الدنيوي، وتمسّكت فقط بالشكل وبالتقليد المتوارث.

وهنالك نقطة أخرى لا تفوت الباحث وهي أن تخلف الغرب في العصور الوسطى وجموده على التقليد وخضوعه للكنيسة، كل ذلك وقف حاجزاً منيعاً بوجه انتشار الإسلام لدى الشعوب الأوروبية في حين كان الإسلام ينتشر في المشرق لدى الأمم ذات الحضارات المزدهرة كحضارات الفرس والهند والصين ولدى الأمم الخام التي لم يداخلها عصبية مسبقة كأمم الترك، والملاحظ أيضاً في الوقت الحاضر أن الحضارة الغربية الحديثة بحكم تسامح أنظمتها وانفتاحها وضمان حرية الفكر فيها وفكاكها من ربقة الكنيسة، كل ذلك مما سمح بدراسة الإسلام عقلانياً فبدأت تتقبله وصار يدخل به كبار مفكريهم، الأمر الذي نلاحظ أثره حديثاً في انتشار المسلمين والمراكز الإسلامية في الغرب.

مراجع الفصل الخامس:

1. (Maccoby TMM p.184), (Dawes HJQ p.77 Reimarus)
2. (Knight & Lomas TSM p. 3), (Eisenman JBJ)
3. (Wilson JAL p. 9-10)
4. (Wilson PMA p.26, 122)
5. (Acts 14/11-12), (Wilson PMA p.127)
6. (Schonfield MOM p.8), (Maccoby TMM p. 176)
7. (Funk HTJ p. 226)
8. (Eisenman JBJ p. 284)
9. (Wilson JAL p. x,161)
10. (Larson SCO p. 11, 20, 21, 22, 23, 37)
11. (Spong WCMCD p.194)
12. (Wilson PMA p. 165-166)
13. (Maccoby TMM p.116)
14. (Wilson PMA p.165), (Freke & Gandy TJM p.49)
15. (Funk HTJ p.92,207), (Parrinder SOJ p. 113)
16. (Larson SCO p. 182-183), (Wells TJM p.100), (Freke & Gandy TJM p.28)
17. (Larson SCO p. 187-189), (Wilson PMA p. 25-26, 44, 71)
18. (Larson SCO p. 189), (Wilson PMA p.71)
19. (Wilson PMA p.165-166,174)
20. (Larson SCO p.184), (Parrinder SOJ p.34), (Freke & Gandy TJM p. 33-34)
21. (Sanders Paul p.4-5, 12, 17, 21, 33)
22. (Wilson PMA p.176)
23. (Wilson PMA p.177-178)
24. (Wilson PMA p.208-209)
25. (Wilson PMA p.234)
26. (Wilson PMA p.209)
27. (Parrinder SOJ p. 117)
28. (Parrinder SOJ p.117)
29. (Asad TMQ P. 679)
30. (Knight & Lomas TSM p.239)
31. (Knight & Lomas TSM p.93-94)
32. (Spong WCMCD p.4)



الفصل السادس

عيسى المسيح
عليه السلام

الفصل السادس

عيسى المسيح عليه السلام

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ۞ قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۞ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ:٣٤/٢٤-٢٦].

١- ألقاب عيسى المسيح بحسب العهد الجديد:

نسب مؤلفو الأسفار ومنقحوها ألقاباً عديدة، وإن كانت متناقضة، لعيسى المسيح، ثمّ بعد ذلك بذلت الكنيسة مجهوداً ضخماً لتبرير بعض هذه الألقاب عن طريق التنظير اللاهوتي والفلسفة، وقد وصف البروفسور باريندر هذا الموضوع بقوله: (يبدو أن سياسة الكنيسة تتلخص بعدم هز القارب -كي لا يغرق- فالأفضل ألاّ تقول شيئاً لكي لا تسيء إلى البعض ولا تزعجهم، مع أنّ الحقيقة هي أن الكهنوت في الغالب لا يعلم، أو لا يريد أن يعلم ما كتبه ويكتبه علماء الكتاب المقدس منذ سنوات عديدة، ومن ثمّ الحقائق لا تصل إلى الرعيّة، وبالتالي يبقى القطيع المتشوق إلى الحقيقة جائعاً بلا تغذية - فكرية- من الكنيسة)[١].

وعودة إلى الألقاب: يُقر كل من سفر متّى (متّى ١/١٨) وسفر لوقا (لوقا ١/٣٤) بالميلاد المُعجز لعيسى عليه السلام من مريم العذراء، ولكنهما معاً لا يجدان غضاضة في القول أنّ عيسى كان ابن يوسف (متّى ١/١٦، ١٣/٥٥)، (لوقا ٣/٢٣). وفوق ذلك تنسب الأسفار لعيسى إخوة وأخوات (متّى ١٣/٥٥-٥٦)، (مرقس ٣/٣١)، (لوقا ٨/١٩). وللتأكيد على سلالته الملكية جعلوا منه ابن داود عن طريق يوسف رغماً عن ميلاده من مريم العذراء (متّى ٩/٢٧، ٢٠/٣٠)، (مرقس ١٠/٤٨)، (لوقا ١/٢٧، ١٨/٣٨). كما جعلوه في

الوقت نفسه ابن الله (متّى ١٤/٣٣، ١٦/١٦)، (يوحنا ١١/٢٧)، وبالمقارنة البعيدة كل البعد عن لقب ابن الله ورد لقب ابن الإنسان منسوباً إلى عيسى ثلاثة وثمانون مرة في الأسفار، وجعلوه أيضاً حَمَل الله (يوحنا ١/٢٩)، وفوق كل ذلك يقرّون بأنه نبي وحسب (متّى ١٣/٥٧، ٢١/١١،٤٦)، (مرقس ٦/٤)، (لوقا ٧/١٩، ٢٤/١٩)، (يوحنا ٦/١٤).

ولا يمكن تبرير الألقاب الفخمة والمتناقضة والمتطرفة التي نسبوها إلى عيسى المسيح إلا بالعودة إلى فكر مؤلفي الأسفار ومنقحيها، والطريقة التي كُتبت وتطورت بها الأسفار وتطورت النظريات اللاهوتية التي جاء بها بولس في مناخ من الثقافة الهلنستية السائدة، غير أنه من الصعب فهم السبب الذي من أجله تصرّ الكنيسة بلا كلل على تبرير مثل هذه المتناقضات والدفاع عنها.

من المهم جداً الانتباه إلى أن العهد الجديد يستخدم ألقاب "كريستوس" Chrestos, Christ، والمسيح، كمسمّيين مترادفين، لإعطاء معاني متعددة مثل: المخلّص، المنقذ، ابن الله، نصف إله، ابن الإنسان، النبي-الملك، ابن داوود، كل ذلك في آن واحد، وقد نتج عن هذا الخلط إبهام مواضيع مهمة جداً، وقلب معتقدات جوهرية رأساً على عقب في رسالة عيسى، حتى سبّب ذلك أذىً كبيراً لمعتقدات ملايين المؤمنين، فإذا لم يتم تحديد المقصود من مسميات كل لقب من الألقاب بدقة فإنّ البحث العلمي في الكتاب المقدس قد ينتهي بأصحابه إلى الشك أو إلى التهكم -لا سمح الله- ليس فقط في رسالة عيسى، عليه السلام، ولكن في إمكانية وجود وحي إلهي إطلاقاً، ذلك أن بعض الباحثين يعطون الانطباع في كتاباتهم بعدم إمكانية التوفيق بين الوحي وبين ما يسمونه "الحقيقة الموضوعية"، أضف إلى ذلك أن الباحثين اليهود ينكرون صراحةً أو ضمنياً جميع الأنبياء غير المذكورين في العهد القديم.

فإذا وضعنا جانباً هذين الأسلوبين المتحيّزين نلاحظ أن دراسة الموضوع من وجهة نظر إسلامية تقودنا -بلا عناء- إلى تفسيرات واضحة من شأنها إنصاف

عيسى المسيح وبعثته التاريخية كآخر الأنبياء العظام لبني إسرائيل، وللأسف يبدو بعض العلماء والباحثين على غير استعداد لدراسة هذا التوجّه.

٢- ألقاب عيسى المسيح تاريخياً:

يمكن حصر ألقاب عيسى المسيح الذي عرفه التاريخ -بالمقارنة مع مسيح بولس- في الألقاب التالية: عيسى النبي، عيسى المسيح، عيسى ابن مريم العذراء- ليس ابن يوسف ولا ابن داوود-، وسوف يتم شرح كلٍّ من هذه الألقاب على حدة:

أ- عيسى النبي:

إذا وضعنا جانباً نظريات بولس وقرارات المجمعات الكنسية التي اتُّخذت على مر الزمن، يتضح لنا من الأسفار أن مُعاصري المسيح كانوا ينظرون إليه على أنه نبيّ، وقد صرّح عيسى في مناسبات عديدة أنه نبيّ.

قال عيسى في معرض شرحه أن الأنبياء أول ما يلاقون الصعوبات بين أقوامهم: (ليس نبيّ بلا كرامة إلاّ في وطنه وبين أقربائه وفي بيته) (مرقس ٤/٦)، (متّى ٥٧/١٣)، وفي سفر لوقا نقلوا عنه القول: (أقول لكم الحق: ليس نبيّ مقبولاً في وطنه) (لوقا ٢٤/٤)، وحتى سفر يوحنا المغرق في الفكر الهلنستي يقر بعيسى نبيّاً كما سنرى.

ذكرت الأسفار المتشابهة، متّى ومرقس ولوقا، قصة الالتباس الذي حصل عند مُعاصري عيسى إذ التبس عليهم الأمر إن كان عيسى تشخيصاً ليحيى المعمدان -بفرض أنه قام من الموت-؟ أم كان النبي إيليّا Elijah في مجيئه الثاني؟ أم هو النبيّ؟ وأياً من الحالات الثلاث نختار فهو نبيّ بنظر الناس الذين عرفوه. سأل عيسى الحواريين مرّةً: (ما يقول الناس عنّي؟ فأجابوه: بعضهم يقول إنك يحيى المعمدان، والبعض يقول إنك إيليّا، وآخرون يقولون إنك أحد الأنبياء) (متّى ١٤/١٦)، (مرقس ٢٨/٨)، (لوقا ١٩/٩). وكانت حاشية الملك اليهودي في الجليل هيرود أنتيباس Herod Antipas قد شكّت باحتمال كون

عيسى تشخيصاً ليحيى الذي قتلوه في السجن بفرض أنه عاد من الموت، أو أنـه نبيّ كباقي الأنبياء (مرقس ٦/١٥).

وفي قصة معجزة أرغفة الخبز التي تمت بين خمسة آلاف من اليهـود اجتمعـوا إلى عيسى في الجليل نلاحظ إقرار الجُموع بعيسى كنبي من الأنبياء: (فلمّـا رأى الناس المعجزة التي قام بها عيسى قالوا إنّ هذا حقاً النبي المنتظر مجيئه إلى العالم) (يوحنا ٦/١٤)، ولا شك أن يوحنا حاول تصوير عيسى في هـذه العبـارة علـى أنه النبي المنتظر المشار له في العهد القديم بسفر التثنية (١٨/١٨).

وعندما جاء الفريسيون لإنذار عيسى بالهرب خوفاً أن يقتله هيرود أجابهم: (ما كان لنبيٍّ أن يهلكَ خارجاً من القدس) (لوقا ١٣/٣٣).

ويروي متّى أنه: (عندما دخل عيسى القدس اهتزّت المدينـة بأكملهـا وسأل بعضهم: مَن هذا؟ فأجابت الجموع: هذا عيسى النبي الذي من نـاصرة الجليـل) (متّى ٢١/١٠-١١)، وبالطبع فإن جواب الجموع يدلّ على قناعتها أنّ عيسـى كان نبياً شاهدوا معجزاته واحترموا تعاليمـه، وكذلـك في قصـة الشـاب الـذي أحياه عيسى: (أخذت الرهبة الجميع وحمدوا الله قائلين: نبيٌّ عظيم ظهـر بيننـا) (لوقا ٧/١٦).

وفي الوقت ذاته كان كبار الكهنـة متخوفـين مـن القبـض علـى عيسـى، لأن الناس آمنوا به نبياً: (عندما سمع كبار الكهنة والفريسيين قصص عيسى الرمزيـة عرفوا أنه كان يشير إليهـم، وإذ أرادوا إيجـاد وسيلة للقبـض عليـه خـافوا مـن الجموع، لأنها كانت تعتبره نبياً) (متّـى ٢١/٤٥-٤٦)، وخـلال حـوار عيسـى مع المرأة السامرية قالت له: (أستطيع أن أرى أنك نبي) (يوحنا ٤/١٩).

وعندما سمح عيسى لبغيّ أن تمسحه بالطيب عبَّر الفريسـيون عـن صدمتهـم لاعتقاد الناس أنه نبيّ: (وقفت البغيّ من وراء عيسى عنـد قدميـه وبـدأت تبلـل قدميـه بدموعهـا، وكـانت تمسـحهما بشـعر رأسـها وتقبّـل قدميـــه وتدهنهمـــا بالطيب، فلما رأى الفريسيّ ذلك قال في نفسه: لو كان هـذا الرجـل نبيّـاً لعَلِـمَ مَن التي تلمسه، وأي نوع من النساء هي) (لوقا ٧/٣٨-٣٩).

وعندما ظهر عيسى مجدداً لاثنين من أتباعه في الطريق إلى عمواس -وهي قرية صغيرة تبعد قليلاً عن القدس- لم يعرفاه للتوّ فعلّقَ أحدهما واسمه كليوباس على بعثة عيسى قائلاً: (كان إنساناً نبيّاً مقتدراً بالقول والعمل أمام الله وجميع الناس) (لوقا ٢٤/١٩).

والعجيب أنه بعد كل هذه الأدلة القاهرة من الأسفار بقيت الكنيسة مصرّة منذ البداية على طرح لقب (النبي) جانباً، مفضّلةً عليه ألقاباً لاهوتية متطرفة منبثقة من فكر بولس ومن قرارات المجمعات المسكونية.

لقد انبثقت المشكلة من اللاهوت الهلنستي لذلك العصر، الذي لم يكن يعتبر لقب (النبيّ) جليلاً بما فيه الكفاية، فكان من الضروري -بالنسبة إلى الكنيسة- منافسة ألقاب قياصرة روما وغيرهم من كبار زعماء العصر، كما جعل الرومان من يوليوس قيصر نصف إله، ثم أعلنوا أغسطس خَلَفَه ابن الإله، ومن خلال قيصر صار من سلالة فينوسVenus ، وقبلهما أعلنوا الإسكندر الكبير "هرقل الجديد" الإله "المخلّص" قاهر الموت، الذي استحق العبادة بعد موته .

ب- عيسى المسيح:

كلمة المسيح مشتقة في العربية والعبرية من فعل: (مَسَحَ)، والمقصود أنهم كانوا يمسحون الكاهن أو الملك بالزيت كناية عن تعيينه في المنصب وتحميله مسؤولية الحكم، فيصبح بذلك مسيحاً، ثم صار المسيح لقباً للشخص المُختار لمنصب المسؤولية دون أن يتم مسحه بالزيت بالضرورة [٢]، وعيسى عليه السلام لُقّب مسيحاً بمعنى أن الله تعالى اختاره للبعثة، وهو المسيح الذي كان اليهود ينتظرونه، أي المسيح المنتظر بالذات، أي المسيح العَلَم وليس مسيحاً نكِرة، ذلك أن اليهود استعملوا هذا اللقب اعتباطاً وبكثرة حتى إنهم جعلوا قورش الملك الفارسي الوثني مسيحاً (سفر أشعيا ٤٥/١).

وهنالك قصة يرويها السفر الرابع تُظهر أن اليهود كانوا يتوقعون مجيء المسيح المنتظر (يوحنا ١/١٩-٢٥) وتتلخص بأن اليهود أرسلوا وفداً من أحبارهم إلى النبي يحيى ليسألوه إن كان هو المسيح المنتظر فأجابهم بالنفي.

ومن المهم أن نتذكر على الدوام أن كلمة المسيح مختلفة عن الكلمة اليونانية "كريستوسChrestos " وترجمتها الإنكليزيةChrist ، وهما ليستا مترادفتين، فبولس الذي كان يتكلم اليونانية ويكتب رسائله بها تخيّل عيسى على أنه "كريستوس" من الطراز الهلنستي(٣)، ثم بنتيجة جهود بولس التبشيرية التي بدأها في أنطاكية السورية طغى كريستوس تدريجياً على شخص عيسى المسيح المعروف تاريخياً وحلّ محلّه، وكانت أنطاكية مركزاً للثقافة الهلنستية اختارها بولس بعناية لبدء حملته التبشيرية، إلى أن تحوّل عيسى في العالم الهلنستي-الروماني إلى "كريستوس" غير بعيد الشبه كثيراً عن آلهة الهلنستية مثل هيراقليس Herakles وديونيسسDionysus .

وفي حين أعلنَ عيسى أنه المسيح المنتظر فقد أنكر أن يكون لهذا اللقب أي مغزى لاهوتي أو عسكري، وقد أعلن بوضوح أن لقبه كمسيح لا علاقة له بمُلْكٍ دنيوي، فعندما سأله الحاكم الروماني بونتيوس بيلاطPontius Pilat : (هل أنت ملك اليهود؟ أجاب عيسى: مملكتي ليست من هذا العالم، فلو كانت مملكتي من هذا العالم لقاتل خدّامي كي لا أُسلَّم، أما الآن فمملكتي ليست من هنا) (يوحنا ١٨/٣٣-٣٦)، ومن جهة ثانية عندما سأله كبير الكهنة إن كان هو المسيح أجابه بالإيجاب (مرقس ١٤/٦٣-٦٤)، (متّى ٢٦/٦٣)، (لوقا ٢٢/٦٧)، ويتأكد ذلك أيضاً من حوار عيسى مع المرأة السامرية: (قالت المرأة: أعلم أن المسيح -المنتظر- قادم وعند مجيئه سوف يشرح لنا الكثير، فأجابها: أنا الذي أكلمّك هو) (يوحنا ٤/٢٥-٢٦).

ولا شك أن مفهوم عيسى لمسيحانيته كان مختلفاً عن التوقّع الشعبي لها، وقد يفسر ذلك تردد المسيح أحياناً بالإعلان عن نفسه مسيحاً لئلاّ يُساء فهمه،

وقد أوردت الأسفار الثلاثة المتشابهة أنه حذّر الحواريين بشدّة من إخبار أحد أنّه المخلّص المنقذ (متّى ١٦/٢٠)، (مرقس ٨/٣٠)، (لوقا ٩/٢١)، كان عيسى حريصاً جدّاً أن يتفادى التوقع الشعبي بأنه مسيح عسكريّ جاء لإنقاذ شعبه من نير روما، لأن بعثته لم تكن لهذا الغرض، فكان يكرر لسامعيه في أكثر من مناسبة كي لا يحصل عندهم خلط بين مهمة المسيح ومهمة المنقذ المخلّص، وسوف يأتي شرح مفصّل لهذا الموضوع في الفصل السابع.

ج ـ عيسى ابن مريم العذراء، ذو الميلاد المُعجز:

من أعجب الأمور أن بولس مؤسس المسيحية إمّا أنه لم يكن يؤمن بالميلاد المعجِز للمسيح عليه السلام، أو لم يكن يعلم عنه شيئاً! فقد ناقض الميلاد المعجز من مريم العذراء حين كتب: (عيسى الذي جاء من نسل داود بحسب الجسد – أي جسديّاً–) (رسالة بولس إلى أهل رومية ١/٣)، يقصد أنه من سلالة داود فعلياً وحرفياً وليس مجازاً.

وليس أقل من ذلك غرابةً أن يوحنا في السفر الرابع لم يذكر شيئاً قطّ عن الميلاد المعجز كأنه لا يعلم عنه شيئاً! ومن بين مؤلفي الأسفار الأربعة نجد مرقس فقط يشير إلى المسيح بلقب: عيسى ابن مريم إذ يروي أنه في الناصرة قال عنه الناس: (أليس هذا هو النجّار ابن مريم؟) (مرقس ٦/٣)، وتتعزّز إشارة مرقس الوحيدة إلى عيسى على أنه ابن مريم بعدم ذكره أي شيء عن يوسف النجار الذي زعموا أنه أبوه؟! وهذه الإشارة في مرقس إلى عيسى بأنّه ابن مريم هي الإشارة الضمنية الوحيدة عنده إلى الميلاد المعجز، وبالمقابل يجب أن نلاحظ أن القرآن الكريم يشير إلى عيسى بلقب ابن مريم حصراً تأكيداً على ميلاده المعجز من العذراء عليها السلام.

ومن جهة أخرى لا يسع المرء إلا أن يصاب بالدهشة من سفريْ متّى ولوقا اللذيْن كتبا عن ولادة عيسى من مريم العذراء ولكن في الوقت نفسه سمّياه ابن يوسف! واعتبروه من سلالة داوود عن طريق يوسف؟! لقد وصف كلّ من متّى

ولوقا الميــلاد المعجـز بطريقـة مثيرة للريبـة إذ زادوا الموضـوع غموضـاً وإبهامـاً بإصرارهما وتهافتهما على الإعلان أن عيسى كان من سلالة داود، الأمر الذي أوقعهما في متناقضات جسيمة، فمن جهة اعتبرا الميلاد المعجز دليلاً علـى كـون عيسى هو المسيح فعلاً، ومن جهة ثانية أرادا لنبوءات العهد القديم أن تتحقق - حسب ظنهم- بأن المسـيح يجب أن يكـون مـن سـلالة داود!! وليـس مفهومـاً كيف أن الكنيسة وافقت على اعتبار مثل هذه الكتابات (قانونية) في حـين أنهـا تتمسك بعقيدة الميلاد المعجز لعيسى، وبالعذرية الدائمة لمريم؟!

كتبَ كلٌّ من متّى ولوقا أنّ عيسى وُلد في بيت لحم ونشأ في النـاصرة، وهـا هنا ينتهي التوافق بينهما في موضوع الميلاد، أما باقي المعلومات والظروف التـي أحاطت بميلاد المسيح، فلكلّ منهما قصة مختلفة عن الآخر تمام الاختلاف.

يبدأ متّى السفر المنسوب إليه بتفصيل ما سمّاه نَسَب المسيح أو سلالته ابتداءً من إبراهيم عليه السلام وانتهاءً بقوله: (ويعقوب أنجبَ يوسف زوج مريم، التي أنجبت عيسى الذي عُرفَ بأنه المسيح) (متّى ١/١٦)، وهكذا ضَمِنَ متّى بحسب تفكيره السلالة الملكية لعيسى إذ جعل منه حفيداً لداوود! وبعـد ذلـك بفقرتـين يذكر أنّ مريم خُطبت إلى يوسف وهما في بيت لحم، ثم وَجدت مريـم نفسـها حاملاً من دون توقّع، فقـام المـلاك بطمأنـة يوسـف في منامـه بـأنّ الحمـل كـان بسبب الروح القدس (متّى ١/١٨-٢٠).

غير أن قصة لوقا مختلفة عن ذلك وإن كانت لا تقل غموضـاً وإبهامـاً! فهـو يروي نشأة مريم في الناصرة وأنها خُطبت إلى رجـل اسـمه يوسـف مـن سـلالة داود، وعلى النقيض من متّى فإن والد يوسف اسمه هـالي وليـس يعقـوب! ثـم يظهر الملاك جبريل عليه السلام فيخبر مريم بحملها المرتقب مـن الـروح القـدس (لوقا ١/٢٦-٣٧)، ولكن في الفصل الثالث من السفر يوضح لوقا لقرّائه سلالة عيسى الحقيقية؟! (كـان عيسى علـى مـا يُظَـنّ ابـن يوسـف ابـن هـالي) (لوقـا ٣/٢٣) -كذا-، ثم للتأكيد على أنّ السلالة ملكية فعلاً يمضي لوقـا في تفصيـل

نَسَب المسيح مروراً بداود وانتهاءً (بشيت ابن آدم ابن الله) (لوقا ٣/٣٨)، أما كيف أصبح آدم ابن الله؟ وبأي معنى؟ فليس مفهوماً البتّة.

والخلاصة أن متّى ولوقا كتبا سلالتين لعيسى أقل ما يقال فيهما أنهما غريبتان، عديمتا المعنى، سطحيتان، خرافيتان، عدا كونهما مختلفتان عن بعضهما بعضاً لدرجة أنه يستحيل التوفيق بينهما، عدّد متّى ٢٦ ستة وعشرين جدّاً لعيسى من داود إلى يوسف! أما لوقا فعدّد ٤١ واحد وأربعين بين الاثنين! وهذا الأخير -أي يوسف- وهو الاسم المشترك الوحيد في السلالتين لم يكن سوى أب مفترض! والذي يحار فيه المرء أشد الحيرة هو التساؤل التالي: ما المفترض أن يستنتج القارىء من هذه الأنساب المفصّلة والمختلقة لعيسى المسيح، في حين أنه وُلد بلا أب، ومن مريم العذراء على أية حال؟!

فلو أردنا أن نستخلص من هذه الأنساب أي معنى مهما كان هامشياً، فعلينا عندئذٍ أن نفترض -لا سمح الله- أنّ يوسف كان أباً لعيسى! وفي هذه الحالة: ما تكون الفائدة من القول بالميلاد المعجز؟ ما دام متّى ولوقا كتبا عن عيسى ابن يوسف! لقد كتب متّى صراحةً وبلا مواربة (يوسف زوج مريم التي أنجبت عيسى) (متّى ١/١٦)، وهكذا ليس لدينا مفر من التساؤل المحيّر: لماذا أضاع كلّ من متى ولوقا وقتهما في اختراع أنساب لا ضرورة لها ولا معنى ولا أهمية، طالما أن عيسى وُلد بلا أب؟ أم هل هو التهافت على برهنة تحقق نبوءات العهد القديم بأن المخلّص يجب أن يجلس على عرش "والده" داود؟ لدرجة أنهما لم يكترثا للوقوع في المتناقضات الضخمة، وقد يعتذر البعض بأن الغرض من الأنساب كان رمزياً لا غير بغرض تأكيد الدماء الملكية المفترض أن تجري في عروق عيسى، غير أن هذا الحرص الذي لِم يكن له مبرر تمخّض عن وهم كبير جداً!

ومن الطريف أن الغرض من اختراع الأنساب وكتابتها كان باطلاً ولاغياً وفارغاً من البداية، لأن عيسى نفسه نفى بصورة قاطعة لا يرقى إليها الشك أن

يكون من سلالة داود، فالأسفار الثلاثة المتشابهة نسبت إليه قوله: (كيف يزعم الكتبة الأحبار أن المسيح -يجب أن يكون-ابن داود؟ في حين أنّ داود نفسه يدعوه سيّدي، فكيف يكون ابناً له؟) (مرقس ١٢/٣٥-٣٧)، (متّى ٢٢/٤١-٤٥)، (لوقا ٢٠/٤١)، ومع هذا القول الواضح الجازم لعيسى فقد استمر الادعاء بوجوب كون عيسى من سلالة داود تحت تأثير التنظير اللاهوتي الذي أصر على تحقيق "نبوءات" العهد القديم، ولغرض تملّق التوقعات الشعبية، ممّا ترتّب عليه بكل أسف إدخال التناقض والارتباك في العهد الجديد.

ثم أضاف متّى إلى هذه الغرائب أن أقحمَ في ما سمّاه أنساب عيسى أسماء أربعة نساء بلا ضرورة ولا مبرر، من حيث إنه لا تأثير لهنَّ على السلالة، والأشد غرابة أن هؤلاء النسوة الأربعة جميعهنّ بغايا أو زانيات حسبما وردت قصصهنّ في العهد القديم(٤)، وهنّ: تامار، راحاب، راعوث، باتيسدا.

الأولى: تامار، يروي سفر التكوين قصتها بالفصل ٣٨ منه، والمفترض حسب الرواية أنها مارست دور البغيّ لإغواء حماها يهوذا -ابن يعقوب ابن اسحاق ابن ابراهيم عليهم السلام- لارتكاب الفاحشة معها! ثم أثمر هذا الزنا المركّب توأماً صار أحدهما الجد الأكبر لداوود!؟

أما قصة البغيّ (راحاب) التي أصبحت الجدة الكبرى لداوود لجهة والدته فمذكورة بالفصل الثاني من سفر يشوع؟!!

وقالوا أيضاً إنّ (بواز) ابن البغي (راحاب) أغوته المرأة المؤابية (راعوث) قبل أن يتزوّجا، انظر (سفر راعوث ٩/٣)، فأصبح (بواز) بدوره من أجداد داوود؟!

وزعموا أيضاً أنّ داود عشقَ (باتشيبا) زوجة أحد قادتِه (أوريا) عندما كان الأخير في الحرب، ثم من علاقة الزنا بينهما وُلد سليمان بحسب زعمهم؟! وأضافوا أن داوود تآمر على التخلص من (أوريا) بقتله؟! (سفر صموئيل الثاني ١١/٢-١٥).

ومع أنّه يمكن دراسة قصص البغايا والزنا الفاحش وغير ذلك من المخازي والكبائر المذكورة في العهد القديم، كبحث مستقل عن موضوعنا الحالي، غير أنه لغرض هذا البحث ماذا يمكننا أن نقول عن الحكمة من إقحام قصص البغايا والزانيات على مسلسل أنساب المسيح؟ هذا المسلسل الذي لا أساس له من الصحة من أصله؟!

والجدير بالذكر أنه خلافاً لقصص الزنا والفواحش التي تتكرر في العهد القديم، فإنّه من نبل القرآن الكريم أنه يبرىء الأنبياء جميعاً من تُهَم الكبائر، فالقرآن مثلاً لا يتهم داوود بالجريمة المزدوجة المشار لها، وهي الزنا مع زوجة قائده أوريا ثم قتل أوريا نفسه كما يدّعون في الكتاب المقدس اليهودي – العهد القديم–، فكل من هاتين الجريمتين تستحق عقوبة الإعدام بحسب شريعة موسى نفسه، فلا يُعقل لداوود، الملك–النبي، أن يرتكب مثلها!

د– لا يوجد لعيسى إخوة وأخوات :

لا بدّ أن أقوال عيسى المسيح فيما يتعلق بعلاقة الأخوّة بينه وبين الحواريين والأتباع قد أسيء فهمها وأسيء تفسيرها، فقد ذكروا في الأسفار وجود بعض الأخوة والأخوات لعيسى (متّى ١٣/٥٥–٥٦)، (مرقس ٣/٣١)، (لوقا ١٩/٨)، مما يبدو مناقضاً لميلاده المعجز، وقد حاول بعض آباء الكنيسة تبرير ذلك بأنّ هؤلاء الإخوة والأخوات المزعومين هم في الواقع أولاد يوسف – الزوج المزعوم لمريم– من زواج سابق، وقال آخرون أنّ هؤلاء أبناء خالة عيسى من مريم أخرى كانت زوجة (كلوباس) وهي أخت مريم والدة عيسى! ذلك أن كلمة أدلفوسadelphos اليونانية –لنذكر أنّ الأسفار كُتبت باليونانية – لا تعني فقط (الأخ) وإنما تعني أيضاً ابن العم أو الصديق أو الزميل(٥).

غير أن عيسى أعلن بوضوح أنّ مثل هذه الأخوّة –التي فسّروها حرفياً على أنها أخوّة الدم– هي في الواقع رمزية، وذلك بقوله: (لأن أيّما فرد يطيع إرادة الله فهو أخي وأختي وأمّي) (مرقس ٣/٣٥)، وأيضاً: (أجابهم عيسى وقال لهم: أمّي وإخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها) (لوقا ٨/٢١)،

وهذان القولان -بالمناسبة- ينفيان مزاعمهم عن أبوّة يوسف المزعومة له إذ اكتفى عيسى بذكر أمه ولم يقل أبي.

وعندما قصّ السفر الرابع أن إخوان عيسى حثّوه على الذهاب إلى يهودا كان يقصد إخوانه بمعنى رمزي أي هي أخوّة معنوية أو أخوّة في الدين والعقيدة (يوحنا ٧/٣،٥)، وفي سفر أعمال الرسل تم تصوير النصارى على أنهم إخوان (أعمال الرسل ١/١٦،٩/٣٠) بمعنى إخوان الدين والعقيدة أيضاً.

كان عيسى يشير إلى الحواريين على أنهم إخوانه، فعندما ظهر لمريم المجدلية ومريم الأخرى قرب الضريح -المفترض أنهم وضعوه فيه- قال لهما: (لا تخافا، اذهبا إلى إخواني -الحواريين- وقولا لهم أن يذهبوا إلى الجليل وهناك يرونني) (متّى ٢٨/١٠)، فكان يشير إلى الحواريين جميعاً بأنهم إخوانه معنوياً (متّى ٢٨/٩)، وأيضاً في السفر الرابع قال لمريم المجدلية (اذهبي إلى إخواني -الحواريين- وقولي لهم إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم) (يوحنا ٢٠/١٧)، ونقرأ أيضاً في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورينثوس إشارته إلى "إخوان عيسى" يقصد بهم الحواريين أي إخوته في العقيدة والإيمان (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورينثوس ٩/٥).

ونلاحظ بشكل خاص أن سفريْ متّى ومرقس -دون لوقا- يصفان يعقوب James بأنه أخو عيسى، ويعقوب هذا هو الذي تزعّم النصارى في القدس بعد وفاة عيسى (انظر سفر لوقا ١٢)، (غالاطية ٢/١٢)، ونقرأ أيضاً في رسالة بولس إلى أهل غالاطية إشارته إلى يعقوب بأنه أخو عيسى أيضاً (رسالته إلى أهل غالاطية ١/١٩)، غير أنه لا يجب النظر لهذه الأخوة على أنها أخوّة في الدم وإنما فقط بشكل رمزي لأن يعقوب كان تقيّاً مؤمناً فاضلاً وكان ذائع الصيت بكونه من أكثر الناس استقامةً فلأجل كل ذلك استحق عن جدارة لقب: أخا عيسى المسيح، وقد أيد أوريجون، اللاهوتي المسيحي (١٨٥-٢٥٤م)، هذا الرأي بأن كتب في أحد مؤلفاته Contra Celsus : (ليس لأنهما

- أي عيسى ويعقوب - أخوان في الدم ولا أنهما نشآ معاً، وإنّما بسبب فضائل يعقوب وعقيدته)، أي أن أخوّتهما كانت معنوية، وفي رؤيا يعقوب Apocalypse of James نقرأ صراحة أن يعقوب يعتبر أخاً لعيسى من ناحية روحية معنوية صرفة(٦).

وتأكيداً لذلك أصدر البابا يوحنا بولس الثاني في العام (١٩٩٦م) كتاباً صرّح فيه أنّ المسيح عليه السلام كان المولود الوحيد من مريم العذراء عليها السلام، على النقيض ممّا تزعم أسفار العهد الجديد(٧).

٣- ألقاب عيسى الميثولوجية:

في وقت متأخر، أنتج اللاهوت المسيحي من فكر بولس ألقاباً متطرفة لعيسى المسيح مثل "ابن الله، والرب، وابن الإنسان، وحَمَل الله"، وقد انبثقت هذه الألقاب من واقع أن بولس لم يكن يعتقد بوجود أهمية لرسالة عيسى على الأرض بالنظر لقرب نهاية العالم كما رأينا، ولذلك صمّم أن لا يهتم بعيسى "بحسب الجسد" -أي بحسب واقعه الجسدي- حسب قوله، أي بعيسى الحقيقي الذي عرفه الناس في فلسطين ولا بأعماله وتعاليمه، كان مهتماً فقط باكتشاف مَن يكون عيسى؟ وقد اكتشف بعد ذلك أن عيسى (وُجد على صورة الله) (رسالته إلى أهل فيليبي ٢/٦)، أي هو عيسى الميثولوجي بحسب العقلية الهلنستية الشائعة في عصره، ولذلك كتب: (رغم أنّ عيسى وُجد في صورة الله لكنه لم يعتبر مساواته بالله اختلاساً، فجعل نفسه بلا سمعة وتقمص شخصية الخادم متشبهاً بالبشر فكان في ظاهره بشراً) (رسالة بولس إلى أهل فيليبي ٢/٦-٨).

استغرق البحث عن هوية عيسى جلّ اهتمام بولس، ثم تبعت الكنيسة بعد ذلك خطى بولس فصرفت كلّ طاقاتها ومجهودها في التنظير عن ماهية عيسى وماهية والدته، وأصدرت نتاجها الفكري بقرارات المجمعات المسكونية الشهيرة بخصوص دور عيسى في افتداء الآخرين بالنيابة عنهم باعتباره كفّر عن

خطايا العالم إذ مات على الصليب فأصبح قرباناً مقدّساً يأكلون لحمه ويشربون دمه! لأنه كما قال بولس (إن "كرستوس" مات لأجل -محو- خطايانا) (رسالته الأولى إلى أهل كورينثوس ١٥/٣)، فكان من نتيجة ذلك طمس رسالة عيسى الحقيقية وإجهاضها.

أ- لقب عيسى "ابن الله:"

من المهم جدّاً، كلما وردت عبارة "المسيحية"، إضافة وصف الهلنستية لها، أو وصفها بأنها مسيحية بولس، والسبب أنّ العامة تعتقد "المسيحية" ديانة عيسى المسيح، والقليل فقط من الناس يدركون أن المسيحية تعود لبولس فقط وليس لعيسى.

كما يجب أن نكرر أنّ الهدف من بعثة عيسى المسيح كان إصلاح الدين اليهودي بعد انحرافه الخطير عن رسالة موسى، ولهذا السبب يستحيل التصديق أن يصدر عن نبي يهودي عظيم ادعاء الألوهية -الذي أثبتوه بقرارات مجمع نيقية- في حين أنه جاء هو نفسه لإصلاح اليهودية(٨) [آل عمران: ٣/٤٩-٥١].

وبالرجوع إلى العهد الجديد نفسه وبرغم أنه كُتب وفق منظور بولس، يستطيع المرء أن يتأكد وأن يبرهن أن عيسى لم يدّع لنفسه لقب "ابن الله" كما تقول النظريات اللاهوتية التي تطورت في أوقات متأخرة، وبالتأكيد أنّ الحواريين وباقي النصارى في فلسطين لم يستخدموا هذا المصطلح، وحتى لو استخدموه فهو ضمن نطاق ومفهوم العهد القديم لا غير، فمثلاً عندما خاطب عيسى سامعيه قائلاً: (لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأنني جئت من قبل الله .... لقد أرسلني) (يوحنا ٨/٤٢)، ففي العهد القديم كانت عبارة "ابن الله" تعني معنىً مختلفاً جداً لليهود عمّا كانت تعنيه للمسيحيين الهلنستيين.

لأنه في مصطلح العهد القديم يُعتبر كل فرد من الأتقياء اليهود ابناً لله -مجازاً- وهذا بالطبع لا يعني أن عيسى -باعتباره نبياً يهودياً- هو ابن الله بشكل خاص ومميّز كما تعتقد المسيحية الهلنستية، فجميع ملوك إسرائيل كان يُقال

لهم أبناء الله، وقد زعموا أن عهد الله تعالى لداود كان: (سوف أكون أباً له، وسوف يكون ابناً لي) (سفر صموئيل الثاني ١٤/٧)، وزعموا أيضاً: (أنت -يا داوود- ابني، اليوم أنجبتك -كذا-) (سفر المزامير ٧/٢)، وأيضاً: (سوف أعيّنه -أي داود- ابني الأول أكثر ملوك الأرض رفعةً) (سفر المزامير ٢٧/٨٩)، وبالطبع فإن تعيين داوود يؤثر على منصبه كمَلِك دُنيوي وليس بتغيير طبيعته البشرية ليصبح مؤلّهاً، وغني عن القول أن داوود لم يكن ليجرؤ على ادعاء الألوهية لنفسه كما لم يجرؤ معاصروه على ادعائها له، فذلك في اليهودية كفر سافر، أما القول عندهم بأن فلان ابن الله فليس معناه التأليه.

ولكن في العالم الهلنستي أخذ لقب "ابن الله" الذي أطلقوه على المسيح منحىً خطيراً باتجاه الوثنية، فتم تشويهه جذرياً ليصبح معناه "نصف إله" أي شخص مؤلّه، وكان التأليه شائعاً في العالم الإغريقي-الروماني لبعض الملوك والأباطرة من الشخصيات التي تفتن الجماهير فكانوا يسمونهم آلهة أو أنصاف آلهة man-god أو أبناء الإله زوسZeus ، وقد انطبق ذلك على أباطرة روما: يوليوس قيصر ومَن جاؤوا بعده، وعلى ملوك مصر البطالسة الذي أصبحوا كسابقيهم الفراعنة أبناء إله الشمس "هليوس"Helios ، وبالأسلوب نفسه تحوّل عيسى إلى "ابن الله" بصفة مميزة، وليس بالصفة التي تنطبق على كل فرد يهودي مؤمن! وهكذا سارت المسيحية بخطى حثيثة باتجاه الفكر الهلنستي.

غير أنّ عيسى لم يتحدث عن نفسه قطّ بصفة "ابن الله" لا بالمعنى اليهودي للعهد القديم ولا بالمعنى المميّز الذي زعموه له فيما بعد، ولم يكن التأليه ولا عقيدة ابن الإله من جملة تعاليمه قطعاً، أما الأمثلة من هذا القبيل التي نسبوها إليه كما في الأسفار (متّى ٢٧/١١، ٣٦/٢٤) و (مرقس ٣٢/١٣) و (لوقا ٢٢/١٠) فهي مصطنعة بشكل سافر ولا شك أنها تُعزى إلى العقائد الكنسية التي تطورت وصدرت في أوقات لاحقة.

عندما سُئلَ عيسى من قبل كبير الكهنة أثناء المحاكمة إن كان هو المسيح ابن الله؟ أجابه: (أنت الذي تقول ذلك) (لوقا ٢٢/٧٠)، وفي تعديل جعلوه يقول: (أنا هو) (مرقس ١٤/٦٢)، وقد يكون أنه قال أنا المسيح، فشطبوا الكلمة الأخيرة، وفي سفر متّى جعلوا جوابه مريباً (أنت قلت) (متّى ٢٦/٦٤)، ويحتمل أيضاً أن مؤلفي الأسفار ومنقحيها صاغوا السؤال بصورة مريبة تجعل القاريء يعتقد أن عبارتيْ "المسيح" و "ابن الله" مترادفتين، ولا بد أنّ عيسى كان يعلم تمام العلم المغزى الوثني الذي يمكن أن تحمله عبارة "ابن الله" عند العامّة، ولذلك كان حريصاً كل الحرص على تفاديها.

ومع ذلك أصرّت الوثنية الهلنستية في مجمع نيقية، بعد عيسى بثلاثة قرون، على إعلان عيسى بصفته: (ابن الله الوحيد –الذي أُنجِب–، الإله من الإله، من مادة الأب نفسها)!؟ وقد علّق على ذلك البروفسور فنك Funk رئيس ندوة عيسى: (من المفهوم أنّ الأساقفة الذين اجتمعوا في نيقية بالعام ٣٢٥م أصرّوا على المساواة الكاملة بين عيسى وبين الأب! لأن قبولهم بأي شيء أقل من ذلك كان يمكن أن يضع عيسى في منزلة مماثلة لباقي أباطرة وشخصيات العصر الذي كان كلّ واحد منهم يفخر بأنّه ابن إله، ولذا وَجَبَ على عيسى بصفته "كريستوس" الهلنستي أن يكون متساوياً مع الله، لأسباب سياسية إن لم يكن لأسباب لاهوتية، وبهذه التحوّل أصبح عيسى صنماً معبوداً بعد أن جاء هو نفسه محطّماً للأصنام)[٩].

وعلى النقيض من عقيدة نيقية كان هنالك الأريسيون، نسبةً إلى الأسقف أريوس الذي عارض قرارات مؤتمر نيقية بشدة ولكنهم أدانوه واتهموه بالهرطقة، كان الأسقف أريوس الإسكندراني يقول أن الأب وحده هو الله في حين أن عيسى مجرد بشر خاضع لله، ومع أن الأريسية انتشرت في أواسط أوروبا وامتدت حتى شمال إيطاليا وإسبانيا وفرنسا، لكنها في النهاية تلاشت تحت وطأة الاضطهاد الذي تعرضت له من الكنيسة.

ب – لقب "عيسى الربّ:"

لقب " الربّ "، باليونانية "كيريوس -Kyrios ، المنسوب إلى عيسى، من الألقاب التي تصدم المرء، لقد استعمل بولس هذه الكلمة بالمغزى اليوناني بما يفيد تأليه عيسى (١٠)، حيث إنّ هذه الكلمة اليونانية بالذات وردت في الترجمة السبعينية للعهد القديم كإسم من أسماء الله تعالى، وهو بالعبرية يهوه، الكلمة ذات الأربعة حروفtetragrammaton (١١) ، وأصل اشتقاق كلمة كيريوس في الأساس من الثقافة الوثنية الهلنستية التي كانت تنسب هذا اللقب إلى آلهتها وإلى الأباطرة، ولم تكن تستعمل كلقب تأليه سوى ضمن تلك الثقافة.

ولا شك أن استخدام هذه الكلمة كلقب لعيسى، بغرض تأليهه، ليس سوى بدعة أخرى من بدع بولس، إذ من المستحيل أن تجعل التوقعات اليهودية من المسيح إلهاً، كما يستحيل أن يتخذ المسيح لنفسه مثل هذا اللقب، ويستحيل أن يقبله لنفسه، لأنّ ذلك يناقض أساس الديانة التوحيدية التي جاء هو نفسه لإصلاحها ونفي الشرك والوثنية عنها .

ونلاحظ في الأسفار الثلاثة المتشابهة أنّ عيسى لم يتخذ لنفسه هذا اللقب قط، كما لم يقبل بأن يُطلق عليه بالأسلوب الذي فهمه وادّعاه بولس، غير أن الأمر مختلف في السفر الرابع الذي يُعتبر أكثر الأسفار تطوّراً باتجاه اللاهوتية الهلنستية، ولأنه كُتب كخليط من الأفكار اليهودية والأفكار الهلنستية الوثنية، فهو بذلك يعكس تطور هذا اللقب من مصطلح عادي إلى لقب تأليه كما يبدو ذلك واضحاً في عبارة (ربّي وإلهي) (يوحنا ٢٠/٢٨) التي وضعوها على فم الحواري توماس مخاطباً عيسى (١٢).

أما في الوسط الفلسطيني- الآرامي بذلك العصر فكان المعنى البديهي والطبيعي لعبارة "ربّ" هو لقب تهذيب واحترام تجاه الشخص المخاطَب، وخاصة عندما يخاطِب المرء أشخاصاً أعلى منه سلطةً ومرتبةً كما هي الحال عند مخاطبة مِلك أو قاضٍ أو حاكم، أو حتى عندما تخاطب المرأة زوجها، أو عندما

يخاطب الولد أباه[١٣]، ففي مثل هذه الحالات لا يُفهم النداء بالمعنى اليوناني الوثني لكلمة "كيريوس" كما هي الحال في الأديان الهلنستية، وعلى هذا النحو يمكن فهم كلمة "الرب" في الأسفار أنها تعبير عن الاحترام والتبجيل لعيسى من قبل أتباعه، غير أن هذا الفهم تشوّهَ إلى المعنى الذي تخيله بولس وهو التأليه، رغم أنه يستحيل على أي يهودي أن يخاطب أي إنسان مهما كان بلقب "الرب" قاصداً التأليه، كما يستحيل على عيسى من جانبه أن يقبل مثل هذا الخطاب.

وبالطبع لا يمنع ذلك استخدام لفظ "الرب" من قبل المصلّين عندما يدعون الله سبحانه وتعالى، بمعنى أن الله هو ربّ الجميع ورب الأرباب .

ج ـ لقب ابن الإنسان:

عند قراءة أسفار العهد الجديد لا يفوت المرء ملاحظة أن لقب "ابن الإنسان"، المفترض أنه لقب لعيسى، لم يُستخدم إطلاقاً بصيغة النداء لعيسى، فجمهور عيسى لم يخاطبوه بهذا اللقب، كما لم يُستعمل هذا اللفظ خلال المداولات والمحادثات بين عيسى وجمهوره، إلا من قبل عيسى نفسه، سوى في حالات نادرة وفي جميع الأحوال لم تكن بصيغة المنادى، دائماً وبلا استثناء تقريباً كان عيسى وحده هو الذي يتحدث عن ابن الإنسان، يضاف إلى ذلك أن عيسى كان دائماً يشير إليه بصيغة الغائب أو صيغة الطرف الثالث، وهو قطعاً لم يكن يشير إلى نفسه .

وفي حين أن لقب ابن الإنسان قد حيّر معلّقي الكنيسة ومنظّريها اللاهوتيين لقرون عديدة، فالثابت أن معاصري عيسى وسامعيه لم يكن لديهم أدنى تساؤل أو شك عن هويته وعن مغزاه ومعناه، وبحسب روايات الأسفار لم يصادف أنّ أحداً من جمهور عيسى الذين سمعوه يتحدث عن ابن الإنسان، أن سأل أو تساءل عن هوية هذا الشخص! فلا بد إذن أنهم كانوا يعرفون تمام المعرفة عمّن كان عيسى يتكلم، وحتى الفريسيين الذين حرصوا -بحسب

الأسفار- على ملاحقة عيسى بأسئلتهم التعجيزية لم يُظهروا أي تساؤل عن هوية ابن الإنسان![١٤].

ولأهمية هذا الموضوع فسوف يُبحث في فصل مستقل.

د- لقب "حَمَل الله:"

كانت هجرة اليهود من مصر الفرعونية حوالي العام (١٢١٣م) من أهم أحداث التاريخ اليهودي، وبحسب القصة في الفصل الثاني عشرمن سفر الخروج أنّ موسى أمرَ أتباعه أن يدهنوا أبواب منازلهم بعلامة حمراء من دم خروف الأضحية، وبهذه الطريقة فإن العقاب الإلهي المفترض أن يحل بالمصريين سوف يتجاوزهم، ومنه كلمة Passover باعتبار العلامة الحمراء على أبواب بيوتهم، وهكذا صار يتم الاحتفال بعيد الفصح اليهودي Passover يوم ١٤ نيسان من كل عام، وفي التاريخ اليهودي المبكر كانت كل عائلة يهودية تذبح خروفاً في هذا العيد احتفالاً بذكرى النجاة من عبودية فرعون.

ولكن الفكر العبقري لبولس، الذي كان يهودياً هلنستياً، تمكّن من إيجاد مقارنة عجيبة بين خروف الأضحية في عيد الفصح اليهودي وبين موت عيسى على "الصليب"، إذ أصبح عيسى بحسب مخيلة بولس خروفاً تمت التضحية به! فكتب في إحدى رسائله: (لأنه حتى المسيح خروف الفصح تمت التضحية به لأجلنا) (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورينثوس ٥/٧).

ثم إن السفر الرابع من العهد الجديد، والذي يختلف عن الأسفار الثلاثة الأولى بإغراقه في اللاهوت المسيحي، يقتبس عقيدة التضحية الإلهية من تفكير بولس فيضع على لسان يحيى المعمدان العبارة التالية: (انظروا -إلى عيسى- حَمَل الله الذي يغسل خطايا العالم) (يوحنا ١/٢٩)، ولا شكّ أنّ هذه الجملة قد نُسبت إلى يحيى بشكل مصطنع، لأنّ يحيى استُشهد قبل عشرين عاماً تقريباً من ابتكار بولس لعقيدته عن "حَمل الله" الذي مسح خطايا البشر!! ويبدو أنهم أرادوا من العامة أن تعتقد بأنّ يحيى سبق بولس في "اكتشاف" هذه

العقيدة، رغم أن ذلك يناقض بشكل سافر رواية متّى بأنّ يحيى لم يكن متأكداً أصلاً من نبوّة عيسى، حتى إنّه بعد دخوله السجن وقبل استشهاده بعث إلى عيسى من السجن يسأله: (هل أنت النبي الموعود؟ أم ننتظر واحداً غيرك؟) (متّى ١١/٢-٣).

فلو أخذنا بالاعتبار أن السفر الرابع كان آخر ما كُتب من الأسفار القانونية، إذ كُتب حوالي الفترة (١١٠-١٣٠م)، أي بعد موت بولس بحوالي ستين عاماً، فلا غرابة أنه كُتِبَ مشبعاً بفكر بولس اللاهوتي، إذ يمثل بكل بوضوح تطور لاهوت الكنيسة باتجاه الفكر الهلنستي المحض، فلو صحّ أن يحيى كانت لديه الجرأة للقول: (أنظروا -إلى عيسى- حَمَل الله الذي يغسل خطايا العالم)، لو صحّ هذا القول منه لجعل من نفسه أضحوكة، أو لَبَدا وكأنه يسخر من اليهود، أو لو أنهم أخذوا كلامه على محمل الجدّ لكان ذلك بمثابة الكفر الصريح، أو بمثابة الإهانة لليهود بأجمعهم، فبالنسبة لأي يهودي تقي، ماذا يمكن أن يكون أكثر إسفافاً من إحلال المسيح "المصلوب" محل خروف عيد الفصح؟ !

ورغم ذلك فإنّ المفهوم الذي ابتكره بولس عن "حَمَل الله" صار أساساً للاحتفال بالقربان المقدس يوم عيد الفصح المسيحيEaster ، فبدلاً من احتفال اليهود بذبح أُضحية الخروف في عيد الفصح اليهودي، تحتفل المسيحية في عيد الفصح المسيحي بذبح عيسى "حَمَل الله" على الصليب كأضحية إلهية صارت قرباناً مقدّساً يأكلون من لحمه ويشربون من دمه بحسب طقس القربان المقدّس! والمؤكد أنّ الاحتفال بهذا الطقس هو من اختراع بولس بالكامل بدليل أن شرب الدماء ولو رمزياً من أكثر الأمور حرمةً في الدين اليهودي، وأنّ المسيح نفسه كان آخر الأنبياء العظام إلى اليهودية، وبدليل أن النصارى في فلسطين والقدس كانوا يعلمون تمام العلم حقيقة تعاليم عيسى أكثر من غيرهم بكثير ولذا لم يحتفلوا قطّ بطقس القربان المقدس.

غير أنّ مصطلح "حَمَل" الله نتج من الهاجس الذي هيمنَ على بولس بأنّ المخلّص مات على الصليب -كما في الميثولوجيا- وأنه كان يتواصل معه

باستمرار بطريق الوحي، أما تعاليم المسيح الحقيقية فلم تكن ذات موضوع بالنسبة إلى بولس، وهو على جهله بها لم يهتم بمعرفتها لاعتقاده الجازم أنّ نهاية التاريخ واقعة لا محالة في أيامه، وأن المسيح سيعود ظافراً لتأسيس مملكة الله على الأرض قبل أن توافي المنية بولس نفسه، أما المجيء الأول لعيسى فلم يكن له من مغزى سوى التضحية به كحَمَل إلهي!

والملاحظ أن التعبير الذي استخدمه بولس باليونانية وهو "باسكا" Pascha يتضمن معنى واحداً، لا يفرّق بين عيد الفصح اليهودي Passover ، وعيد الفصح المسيحي Easter ، في حين جرت التفرقة بينهما في وقت متأخر.

٤- المنظور الإسلامي:

من أكثر النقاط أهميةً في المفهوم الإسلامي لبعثة عيسى المسيح نجدها في المعنى الذي يعلقه الإسلام على كلمة "النصارى" بمغزى إيديولوجي، غير جغرافي لا علاقة له بمدينة الناصرة، وقد رأينا أن أتباع عيسى الأوائل في فلسطين كانوا يسمّون نصارى، في حين أنّ المسيحية هم أتباع بولس الذين ظهروا أولاً في أنطاكية السورية -الهلنستية- حيث ابتُدعت هذه التسمية للمرة الأولى، وقد نتج خلط كبير في أذهان الكثيرين لعدم معرفتهم المغزى الإيديولوجي من مصطلحيْ: أ) المسيحية بمعناها ومغزاها الهلنستي، ب) والنصرانية كما هي متصلة ببعثة عيسى المسيح عليه السلام.

ففي حين نجحت وانتشرت المسيحية من منطلق عيسى ميثولوجي بحسب عقيدة بولس وعقيدة نيقية وقرارات المجامع المسكونية بعدها، وهي العقائد التي جعلت عيسى نفسه مسيحياً على طريقتهم، نجد أن الإسلام أنصف المسيح، بعد ثلاثة قرون من انعقاد المجمع المسكوني الأول في نيقية، فأبرَزَ شخصيته التاريخية الحقيقية على الملأ وأنصف بعثته النصرانية، فللمرة الأولى بعد مؤتمر نيقية نرى الإسلام يميّز بين شخصية عيسى التاريخية وبين عيسى الميثولوجي، ولم يكن هذا الفرق معروفاً من قَبل إلاّ عند النصارى، أو مَن تبقى منهم وقت البعثة الإسلامية، وبالمقارنة مع ذلك نلاحظ أنّ علماء الكتاب المقدس عند الغربيين لم

يبدأوا باكتشاف هذه الحقيقة إلا مؤخراً، إذ لا زالوا يحاولون عزل شخصية عيسى الحقيقي عن عيسى الميثولوجي(١٥).

فمن جهة أنصف الإسلام عيسى من العقائد الهلنستية التي ادعتها له الكنيسة، ومن جهة ثانية أكّد أنه المسيح المنتظر ذو الميلاد المعجز من مريم العذراء عليها السلام، ودحضَ الألقاب المتطرفة التي أسبغوها عليه من مثل ابن الله، الربّ، حَمَل الله، وهي الألقاب التي لم يكن ليقبل بها عيسى نفسه، ومن هذه الزاوية نلاحظ الروعة في تناسق الإسلام مع أجزاء الأسفار الأكثر تماسكاً في حين يدحض المتناقضات والمريب منها، انطلاقاً لقوله تعالى: ﴿ومهيمناً عليه﴾ [المائدة: ٥/٤٨] .

وفي التمييز بين مسيح بولس الميثولوجي وبين المسيح الحقيقي نقرأ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٣/٦١]، أي من حاجَّك في حقيقة عيسى بعدما جاءك من العلم اليقيني. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٣/٦٢] أي في حقيقة عيسى المسيح ﴿وَما مِنْ إِلَـهٍ إِلاّ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣/٦٢] بخلاف التثليث.

وهناك العديد من الأبحاث الغربية بهذا الموضوع وصلت إلى طريق مسدود أو إلى استنتاجات خاطئة بسبب جهلها أو تجاهلها المنظور الإسلامي في بحثها عن الحقيقة التي جاء بها الوحي النهائي والأخير الذي خُتمت به الرسالات الإلهية إلى بني آدم، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٥/٣].

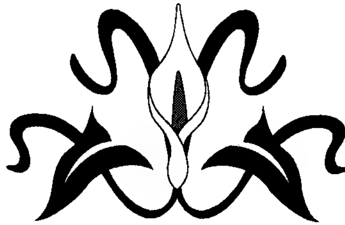
وفي تجاهلهم المنظور الإسلامي نقرأ قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْف﴾ [النساء: ٤/١٥٥] إشارة لاعتقادهم أن عقولهم مكتفية بما عندها من العلم ولاحاجة بهم للنظر في غيره.

وليس من سبب في تجاهل المنظور الإسلامي من قبل البعض سوى الكِبَر في نفوس من يظنّون أنفسهم مكتفين ذاتيّاً بما عندهم من العلم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَان أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٤٠/٥٦]. ولأن شعور البعض بالكِبَر واعتقادهم بالاكتفاء الذاتي ليسا سوى وهماً محضاً، فبالتالي ما هم ببالغي الغاية من هذا الزهوّ والغرور والتخيّل: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر: ٤٠/٨٣]. أي بعد أن كانوا مبتهجين بمعارفهم ومكتفين بذواتهم حاقت بهم- بعد فوات الأوان- حقيقة الوحدانية والحساب الذي لا مفر منه، وهو ما كانوا يستهزئون به من قبل[١٦]. ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾ [غافر: ٤٠/٣٥]. أي بنتيجة خياره الحر، يصبح مجرّداً من البصيرة في هذه الدنيا.

مراجع الفصل السادس:

1. (Parrinder *SOJ* p.120)
2. (see Vermes *JTJ* p. 158,159)
3. (see Maccoby *TMM* p. 176), (Schonfield TMM p.8)
4. (see Parrinder *SOJ* p. 2ff), (also Funk HTT p.287)
5. (Parrinder *SOJ* p.42)
6. (Wells *TJM* p.52-53,69), (see also Eisenman *JBJ* p. 142,396), (Robinson NHL p.262)
7. (Knight & Lomas, *TSM* p.3)
8. (see Vermes *JTJ* p. 212), (also Dawes HJQ p.67 Reimarus)
9. (Funk *HTJ* p.295)
10. (Vermes *JTJ* p.106)
11. (Vermes *JTJ* p.109-112), (Funk *HTJ* p. 207), (Maccoby *TMM* p. 63)
12. (see Vermes *JTJ* p. 127)
13. (Vermes *JTJ* p.114ff)
14. (Vermes *JTJ* p. 161)
15. (Funk *TFG*)
16. (Asad *TMQ* p.727-728)



الفصل السابع

ابن الإنسان

من هو؟

الفصل السابع

ابن الإنسان

من هو؟

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الأَوَّلِينَ ۞ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون : ٢٣/٦٩-٧٠].

﴿لِئَلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٥٧/٢٩].

١- تعريف:

تكررت الإشارة إلى ابن الإنسان في العهد الجديد حوالي ثلاث وثمانين مرة في الكلام المنسوب إلى عيسى، فمَن هو ابن الإنسان الذي كان يقصده عيسى في كلامه؟؟ ورد في سفر المزامير (مزامير ٨/٤-٨) بالعهد القديم أنّه ابن آدم، أي بني آدم، كما يقولون مجازاً عن جنس البشر[1].

غير أنّ هنالك تعريف محدد لابن الإنسان ورد في الفصل السابع من سفر دانيال بالعهد القديم، وهو الشخص الطاهر الذي يؤتى به من فوق السحاب، إلى العليّ القدير فيُعطى له السلطان الخالد، والمجد، والمُلك الدائم فتخضع له وتخدمه الأمم والألسنة (دانيال ٧/١٣-١٤)، وهذا التعريف هو الأساس لفهم شخص ابن الإنسان في الكتاب المقدس، فهو المُنقذ من الضلال، المُخلّص Deliverer، الذي عند مجيئه يغيّر الأوضاع القائمة.

وعموماً، نجد تركيزاً في تعاليم اليهود وكتبهم ونبوءاتهم على مجيء النبي-المنقذ، الذي بزعمهم يجب أن يكون من سلالة داوود النبي-الملك، وأنّه عند

مجيئه سوف يحرر اليهود من مضطهديهم، لأنّ ظَفَر المنقذ بوصفه نبياً-قائداً سيكون دنيوياً ودينياً في الوقت نفسه[٢].

أمّا معلّقو الكنيسة فيودّون إعطاء الانطباع، المباشر أو غير المباشر، أن عيسى في أحاديثه المتكررة عن ابن الإنسان كان يشير إلى نفسه من طرف خفيّ، هذا على الرغم من أنّه كان على ابن الإنسان المنقِذ، عند مجيئه، أن يفكك الأوضاع والأنظمة القائمة، وينشيء مكانها نظاماً جديداً يكون فيه ابن الإنسان منقذاً، نبيّاً-ملكاً، أي ذا سلطة دنيوية، وليس سلطة دينية فقط، فالمفترض أن تنهار عند مجيئه السلطات الدنيوية بكل ما فيها من شِرك ومن وثنية، وبكل ما فيها من إباحية لاأخلاقية وإباحية جنسية، ومن الواضح أنه، خلافاً لتوقعات العامة، لم يتحقق شيء من ذلك في زمن عيسى، ولا حتى في زمن أتباعه، فاليهود الذين كانوا وقتها يمثلون الديانة التوحيدية الوحيدة، لم يحققوا النصر على إمبراطورية روما، مع أنهم كانوا يتطلعون إلى قدوم المخلّص المنتظر كي ينقذهم من جيوش روما ومِن إمبراطوريتها.

ومع ذلك تلهّفَ مؤلفو أسفار العهد الجديد على تصوير عيسى المسيح بأنّه ابن الإنسان-المنقذ المظفّر، لدرجة أنهم ابتدعوا لقصة دخوله الأخير إلى القدس لقباً مصطنعاً محيِّراً ومربكاً، إذ أطلقوا عليه صفة (الدخول المظفّر إلى القدس) (مرقس ١١/١-١١)، (متّى ٢١/١-١١)، (لوقا ١٩/٢٨-٣٨)، (يوحنا ١٢/١٢-١٩)، رغم أنّ دخول عيسى إلى القدس لم يكن له علاقة بأي ظفر ولا نوايا من جانبه لقيادة اليهود ضد إمبراطورية روما، ولا إنشاء نظام سياسي جديد، ولا القيام بأي مهمة من المهام المفترض على ابن الإنسان أن ينجزها .

وإذ لم يكن ممكناً الادعاء أنّ المسيح هو ابن الإنسان الذي تنبأ به دانيال، لذا فَقَدَ اللقب في أذهان مؤلفي الأسفار أي مفهوم وأي مغزى عسكري له، وبالتالي حاولوا تجريده من أي مغزى أو دلالة سلطة دنيوية، وحوّلوه إلى مفهوم رمزي داخلي بحت، فأصبح اللقب عندهم رمزيّاً بحتاً مختلفاً عن صفة (النبي)

ذي السلطة الدنيوية المشار له في سفر دانيال، وقد وجد بولس لنفسه المخرج من هذه المعضلة بأن دخل في روعه أنّ المسيح في مجيئه المظفّر الثاني سوف يحقق ما لم يستطع تحقيقه في المجيء الأول، وبحيث تُطابق أوصافُه في المجيء الثاني ما تنبأ به دانيال لابن الإنسان من القوة، والسلطان، والمجد، وزاد بولس أن المجيء الثاني لن يكون في المستقبل البعيد، بل قريباً جداً قبل أن تدرك المنية بولس شخصياً.

غير أنّ عيسى في أحاديثه كان يتكلم عن ابن الإنسان دوماً بصيغة الغائب، مشيراً بشكلٍ خفي إلى شخص آخر، غيره هو شخصياً، وهذه الصيغة وحدها هي التي يمكن أن تجعل أحاديثه منطقية، ولا بدّ أنه كان يشير إلى النبي الأحمد، خاتم الأنبياء والرسل، لأنه في هذه الحالة فقط تتحقق النبوءة عن ابن الإنسان المذكورة في سفر دانيال، إذ محمّد وحده حقق صفة النبي ذا السلطة الدنيوية، فجمع بين صفات النبوة والدين والتُقى، وصفات السلطة الدنيوية والقوة الظافرة.

٢ – المسيح ليس المنقذ المنتظر:

في التعبير اليهودي يختلف مفهوم ووظيفة المسيح عن مفهوم المنقِذ، فاليهود منذ نهاية مُلك داوود وسليمان، ومنذ انقسامهم واستيلاء الأمم عليهم كانوا يتوقون للتخلص من مضطهديهم، فكانوا يتطلعون ويتنبؤون بمجيء النبي–المنقذ الذي يقودهم إلى النصر على أعدائهم، وكان على المنقذ أن يكون على غرار ما وصفه دانيال من القوة والمجد والسلطان بحيث تخضع له الأمم، وبحيث ينشيء مملكة الله على الأرض التي –وهذا هو أهم شيء– يُعبد فيها الله وحده .

ولذلك لو سُئِلَ أيّ يهودي مُلتزم عن عيسى، لما أخفى عدم إيمانه بقناعة المسيحية أنّ عيسى كان المخلّص، فهو سيقول على الفور إن النبوءات لم تتحقق فيه إذ لم ينقذ اليهود من مضطهديهم، ولم يهزم إمبراطورية روما، وبهذا التبرير يرفض القناعة المسيحية بأنّ عيسى هو المخلّص، ومن هذه الزاوية

يتفق المسلمون واليهود معاً بأن عيسى لم يكن المنقِذ فعلاً، غير أن اليهود يشتطون في رفضهم، إذ لا يعترفون بعيسى مسيحاً ولا نبيّاً، وبالمقارنة مع ذلك يتفق المسلمون والمسيحيون معاً بأن عيسى كان بالفعل مسيحاً نبياً، بل إنه هو المسيح المنتظر بالذات.

ومن جهة أخرى فإن كلمة (المسيح) الآرامية، وهي لا تتضمن معنى (المنقِذ) كما رأينا، تعني المُختار من الله تعالى أي الشخص المبعوث لإصلاح الدين اليهودي، وإعادة النقاء إليه، ونلاحظ أنّ سفر يوحنا (يوحنا ١/١٩-٢١) يفرّق بوضوح بين شخص المسيح وبين شخص النبي-المنقِذ [٣].

ولذا كان إنكار اليهود للمسيح نتيجة مباشرة للخلط بين شخصين مختلفين: المسيح من جهة، والمنقِذ من جهة، فاللقبين ليسا لشخص واحد قطعاً، كما أنهما ليسا لقبين مترادفيْن، وإنما ينطبقان على نبيّين بُعث كل منهما في وقت مختلف عن الآخر، وبمهمة خاصة لكل منهما، اللقب الأول خاص (بعيسى): المسيح المنتظر، واللقب الثاني خاص (بالنبي) المنتظر الأحمد المنقذ من الضلال خاتم الأنبياء والرسل الذي قُدّر له أن يأتي بعد المسيح بستة قرون.

٣ - عيسى المسيح، وكريستوس الهلنستي:Hellenistic Chrestos

بالمقارنة مع العبارة الآرامية (المسيح) فإن الكلمة اليونانية (كريستوس) التي استخدمها بولس في كتاباته لا تؤدي المعنى نفسه، إذ هي أحد ألقاب الآلهة الهلنستية الميثولوجية [٤]، ومنذ ظهر بولس على مسرح الأحداث وبدأ نشاطه التبشيري ابتعد بتعبيره وبمفهومه اليوناني لكريستوس عن المسيح الحقيقي، فأصبح كريستوس عنده إلهاً هبط من السماء متخفياً على شكل بشر لافتداء خطايا العالم، وهي عقيدة كانت مألوفة ومعروفة عند الهلنستيين في العالم اليوناني-الروماني، فمن ذلك نصف الإله هيراكليس Herakles الذي هبط إلى عالم الموت لإنقاذ أرواح البشر، والإله ميثراس Mithras الذي ذبح الثور المقدس لكي يمسح بدمه خطايا أتباعه، والإله ديونيسس Dionysus الذي اعتاد طرح

طبيعته الإلهية جانباً كي يتجول بين الناس مخفياً حقيقته، وبصورة مشابهة نجح بولس بفضل جهوده التبشيرية في تحويل المسيح تدريجياً في العالم الهلنستي إلى كريستوس كما فهمه، واعتقد به، ومن حيث إنه لم يكن بعيد الشبه عن هيراكليس أو ميثراس أو ديونيسس.

٤- المسيح، وإلياس، والنبي:

الفارق بين شخصيتيْ (المسيح) من جهة، و(النبي) المنتظر من جهة، أوضحته بجلاء الأسئلة التي وُجّهت إلى النبي يحيى -المعمدان- من قبل وفد يهودي مكوّن من الأحبار والكتبة، وقد وردت القصة في السفر الرابع: (وهذه شهادة يحيى حين أرسل إليه اليهود من القدس وفداً من الأحبار والكتبة ليسألوه: مَن أنت؟ فاعترف وأقرّ قائلاً: لستُ المسيح، فسألوه: ماذا إذن؟ هل أنت إيليا؟ فقال: لستُ إيليا، فسألوه: هل أنت ذلك النبي -أي النبي المنتظر-؟ فقال: لا) (يوحنا ١/١٩-٢١)، ثم سألوه: (فما بالك تُعمّد إذن؟ إن كنت لستَ المسيح ولا إيليا ولا ذلك النبي؟) (يوحنا ١/٢٥)، ممّا يوضح جليّاً أنهم كانوا يتوقعون شخصيات ثلاثة مختلفة عن بعضها بعضاً، وهي: ١) إيليا -أو إلياس- المفترض مجيئه في آخر الزمان، و٢) المسيح المنتظر، و٣) النبي المنتظر، أي خاتم الأنبياء والرسل المذكور في (سفر التثنية ١٨/١٨)، شبيه النبي موسى.

ثم إن كلاً من متّى ولوقا يقصّان حكاية ذات مغزى هام جداً عن يحيى المعمدان، عندما كان مسجوناً قبل استشهاده، إذ سمع عن معجزات عيسى ومواعظه وهو في السجن، فأرسل إليه اثنين من أتباعه يسألونه: هل أنت النبي المنتظر؟ أم ننتظر واحداً غيرك؟ (متّى ١١/٢-٣)، (لوقا ٧/٢٠)، والواضح أن الأمور التبست على يحيى، إن كان عيسى هو المسيح؟ أم النبيّ المنقِذ؟ والمغزى أيضاً أنّ يحيى وباقي الناس كانوا يتوقعون ظهور شخصيتين مختلفتين عن بعضهما بعضاً، كل واحدة منهما تُبعث بمهمة خاصة بها، وبعبارة أخرى لا يمكن لعيسى أن يكون المسيح والنبي المنقذ في آن واحد مهما حاول معلقو الكنيسة تجاهل ذلك.

٥ – المسيح يصرّح: لستُ النبيّ المنقذ:

أجاب عيسى على سؤال رسل يحيى قائلاً لهم: (اذهبا وأخبرا يحيى ما تسمعان وما تشاهدان، العميُ يبصرون، والعُرج يمشون، والبُرص يطّهرون، والصمّ يسمعون، والموتى يقومون) (متّى ١١/٤-٥)، غير أن يحيى كان يدرك ولا شك أن هذه المعجزات الخارقة مهما كانت باهرة ليست كل ما هو متوقع من النبي المنتظر [5]، كان سؤال يحيى لعيسى واضحاً كل الوضوح: هل أنت ذلك النبي أم لا؟ هل أنت المنقذ المخلّص؟ هل أنت النبي المنتظر ذو السلطة الدينية والدنيوية معاً؟ وكان جواب عيسى بدوره واضحاً في مغزاه: أنا المسيح النبي، ولكني لستُ المنقِذ المخلّص، لستُ النبي المنتظر ذا السلطة الدنيوية، لقد نفى عيسى بكل وضوح أن يكون هو المخلّص، وفي الواقع لو كان يحيى يعتقد أنّ عيسى هو النبي المخلّص حقاً لما اضطر إلى سؤاله، ولكنه كان يتوق ويأمل أن يكون عيسى شخصاً أكثر من المسيح، كان يتمنّى لو كان عيسى هو النبي المنتظر ذو السلطة الدينية والدنيوية معاً.

ولم يكن يحيى وحده الذي يحتضن هذا الأمل والرجاء، حتّى الحواريون أنفسهم بدا عليهم الالتباس، مع أنّ عيسى كان يؤكد لهم باستمرار وفي أكثر من مناسبة وبلباقة، ويعرّض لهم أن لا يتوقعوا منه القيام بالدور الذي لم يكن مقدراً له أن يلعبه، الدور الذي كان مقدّراً لغيره، كان طبيعياً ألاّ يقوم عيسى بمهام المخلّص لأنه هو نفسه لم يكن المخلّص، لقد علّم عيسى الناس أن يقبلوا ويتحملوا الاضطهاد، أن يقبلوا الأوضاع الراهنة، علّمهم الحلم والخضوع، والتوبة والاستقامة، وأن يسعوا وينشدوا مملكة الله القادمة، إذ لم يكن عصره جاهزاً لقيام مملكة الله على الأرض التي يُعبد فيها الله وحده، التي تُمحى منها الأوثان والوثنية، كان عيسى في صلواته يدعو الله تعالى قائلاً: (ليأت ملكوتك)، وكان تعبير (مملكة الله) مألوفاً في العهد القديم، ولا شك أنّ عيسى علّم أتباعه أن مملكة الله سوف تتحقق فعلاً لا مجازاً، ولكن ليس في زمنه هو نفسه.

كان عيسى يعلم أنه بصفته المسيح يستطيع أن يجترح المعجزات، أمّا النبي المنتظر فكان يُتوقّع منه غير ذلك، النبي المنتظر يجب أن يكون ابن الإنسان المذكور في سفر دانيال، النبي المخلّص الذي يفتتح عصراً جديداً في تاريخ البشرية، الذي يقهر أعداءه ويقضي على الشرك والوثنية، وينشيء مملكة الله على الأرض التي لا يُعبد فيها إلا الله عزّ وجلّ، إنّه النبيّ الأحمد العَلَم الذي بشّر به عيسى بالاسم، وكان مقدّراً له أن يُبعث بعده بستة قرون.

٦ – تنحّوا جانباً يا بني إسرائيل:

في بداية بعثته اتّخذ عيسى لنفسه مقرّاً في كفرناحوم، وهي قرية على الشاطيء الشمالي لبحر الجليل -بحيرة طبريا-، سكانها خليط من الأهالي والرومان والرسميين من الحكام(٦)، فلم تكن القرية من هذه الناحية مناسِبة لمتمرد أو لثائر أن يتخذها مقراً له، بل على العكس كانت مناسِبة لَمن أراد التهدئة والدعوة إلى ضبط النفس.

لم يدّعِ عيسى قطّ أنه النبي المنقِذ، إذ لم يكن مقدّراً له إنقاذ شعبه من إمبراطورية روما ولا إعادة بناء مملكة داوود، وهو طيلة مدة بعثته القصيرة لم يبدر من جانبه أدنى ملاحظة أو تلميح في خطاباته وأحاديثه، ولا في أفعاله وتخطيطه ما يوحي بأي دلالة يمكن أن تُفهم بمعنى أنّه النبي المنقِذ، وهو لهذا السبب بالذات تجنّب أن يدعو الناس للمواجهة، بل على النقيض من ذلك نرى كل تعاليمه تتركز على المسالمة والتهدئة(٧) وخاصة عند لقائه مع ثوار الجليل ومع المتحمسين لطرد الرومان من فلسطين، فكان يحذرهم مرة بعد أخرى من الثورة والعصيان المسلح ومن أقواله: (أحب عدوّك) و(لا تجابه الشر) و (مَن صفعك على خدّك الأيمن أدر له الأيسر ومَن أكرهك على السير معه ميلاً سِر معه ميلين)، لقد أنذر اليهود صراحةً وعمداً ألاّ يسلكوا سبيل العنف والثورة ولا الرد على الشر بالمثل.

ولا يمكن أن يفوتنا في أحاديث عيسى وخطاباته إنكاره المتكرر لمن اعتقدَ فيه شخصية المنقِذ، وفي حادثة مهمة جداً من هذا القبيل حاولَ تهدئة مجموعة من الثوار قوامها حوالي خمسة آلاف رجل تبعوه إلى الجليل كي يجعلوا منه قائداً لهم معتقدينَ أنه النبي المنقِذ، وهي الحادثة التي قام خلالها بمعجزة أرغفة الخبز (يوحنا ٦/٥-١٤)، فعندما رآهم عيسى قال لحوارييه: (اجعلوا الناس يجلسون -ليجلس الرجال- وكان هنالك عشب كثيف على الأرض فجلس الرجال وعددهم نحو خمسة آلاف) (يوحنا ٦/١٠)، ومغزى هذه القصة شديد الأهمية ويتمحور حول قول عيسى للثوار اليهود: (ليجلس الرجال)[٨]، كان هنالك مغزى عملي في كلامه شديد الوضوح، لقد أنذر الرجال كي لا يستولي عليهم الوهم بأن الوقت قد حان لثورة أخرى ضد روما، وكي لا يظنوا أن عيسى جاءهم قائداً عسكرياً أو منقِذاً لهم من الاضطهاد، فأمرهم أن يجلسوا وأطعمهم من خمسة أرغفة وسمكتين، أرادهم أن يفهموا أن الوقت لم يحنْ بعد لمجيء النبي المخلّص، وأفهمهم أن لا يسلكوا طريق العنف لأنه لا يفيدهم سوى الدمار، وبينما هو يعظهم بمملكة الله القادمة التي لم يكن مقدّراً له أن يقودها، كانوا بالمقابل لشدة حماسهم يتوقون أن يكون هو منقذهم ومخلّصهم، يتشوقون أن يقودهم ضد إمبراطورية روما دون انتظار، لقد سيطر عليهم الوهم بأنه النبيّ المنتظر وهو ما أراد عيسى بالذات أن ينفيه عن نفسه.

كانت رسالته إلى بني إسرائيل مختصرة ومفهومة، قال لهم: (ليجلس الرجال)، لم يكن عيسى المخلّص ولم يدّعِ أنه المخلّص، لقد بشّرهم بمملكة الله التي سوف تنشأ في المستقبل، ومن هنا فقط نستطيع أن نفهم دعاءه المتكرر في الصلاة (ليأتِ ملكوتك) بصيغة المستقبل.

كانت مجموعة الرجال التي حاول عيسى تهدئتها في الجليل نموذجاً لشعب إسرائيل المتمرد، ولشدّة عنادهم لم يفهموا الرسالة ولم يستوعبوا كلام عيسى ولا المغزى من معجزة أرغفة الخبز، وقد يكون أنهم فهموا النقيض من ذلك إذ

قالوا: (هذا هو حقاً النبي المنتظر)!! (يوحنا ٦/١٤)، (وإذ شعرَ عيسى أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه بالقوة ليجعلوا منه ملكاً، غادرهم إلى الجبل بمفرده) (يوحنا ٦/١٥)، أي عندما فشل في إقناع ذوي العقول العنيدة بحقيقة مهمته وبحقيقة بعثته، وخوفاً أن يظنّوا أنه ملك دنيوي، توارى عنهم نحو الجبل واختفى عن ناظرهم.

فمن المحزن أن إيضاح عيسى المتكرر لجمهوره عن طبيعة مهمته، وتحذيره لهم أن لا يسيئوا فهم بعثته وأن لا يعلقوا عليها آمالاً للخلاص من روما عسكرياً، ومحاولته أن يوازن تطلعاتهم بشتى الوسائل، كل ذلك لم يفلح لا على المستوى المحلي بين أفراد شعبه اليهود، ولا بعد وفاته على المستوى الهلنستي في العالم اليوناني-الروماني، فلم يكتفِ اليهود بأن أساؤوا فهم رسالة عيسى، بل أصّروا على تمردهم وعصيانهم المسلح ضد روما حتى سبّب ذلك الكوارث لهم في عام (٧٠م) وعام (١٣٥م)، ومن جهة أخرى في العالم الهلنستي أصر بولس على الاعتقاد أنّ عيسى كان مخلّصاً فعلاً، ولكن بشكل خفي وغامض وميثولوجي من حيث أنه خلّص العالم من الخطايا! أما الخلاص على الأرض فكان المفترض أن يتحقق قبل أن يموت بولس -حسب نبوءة بولس نفسه- عندما يعود عيسى في مجيئه الثاني بصورة ابن الإنسان فيهزم روما عسكرياً وينشيء مملكة الله على الأرض بزعامته، ثم إن هذا النمط من التنبوءات -رغم فشله- تكرر من قبل يوحنا العرّاف اللاهوتي في كتابه سفر الرؤيا، الذي صار فيما بعد سفراً من أسفار العهد الجديد[٩].!

وهكذا أدّى إصرار معاصري عيسى على الخلط بين شخصية (المسيح) وشخصية (النبي المنتظَر-المنقِذ) وعدم فهمهم لطبيعة بعثته، بل رفضهم لها، أدى إلى عواقب وخيمة على كل الجبهات، ففي فلسطين هُزم اليهود الذين رفضوا الإيمان بعيسى على يد الرومان وتشتتوا في أنحاء الأرض، وفي الوقت نفسه تشتت معهم النصارى الذي آمنوا بعيسى على حقيقته، وبسبب تشتت

النصارى وظهور بولس على مسرح الأحداث فقد النصارى السيطرة على مجريات الأمور، ففي العالم الهلنستي انحرفت رسالة عيسى عن هدفها الأساسي بالكامل وحلت محلها ديانة غامضة من صنع بولس، وثم كان على العالم الانتظار ستة قرون لإعادة الأمور إلى نصابها بظهور الإسلام .

٧- مجيء الملكوت:

تمّ دخول عيسى "المظفر" إلى القدس -كما يحلو للكنيسة أن تصفه- بعد معجزة أرغفة الخبز في الجليل ببعض الوقت، وممّا يلفت النظر في هذا الحدث نقطة ذات شقين: أولاً: أن دخول القدس تم بعد أن توارى عيسى من أنظار ثوار الجليل الخمسة آلاف الذين حاولوا تنصيبه ملكاً، بمعنى أن الذي رفض من الجماهير تنصيبه ملكاً لا يدخل القدس بهذه الصفة، وثانياً: أن عيسى تعمّدَ أن يدخل القدس وهو يركب حماراً -وليس حصاناً- مما يعني أنه لم يأتِ فاتحاً لتأسيس مملكة دنيوية[١٠] ، ومع ذلك توهّمت الجماهير أنه المخلّص النبي المنتظر، فتجمع الناس حوله وجعلوا يهتفون: (مباركة مملكة أبينا داوود الآتية باسم الربّ) (مرقس ١١/٩-١٠)، و (خلّصنا يا ابن داوود) (متّى ٢١/٩)، ذلك بالرغم من نفيه القاطع أن يكون ابناً لداوود (مرقس ١٢/٣٥-٣٧)، (متّى ٢٢/٤١-٤٥)، (لوقا ٢٠/٤١).

أراد عيسى بدخوله القدس على حمار أن يفهم اليهود أنه لم يأتِ فاتحاً، أراد منهم أن يتخلصوا من الأوهام، ولينذرهم أنهم يجلبون الدمار إلى أنفسهم بعقليتهم العنيدة وسلوكهم الطائش، وهي الرسالة نفسها التي حاول إيصالها لعقولهم يوم اجتمع عليه في الجليل خمسة آلاف من الثوار فأمرهم بالجلوس وأطعمهم خبزاً وسمكاً، وزيادة في الإيضاح فإنه بعد أن دخل القدس لم يزد على أن ذهب إلى المعبد فنظر حوله ثم غادر مع الحواريين الاثنا عشر (مرقس ١١/١١)، فلم يكن دخوله إلى القدس سوى بادرة رمزية توحي بالسلام وليس بالحرب.

كان اليهود يعتقدون أنّ مملكة الله على الأرض وشيكة الوقوع، وأنها ستكون مملكة خاصة بهم، وأكثر من ذلك ظنّوا أنّ بإمكانهم الإسراع بتحقيقها بجهودهم الخاصة، و على النقيض من أوهامهم كان عيسى يعلم علم اليقين أن الوقت لم يحن لقيامها، ولذلك أمر الناس أن يدفعوا الضريبة لقيصر (مرقس ١٧/١٢)، ولما دخل المعبد قلب موائد المرابين العاملين فيه (مرقس ١١/١٥) في إشارة منه أن القدس بكاملها بما فيها المعبد ستنقلب رأساً على عقب إن استمروا على فسادهم، وإن لم يصلحوا شؤون حياتهم وممارساتهم اليومية، ومن ذلك مثلاً أن الصيارفة الذين قلب موائدهم في المعبد كانوا يبتزون الفقراء بتقاضي الربا الفاحش.

لا بد أنّ عيسى كان موقناً أنّ أية ثورة ضد الرومان لن تكون فقط عديمة الجدوى ولكن ستكون لها عواقب وخيمة جداً، وما لم يتخلّى اليهود عن معارضتهم المسلحة لروما فسيدمر الرومان القدس ومعبدها، لأن الأمّة التي نخر فيها الفساد واستشرى، لا يمكن أن تأمل أن تكون سيدة نفسها، قال عيسى جواباً على سؤال أحد الحواريين: (أترى هذه الأبنية العظيمة؟ لا يُترك فيها حجر على حجر لا يُنقض) (مرقس ١٣/٢)، وليس من شك أنّ عيسى بثاقب نظره النبوي كان يعلم مقدّماً إصرار اليهود على إنكار بعثته، وبالتالي الدمار الذي سوف يحل ُبهم (متّى ٢٤/٢).

كانت قناعة عيسى أن اليهود كأمة لا يصلحون للعب دور في مملكة الله القادمة، قال لهم: (أيها الجيل الفاسق عديم الإيمان، إلى متى أبقى معكم؟ وإلى متى أتحمّلكم؟) (لوقا ٩/٤١)، وأيضاً: (قال لهم عيسى: لو كان الله أباكم لأحببتموني لأني جئت من قِبَله، هو أرسلني، لماذا يبدو كلامي غامضاً لكم؟ لأنه ليس باستطاعتكم سماع ما أقول، لقد جعلتم من إبليس أباً لكم فتتبعوه وتنفذوا شهواته) (يوحنا ٨/٤٢-٤٤)، وأيضاً: (يا جيل الأفاعي، وقد تأصّل الشر فيكم، كيف يمكن أن تنطقوا بالصالحات) (متّى ١٢/٣٤)، وقال أيضاً: (أيها القدس يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها) (متّى ٢٣/٣٧)، وقبل عيسى

وقف إرميا على باب المعبد وأعلن لهم: (أتسرقون، وتقتلون، وتزنون، وتحلفون كذباً، وتحرقون البخور لآلهة الوثنية بعل، وتتبعون آلهة أخرى ليس لكم بها علم، لقد صار المعبد وكراً للصوص) (إرميا ٧/٩-١١)، أصطفان الشهيد وهو نصراني من القدس قال لمجلس الكهنة القضائي Sanhedrin أثناء محاكمته: (يا قساة الرقاب، غير مختوني القلوب والآذان، كما كان آباؤكم كذلك أنتم، أيّ الأنبياء لم يضطهده آباؤكم؟ حتّى أنهم قتلوا الذين تنبؤوا بقدوم البارّ) (أعمال الرسل ٧/٥١-٥٢).

وفي كلّ ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨/٥]. ولَعْن داود لهم مذكور في كتبهم (المزامير ٧٨/٢١-٢٢، ٣١-٣٣، وغيره).

كما ورد في القرآن الكريم اختلاف بني إسرائيل في كتابهم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠/١١]، ومن شكهم المريب في التوراة أن طائفة من كبار رجال الدين فيهم -وهم السدوقيون- لا يؤمنون بالآخرة (متّى ٢٢/٢٣)، (مرقس ١٢/١٨)، (لوقا ٢٠/٢٧)، (أعمال ٢٣/٨) حتّى أن الكتاب المقدس اليهودي برمّته -باستثناء سفر دانيال (١٢/٢)- ليس فيه إشارة للآخرة، وأما الكلمة التي سبقت من الله تعالى فهي أنه لا يعاجلهم بالعقوبة بل يعطي الناس فرصة للتوبة ويمهلهم ليوم الدين .

غير أنّ إنكار الآخرة عند اليهود لم يقتصر على طائفة السدوقيين منهم، بل تجاوزه إلى كبار فلاسفتهم ومنهم سبينوزا! وقد أشار القرآن الكريم إلى إنكار الآخرة عندهم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَؤُلاَءِ لَيَقُولُونَ ۞ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥/٤٤]، ولا شك أن اليهود تعاموا عن مفهوم الآخرة بسبب ماديتهم المفرطة، لذا بقي شعورهم الديني سطحياً طغت عليه عصبيتهم القومية الشوفينية المفرطة وتهالكهم على الدنيا[١١].

كان الغرض من بعثة عيسى عليه السلام ذا ثلاثة أوجه، أولاً: أن اليهودية، لانغماسها في الخرافات والوثنية والفساد، بحاجة ماسة لإصلاح ديني واجتماعي، وقد علق على هذه النقطة توماس جفرسون ثالث رئيس للولايات المتحدة فكتب: (كان عيسى يشعر بانحراف أجداده -اليهود- عن مفهوم الله وعن الأخلاق، فبذل جهده لإعادتهم إلى الوحدانية الصحيحة وإلى مفاهيم أصح عن أوصاف الله الحسنى، ولإصلاح معاييرهم العقلية ومقاييسهم الأخلاقية ولتطبيعهم على العدالة والإنسانية[١٢].

وهنالك سفر يهودي يسمى سفر المكابيين الثاني ٢ Maccabees يذكر أن معبد القدس تحول إلى معبد يوناني - هلنستي - لعبادة الإله زوس Zeus كما كانت تقام فيه الاحتفالات على شرف الإله ديونيس Dionysus، وقد استمر تاريخ اندماج اليهودية مع الطقوس الوثنية لقرون عديدة حتى اتسم التاريخ اليهودي بانتكاسات متكررة نحو الوثنية[١٣]، وفي هذا الموضوع يذكر القرآن الكريم خطاب النبي إلياس إلى بني إسرائيل قائلاً لهم: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ۝ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ۝ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٥/٣٧-١٢٧]، وبعل في العهد القديم إسم جنس لآلهة الوثنية، وبحسب (سفر الملوك الأول الفصول ١٧-١٢٧) فقد بُعث النبي إلياس - إليجا - إلى بني إسرائيل في عهد الملك آحاب ملك شمال إسرائيل، ثم تلاه النبي اليسع - إليشا - (سفر الملوك الثاني الفصول ١-٢)[١٤].

ثانياً: كان على عيسى أن ينذرهم بالكارثة الحتمية إن أصروا على عنادهم، وتمردهم، دون إصلاح نفوسهم ومجتمعهم، وثالثاً: كان عليه أن يعلن لهم مملكة الله القادمة: (لذلك أقول لكم أنّ مملكة الله ستُنزع منكم وتُعطى لأمّة تؤتي ثمارها) (متّى ٤٣/٢١)، لقد بدا أن اليهود فسدوا لدرجة لا يُرجى صلاحُهم، فوجبَ أن تُنزع منهم رسالة التوحيد وتُعطى لبني عمومتهم من بني إسماعيل بحسب العهد القديم نفسه (سفر التثنية ١٨/١٨-١٩)، لقد فشلوا في فهم

رسالة عيسى كما فشلوا في الاستجابة لدعوته، وكان ضلالهم بحيث لا تُرجى عودتهم حتى قال لهم عيسى: (هنالك أمور كثيرة أود قولَها لكم ولكن لا تستطيعون احتمالها الآن) (يوحنا ١٦/١٢).

وهكذا أمر عيسى بني إسرائيل أن يتنحوا عن مهمتهم جانباً، فقال لحواريه أن يأمروهم بالجلوس: (ليجلس رجال بني إسرائيل) (يوحنا ٦/١٠) فقد انتهى دورهم، لقد فشا فيهم الانقسام والتشرذم، والفساد، والقيم المادية، وفشت فيهم عادات الوثنية، ودأبوا على رفض الأنبياء وقتلهم، فماذا تفيدهم الثورة المسلحة سوى الدمار؟ (١٥)، كان من المستحيل تحقق مملكة الله على أيديهم وهذا جوهر خطاب عيسى لهم، جاءهم كآخر الأنبياء العظام لبني إسرائيل لإصلاحهم وإعطائهم الفرصة الأخيرة للعودة إلى الصواب، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَولاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ [طه: ٢٠/١٣٤].

جاءهم عيسى بوصفه المسيح-النبي ولم يأتِهم بوصفه النبي-الملِك ذي السلطتين الدينية والدنيوية، جاء لإنذارهم بما سوف يحل بهم إن لم يستمعوا إليه، وليبشرهم بمملكة الله القادمة التي لن تتحقق على أيديهم (متّى ٢١/٤٣)، غير أن رسالته لقيت آذاناً صمّاء، ولم يكن عيسى أول نبي يرفضه بنو إسرائيل، قال لهم موسى من قبل: (كنتم تعصون الربّ منذ عرفتكم) (سفر التثنية ٩/٢٤).

ولم يكتفِ اليهود برفض عيسى المسيح بل إنهم وصموا النصارى رسمياً بالهرطقة، (جاء عيسى إلى خاصّتِه، ولكن خاصّته لم تقبله) (يوحنا ١/١١)، أما المسيحية الهلنستية التي أسسها بولس في العالم اليوناني-الروماني فلم توصم بالهرطقة كونها بعيدة كل البعد عن اليهودية.

٨- ابن الإنسان:

يدّعي معلقو الكنيسة، بلا استثناء تقريباً، أن عيسى عليه السلام اتخذ لنفسه لقب ابن الإنسان انطلاقاً من تواضعه وحلمه، مع أنّ أكثرهم يعلمون حق العلم أن الأسفار اليهودية المقدسة تنبأتَ بابن الإنسان ذي السلطة الفائقة لحماية شعبه وهزيمة أعدائه، وليس شخصاً ضعيفاً لا يجد مكاناً يضع عليه رأسه، ولا شخصاً يُسلّم إلى أيدي الرجال ليقتلوه حسب زعمهم! كان عيسى يعلم تماماً أنه لم يكن ابن الإنسان المنتظر، ولو كان اتخذ اللقب لنفسه كما تحاول الأسفار أن تُلمِّح لفقد مصداقيته أمام سامعيه المتعلمين، ولكن على النقيض فهو لم يهدف لإحياء مملكة داوود، وكان سامعوه اليهود وخاصة الكتبة والأحبار منهم يفهمون تماماً لِمَن كان يشير في كلامه عن ابن الإنسان، وهو لم يخترع هذا اللقب من عنده ولكن استعاره من الأسفار اليهودية وخاصة سفر دانيال، وسفر حزقيال (حزقيال ٢٦/١، ٢/١٠)(١٥). ولهذا السبب لم يوجه إليه الأحبار سؤالاً واحداً عن هوية ابن الإنسان مع كثرة متابعتهم له بالأسئلة المتنوعة(١٦).

وعندما تكلم عيسى عن صعوده إلى السماء سأله سامعوه اليهود: (شريعتنا تقول أن المسيح يستمر إلى الأبد، فماذا تعني بقولك إنّ ابن الإنسان يجب أن يُرفع؟ وأيّ ابن إنسان هذا) (يوحنا ٣٤/١٢)، ويحتمل أنّ الأسفار حرفت هذا السؤال باتجاه عقيدة الكنيسة لإعطاء الانطباع للقارئ أنّ المسيح هو ابن الإنسان، أو قد يكون السبب الخلط في أذهان الناس، كما سبق أن رأينا، بين شخصية المسيح وشخصية المنقذ، فالسؤال لا يؤدي المعنى إلا لو استُبدلت كلمة "المسيح" بكلمة "المنقذ" بمعنى أن المنقذ وابن الإنسان مسمّيان لشخص واحد، وفي العقيدة اليهودية أن المنقِذ أي رسالته تبقى إلى الأبد من دون تحريف كما هي الحال في القرآن وحده، وعلى ذلك يكون معنى تساؤل الجمهور: كيف يمكن لرسالة ابن الإنسان ألاّ تبقى معنا سالمة إلى الأبد؟

يستحيل أن يكون عيسى أسبغ على نفسه لقب ابن الإنسان أو لقب المنقذ، لأنه بكل بساطة لم يكن قادراً على تحقيق أدنى مهمة من المهام التي كان على ابن الإنسان تحقيقها، فلو صرّح عيسى أنه ابن الإنسان وفي الوقت نفسه حثّ سامعيه على دفع الضريبة لقيصر (مرقس ١٢/١٧) ثم صرّح أنه لم يكن لديه مكان يضع عليه رأسه (متّى ٨/٢٠) وأنّ الخلاص يجب تأجيله لأجل غير مسمّى، لو قال كل ذلك لأوقع نفسه في تناقضات ضخمة.

جاء أحد علماء اليهود من الكتبة إلى عيسى وقال له: (يا معلّم، سأتبعك أينما تمضي، فأجاب عيسى: للثعالب جحورها، ولطيور السماء أعشاشها، أما ابن الإنسان فليس لديه مكان يضع عليه رأسه) (متّى ٨/١٩-٢١).

فلو كان عيسى هو ابن الإنسان كما يدّعون، وطالما أن كان لديه مكان لثلاثة عشر رأس -وهم اثنا عشر حواريّ بالإضافة لنفسه- فلا بد أنه كان يستطيع إيجاد مكان للرابع عشر، أو كان يستطيع السماح للكاتب الالتحاق بأتباعه السبعين الآخرين (لوقا ١٠/١)، خاصة أن السائل كان كاتباً متعلماً ليس من شك في إخلاصه، ولكن عيسى لاحظ أن الأمور ملتبسة على السائل إذ ظنّه أنه هو ابن الإنسان المنتظَر المخلّص الذي يوشِك أن يحشد جيوشه لإلحاق الهزيمة بإمبراطورية روما، وإنشاء مملكة الله على الأرض، ولا بد أن عيسى بثاقب نظره تأكد من ضلال السائل فأجابه بلطف ولباقة أنّ مَن ليس عنده مكان يضع عليه رأسه لا يمكن أن يكون ابن الإنسان القوي المظفر! فلم يشأ أن يجرح مشاعره ولا أن يكون فظّاً معه وإنّما أراد تخليصه من الأوهام بلباقة[١٧].

ولو كان صحيحاً أن عيسى قال: (ابن الإنسان سيتعرض للغدر من قِبل الأحبار ويُسلّم إليهم كي يحكموا عليه بالموت ويسلّمونه إلى الناس فيهزأوا به ويجلدوه ويصلبوه) (متّى ٢٠/١٨) لاقتضى ذلك السخرية من كل الآمال والتطلعات اليهودية، ولكن الأصح أن نفهم من أقوال عيسى نفياً قاطعاً لمن ظّن

أنه ابن الإنسان، ويجب فهم عبارة متّى السابقة على النحو التالي (لو كنتُ أنا ابن الإنسان فكيف يمكن أن يُغدر بي وكيف يمكن أن أُسلّم إلى الأحبار ليحكموا عليّ بالموت؟!) فقد كانت توقعات اليهود لابن الإنسان أن يكون له المجد والملكوت الخالد بحيث يتبعه الناس من كل الأمم والشعوب (سفر دانيال ٧/١٣-١٤).

وزيادة في التوضيح حذّر عيسى حوارييه ألاّ يخبروا أحداً أنه المخلّص، ولتأكيد ذلك سألهم: (مَن يظنّ الناس ابنَ الإنسان؟) (متّى ١٦/١٣)، (مرقس ٨/٢٧)، (لوقا ٩/١٨). وبالطبع لم يكن عيسى يشير لنفسه في هذا السؤال - كما تود الكنيسة أن توهم الناس- ولكنها الإشارة إلى المخلّص الذي يأتي بعد عيسى بستة قرون، (حينئذٍ حذَّر -عيسى- الحواريين ألاّ يخبروا أحداً أنه المسيح!) (متّى ١٦/٢٠)، (مرقس ٨/٣٠)، (لوقا ٩/٢١). وهذا التحذير الذي أوردته الأسفار لا يمكن أن يكون منطقياً ومعقولاً ولا صحيحاً إلاّ إذا وضعنا كلمة "المخلّص" مكان كلمة "المسيح"! فقد أخبرهم ألاّ يقولوا لأحد إنه المخلّص، وبعبارة أخرى إن المخلّص هو ابن الإنسان.

إذ من المستحيل التصديق أن عيسى لم يكن يريد للناس أن تعرف أنه المسيح، لأنه كان هو المسيح المنتظَر حقّاً، وكل بعثته ورسالته كانت بصفته المسيح المنتظَر العَلَم، ولكن عيسى كان حريصاً ألاّ يظن أحد أنه المخلّص لأنه لم يكن النبي المقاتل كما ظنّه بعضُ معاصريه، وهو لم يكن يخطط ليخلف داوود في ملكِه ولا لقيادة شعبه ضد إمبراطورية روما (أعمال ١/٦)، ولم يقل بشكل مباشر أو غير مباشر أنه النبي المنتظَر ذو السلطة الدنيوية[١٨].

وبالرغم من كل تحذيرات عيسى للحواريين ألاّ تلتبس عليهم الأمور فقد بقي بطرس متوهّماً أن عيسى هو فعلاً النبي المنتظر المقاتِل مما اضطر عيسى لتوبيخه: (فالتفت عيسى وقال لبطرس: اذهب عني يا شيطان، إنك تسيء إليّ) (متّى ١٦/٢٣)، (مرقس ٨/٣٣)[١٩].

ومرة أخرى في حديقة جتسيميني بالقدس عندما أوشكوا أن يقبضوا على عيسى كما تروي الأسفار: (استلّ بطرس سيفه وضرب به خادم رئيس الكهنة فقطع أُذنه، فانتهره عيسى قائلاً: ضع السيف جانباً فإن كلّ مَن يأخذ السيف يهلك بالسيف) (متّى ٥٢/٢٦)، وهكذا بصريح العبارة أخبر عيسى تلميذه بطرس أن ليس للمسيح أن يكون النبي المقاتل.

وعندما سُئل عيسى أثناء المحاكمة إن كان هو المسيح أجاب: (أنا هو، وسوف ترون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً في سحاب السماء) (مرقس ٦٢/١٤)، وهذه العبارة ملفتة للنظر من حيث أن عيسى صّرح بصيغة المتكلم أنه المسيح شخصياً ولكن عندما انتقل كلامه إلى ابن الإنسان صار فجأة بصيغة الغائب فهو قطعاً لم يقصد نفسه، وإنما أنذرَ رئيس الكهنة بما سيكون من شأن ابن الإنسان المنتظَر الذي سيأتي بعده لتبرئته من تهم أعدائه، وللفصل بينه وبين كريستوس بولس الميثولوجي.

وهنالك نقطة أخرى ملفتة للنظر وهي أن عيسى أطلق على ابن الإنسان لقب سيد يوم السبت: (فإنّ ابن الإنسان سيد يوم السبت) (متّى ٨/١٢)، (مرقس ٢٨/٢)، والمعروف أن قداسة يوم السبت ذات أهمية خاصة في شريعة موسى فالوصية الرابعة تأمر بني إسرائيل أن: (اذكر يوم السبت ليبقى مقدّساً) (سفر الخروج ٨/٢٠)، ولكن الأحبار اشتطّوا جداً في قداسة السبت لدرجة أن كان على الرجال والنساء والأطفال والعبيد، وحتى الحيوانات، أن تمتنع عن أي عمل فيه تحت طائلة عقوبة الموت، فلا طبخ ولا مشي وحتى أعمال الخير ممنوعة يوم السبت، وحتى أن الفريسيين وبّخوا عيسى لأنه شفى رجلاً بمعجزة يوم السبت (متّى ١٠/١٢)، ومع أنّ عيسى لم يلتزم بالتفسيرات الحرفية لتعاليم السبت الشديدة القسوة لكنه في الوقت نفسه لم يكن يفكر في إلغائه ولم يكن ليغامر بإلغائه في وجه المعارضة اليهودية، ولم يتم إحلال الأحد محل السبت إلاّ من قبل الكنيسة بعد عيسى بأجيال عديدة، في حين أن النصارى استمروا

بالعطلة يوم السبت،كما استمرت الكنائس الشرقية بالعطلة يومي السبت والأحد معاً حتى أواخر القرن الرابع.

فلو كان عيسى سيداً ليوم السبت لكان ألغاه نهائياً، أو لعدّل من قوانينه الصارمة لكنه لم يفعل أياً من الأمرين، وكان من المستحيل عليه أن يفعل ذلك، ولا شك أن اليهود الذين سمعوه يقول: (فإنّ ابن الإنسان سيد يوم السبت) (متّى ١٢/٨) كانوا يعرفون تماماً لِمَن كان يشير في كلامه إذ كان يقصد النبي المنتظَر المخلّص سيداً ليوم السبت، ولكن محررو الأسفار ومنقّحوها عدّلوا عبارة عيسى -كما عدّلوا الكثير غيرها - لتبدو إشارته لابن الإنسان بصيغة الغائب غامضة وجدلية وغير مفهومة، فمثلاً عندما تكلّم عن الأحبار الذين يدنسون الهيكل قال -بحسب الأسفار-: (ولكن أقول لكم، ها هنا مَن هو أعظم من الهيكل) (متّى ١٢/٦)، ولا يمكن لهذا القول أن يكون ذا معنى إلاّ إذا كان بصيغة (سوف يكون هاهنا مَن هو أعظم من الهيكل) فعندئذٍ فقط يكون الكلام مفهوماً للسامعين ومقبولاً منهم[٢٠].

وبالفعل تحققت نبوءة عيسى وجاء ابن الإنسان إلى الهيكل بعد ذلك بستة قرون، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١٧/١]، ولم يقتصر الأمر على زيارة النبي المنتظر للمسجد الأقصى ليلة إسرائه من مكة إلى القدس بل تبع ذلك الفتوحات الإسلامية المذهلة في عهد خلفاءه مِن بعده، فبعد أربع سنوات فقط من وفاة النبي دخل المسلمون القدس وحرروها من نير روما وأنشؤوا فعلياً وليس رمزياً مملكة الله على الأرض التي طالما صلّى عيسى المسيح من أجلها بقوله: (ليأتِ ملكوتك) الملكوت الذي لا يُعبد فيه إلا الله وحده.

٩- ابن الإنسان الذي تنبّأ به عيسى، بحسب المنظور الإسلامي:

نسبوا إلى عيسى القول: (لم يظهر ممّن ولدتهم النساء مَن هو أعظم من يحيى المعمدان، ولكن الأصغر في مملكة الله أعظم مـن يحيـى) (متّـى ١١/١١)، (لوقـا ٧/٢٨)، وقد أعيت هذه العبارة معلقي الكنيسة لقرون طويلة وحيّرتهم، فمنهـم مَن قال هيَ مقارنة بين مستقبل النخبة وبين عَظَمة يحيى، وآخرون فهموا مملكـة الله بأنّها تشمل أرواح المؤمنين بعيسـى بالمقارنـة مع حيـاة يحيـى علـى الأرض، وآخرون اعتقدوا أن عيسى هو الأصغر لجهة كونه عبد الله، وعلى أيـة حـال لا يمكن القبول أنّ عيسى كان يقصد نفسه، لأن مملكـة اللـه لـم تتحقـق في أيامـه، وحتى لو تحققت -كما يزعم البعض- لاستحال أن يكون هو أصغر مَن فيها إذ يكون عندئذٍ مؤسسها.

يكمن مفتـاح تفسـير هـذا القـول في كلمـة "الأصغـر"، ففـي اللغـة الآراميـة والعربيـة والعبريـة تحمـل الكلمـة معنـى "الأخـير زمنيـاً" أو الأصغـر في مجموعـة مُسَلسَـلة[٢١]، والترجمـة الآراميـة السـريانية للعهـد الجديـد، - الطبعـة البسـيطة -Peshitta، تستخدم كلمة "زغيرا" التي تقـابل كلمـة "صغـير" بالعربيـة بمعنـى الأصغر سنّاً، ولا بدّ للكنيسة أن تعترف أن عيسى لم يكن آخر الأنبياء وبالتالي فهو ليس "أصغرهـم زمنياً"، فمّن يكون إذن آخر الأنبياء وخاتمهم سـوى محمـد؟ إنه قطعاً وبلا جدال آخر الأنبياء فهو بالتـالي أصغرهـم زمنيـاً، ومـع ذلـك فهـو أعظمهم مقارنةً مع أيّ منهم، إنه بنيامين الأنبياء وفي الوقت نفسه أعظمهم على الإطلاق[٢٢]، لأن العمل الضخم الذي أنجزه أعظـم مـن الأعمـال التـي قـام بهـا الأنبياء قبله مجتمعين[٢٣].

يقول كتاب الرؤيا السيبيلية Sibylline Revelation الذي كُتب بعد سقوط القدس بالعام (٧٠م) أن ابـن الإنسـان سـيظهر ليهـزم إمبراطوريـة رومـا وينقـذ المؤمنين بالله الواحد الأحد، وقد تم تأليف الكتاب بعد ثمانين عاماً علـى الأقـل من وفاة المسيح، ثم تحققت الرؤيا السيبيلية بعد كتابتها بستة قرون بمجيء النبـي

الأحمد خاتم الأنبياء ابن الإنسان المظفر الذي أزاح نير الروم عن المؤمنين بإله واحد، عندها قام المسلمون بتبرئة النصارى أتباع عيسى المسيح من تهم كنيسة بولس وأتباعها، وتهم نيقية، وفنّدوا مقرراتها ومقررات المجامع المسكونية الأخرى، ثم جاءت الضربة القاضية لبيزنطة عام (١٤٥٣م) بسقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح(٢٤).

والواضح أنه ما لم يأخذ البحّاثة المنظور الإسلامي والقرآن دليلاً لهم في أبحاثهم، وبحيث يكون النبي الأحمد موضوع النبوءات، فستكون نتائج محاولاتهم لمعرفة ما تبقى من الحقيقة في الكتاب المقدس، ومعرفة الحقيقة عن عيسى المسيح، تكون نتائجها سلباً، فالعديد من الأبحاث الحالية ركزت جهودها على الكتاب المقدس بشقيه العهد القديم والعهد الجديد دون أخذ الوحي القرآني بالاعتبار -إلا قليلاً منهم- وبالتالي انتهت أعمالهم بشيء من المرارة والكثير من الشك، مع أن أخذ المعلومات القرآنية بالاعتبار في مثل هذه الدراسات هو السبيل الوحيد لغربلة المتناقضات من الكتاب المقدس، ولغربلة المعلومات الأصيلة من الزائفة، وعندها فقط يمكن لما تبقى من الحقيقة في الكتاب المقدس أن يُفهم بحقيقته، ويكون ذات مغزى وخاصة أقوال عيسى المسيح.

لقد أخبر عيسى سامعيه أن عبء الرسالة الإلهية سيُنزع من سلالة داوود، قال: (كيف يزعم الكتبة الأحبار أن المخلّص-يجب أن يكون- ابن داوود؟ في حين أنّ داوود نفسه يدعوه سيّدي، فكيف يكون ابناً له؟) (مرقس ١٢/٣٥-٣٧)، (متّى ٢٢/٤١-٤٥)، (لوقا ٢٠/٤١)، وهذا القول لعيسى يؤدي معنيين متلازمين: أولاً: أنّ المخلّص لن يكون من سلالة داوود، وثانياً: أنّه على عكس ما يظنّون فإن عيسى نفسه ليس المخلّص رغم أنهم أعلنوه ابناً لداوود.

أخبرهم عيسى بلا إبهام وبكل وضوح أن عبء رسالة التوحيد سوف يُعطى لأمة أخرى (متّى ٢١/٤٣)، وتنبأ لشعبه أنّ ابن الإنسان سيكون النبي المنتظر المبعوث من إخوتهم حسبما ورد في سفر التثنية بالعهد القديم بقوله

تعالى مخاطباً موسى: (سوف أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم، مثلكَ، وأضع كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما آمره به، ويكون أن الإنسان الذي لا يستجيب لكلامي الذي يتكلم به، فسوف أحمّله العواقب) (تثنية ١٨/١٨-١٩).

كان اليهود شعب الله المختار لحمل رسالة التوحيد حتى بعثة آخر أنبيائهم العظام عيسى المسيح الذي كان فرصتهم الأخيرة للإصلاح والتوبة، فلما رفضوه خسروا بالضرورة وظيفتهم كأمة مختارة لحمل عبء الرسالة، وانتقل هذا العبء بعدهم إلى إخوانهم العرب من بني إسماعيل فأصبحوا بدورهم الشعب المختار، أي الشعب الذي اختاره الله تعالى لحمل رسالة التوحيد، هذا كل ما في الأمر، إذ ليس في التعبير أي معنى من معاني العنصرية أو الأفضلية أو الفوقية على الأمم الأخرى، كل ما في الأمر أن "الشعب المختار" حُمّل عبء رسالة التوحيد فأصبح في مرتبة عليا من المسؤولية وبالتالي المحاسبة، ثم صار هذا المعنى عاماً يشمل جميع المسلمين من جميع الأعراق والأصول.

وعن هذه النقطة بالذات نقرأ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٠/١٤].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ﴾ أيها العرب والمسلمين ﴿خَلائِفَ فِي الأَرْضِ﴾ ببعث خاتم النبياء والرسل فيكم ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد القرون الأولى، والخلائف جمع خليفة، وهو من يخلف غيره في الشيء، أي أن الله تعالى بشّر المسلمين أنهم يخلفون الأمم التي كانت قبلهم كأمم اليهود والفرس والروم والوثنية، والآية من معجزات القرآن لأنها إعلام بالغيب الذي تحقق، واستخدام الفعل الماض بقوله تعالى ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ للتأكيد أي هو محقق لا محالة، وقد علل هذا الاستخلاف بقوله جلّ ثناؤه: ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ والمعنى أن هذه الخلافة جعلها تعالى

لهم لإقامة الحق والعدل في الأرض، ولتطهيرها من الشرك، لا لمجرد التمتع بالملك والحكم، فأعلمهم سبحانه أن أمر بقاء خلافتهم منوط بصلاح أعمالهم، وأنه تعالى ناظرٌ فيها، حتى لايغتروا ويظنوا أن الملك باقٍ لهم لذواتهم أو لجنسهم، أو لنسبتهم إلى نبيه ﷺ، ولا أنهم مستثنون من سننه تعالى في خلقه، فيقدر إقامة هذه السنن يكون الملك والسلطان لهم(٢٥).

أما اليهود فقد فشلوا من حيث اعتقادهم أنهم الشعب المختار تفضيلاً على غيرهم من الناس، ولكونهم من سلالة يعقوب وإسحاق وإبراهيم، عليهم السلام، ثم كان من ضلالهم أن اعتقدوا أيضاً أن رسالة التوحيد خاصة بهم فقط دون غيرهم، وأن النبوة محصورة بهم بغض النظر عن انزلاقهم في الفساد وانحرافهم نحو الوثنية، ثم إنهم أفسدوا الكتاب المقدس بالتغيير والحذف والإضافة، فلم يستفيدوا من سُموّه ولا ارتفعت ممارستهم إلى مستواه، وفي ذلك نقرأ قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً﴾ [الجمعة: ٦٢/٥]، وزادوا على ضلالهم أن رفضوا مسيحهم المنتظر، وأتبعوا بأن رفضوا النبي المنتظر الأحمد خاتم الأنبياء والرسل المشار له في كتابهم (التثنية ١٨/١٥-١٨).

وقد أكّد القرآن الكريم نبوءة عيسى المسيح بالنبي الأحمد: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦١/٦].

وهذا هو بالضبط معنى الإنجيل(٢٦)، لأن كلمة الإنجيل Evangile معناها البشارة السارة أي البشارة بقدوم المخلّص المنقذ من الضلال خاتم الأنبياء والرسل.

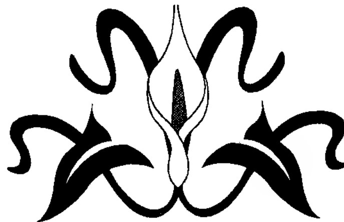
وهكذا بُعث النبي الأحمد "ابن الإنسان" بعد المسيح بستة قرون فأعاد الأمور إلى نصابها فيما يتعلق ببعثة المسيح، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤/٦١]، والمعنى أنه تعالى أيّد ، بظهور الإسلام، الذين آمنوا بعيسى -وهم النصارى- فظهرت رسالة عيسى على حقيقتها!

ثم كانت بعثته ﷺ عالمية للناس جميعاً بلا استثناء لقوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [البقرة: ١٤٣/٢] فالرسول قدوة لأمته وأمته قدوة للبشرية، وذلك مبرر وجود الأمة، وليس السيطرة ولا الهيمنة ولا العصبية الجاهلية.

غير أنّهم تمسّكوا بالاعتقاد أنّ الرسالات السماوية ووظيفة النبوة حكر لهم، وخاصة بهم دون غيرهم من البشر، وقد فنّد القرآن الكريم دعواهم هذه بقوله تعالى: ﴿ لِئلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩/٥٧]، والفضل المشار له في هذه الحالة هو الوحي الإلهي .

مراجع الفصل السابع:

1. (McGinn AntiChrist p.36,289), (Funk *HTJ* p. 90ff), (Seminar TFG p.76-77)
2. (see Vermes *JTJ* p. 131,134)
3. (see Vermes *JTJ* p. 137)
4. (Maccoby *TMM* p. 176), (Schonfield TMM p.8)
5. (see Wilson *JAL* p. 107)
6. (Schonfield *TPP* p.81)
7. (Dawes HJQ p.60 Reimarus)
8. (see Wilson *JAL* p.161-163)
9. (see Vermes *JTJ* p. 155)
10. (Wilson *JAL* p. 176-177)
11. (Izetbegovic, IEW p. 188), (Sanders *HFJ* p.44), (Asad TMQ p.763)
12. (Sanders *HFJ* p.7, from the Jefferson Bible), (Dawes HJQ p.68)
13. (Rhymer ATB p.39,49), (Freke & Gandy TJM p.177-178)
14. (Asad TMQ p.689)
15. (Wilson *JAL* p. 187-188)
16. (Dawud *MTB* p.171), (McGinn AntiChrist p.289 n.10)
17. (Dawud MTB p. 175-176)
18. (Vermes JTJ p. 152ff), (Dawes HJQ p.138 Wrede)
19. (see Vermes JTJ p. 147) (see also Halsell PAP p.61)
20. (Dawud MTB p. 176)
21. (see Vermes JTJ p. 32-33)
22. (Dawud, MITB p.128)
23. (Hart, TOH)
24. (Schonfiels MOM p.59,112-113), (Dawud MTB p. 173)
25. (Al-Manar AM on Qur'an 10/14)
26. (Dawes HJQ p.70 Reimarus)



الفصل الثامن

الصلب؟؟

الفصل الثامن

الصلب؟؟

﴿وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف ١٨/٢٩].

١- البراهين:

لم يكن البروفسور فنك Funk مؤسس "ندوة عيسى" أول من ألقى الشكوك على قصة صلب المسيح عليه السلام، إذ كتب: (إن قصة الصلب ليست من الأمور المقطوع بها)[١]، وكتب أيضاً: (إن قصة إلقاء القبض على المسيح ومحاكمته وإعدامه هي في معظمها من نسج الخيال[٢]، وكتب: (إن رواية مرقس عن الآلام التي تصل ذروتها بإلقاء القبض على عيسى ومحاكمته وصلبه هي من نسج خياله القصصي) [٣]، وأيضاً: (إن قصة الصلب لا تليق أن تحدث للمسيح إطلاقاً) [٤].

وكتب ويلسون A.N.Wilson: (ليس هنالك من براهين حقيقية وصادقة لقصة اعتقال عيسى وإعدامه) [٥]، وكتب أيضاً: (تذكر الأسفار الثلاثة الأولى أن عيسى أسس طقس القربان المقدس خلال أو بعد الوجبة التقليدية لعيد الفصح اليهودي، فلو صحّ ذلك لكانت كل تفاصيل القصة: الاعتقال والمحاكمة والصلب من نسج الخيال، إذ لا يعقل أن يقوم اليهود بخرق أكثر أعيادهم قداسةً لأجل محاكمة شخص) [٦].

أما البروفسور بورتون ماك Burton Mack فليس لديه أي شك بخرافة القصة حيث كتب: (أما بالنسبة لقصة الصلب والقيامة، فإنّ مرقس -أول مَن كتب القصة- أخذ الفكرة الأساسية من أسطورة كريستوس غير أنه تجرّأ بأن تخيّلَ

كيف يمكن أن تبدو قصة الصلب والقيامة لو كتبها تاريخاً فعليّاً تمّت أحداثه في القدس، وهو ما كانت الأسطورة ترفضه، وهكذا يمكننا أن نفهم قصة مرقس باعتبارها دمجاً لأحداث عيسى الحقيقي مع أسطورة كريستوس) وكتب: (كافة القصص في الأسفار الأخرى تبدأ من مرقس فلا يغير أحد من المؤلفين بعد مرقس أساس القصة) وأيضاً: (ثم بعد ذلك صار المسيحيون يتخيلون قصة مرقس الخيالية كما لو كانت تاريخاً واقعاً) [٧].

وكتب البروفسور Geza Vermes ما يلي: (لم يكن النصارى يعتقدون بقصة "آلام" المسيح ولا بقصة "صلبه") و (إن أحداث محاكمة المسيح من قبل المحكمة اليهودية العليا بتهمة دينية، وصدور الحكم عليه ثم تصديقه من السلطة السياسية، كل هذه الأحداث ليست خارج نطاق الالتباس والريبة[٨].

وبخلاف الصلب وضع مؤلف أعمال الرسل على لسان بطرس قوله: (أنهم شنقوا المسيح على شجرة) (أعمال الرسل ٥/٣٠).

وفوق كل ذلك نلاحظ أنّه لا يوجد في سفر الأقوالQ ، ولا في سفر توما Thomasالمكتشف حديثاً، أي إشارة لا من قريب ولا من بعيد عن قصة الآلام والصلب، مع أنهما كُتبا في وقت مبكر أي حوالي ثلاثين عاماً قبل أول ما كُتب من الأسفار الأربعة ، فلا بدّ أنهما أقرب إلى الحقيقة فيما يتعلق بحياة عيسى من الأسفار القانونية الأربعة.

كانت رسالة شيث الكبير الثانية Second Treatise of the Great Seth من جملة المخطوطات التي تم اكتشافها في نجع حمادي بمصر بالعام (١٩٤٥م)، وقد ورد فيها على لسان المسيح ما يلي:

(لقد كان شخصاً آخر ...الذي شرب المرّ والخلّ، لم يكن أنا..، كان شخصاً آخر، شمعون، الذي حمل الصليب على كتفه، كان شخصاً آخر الذي وضعوا تاج الشوك على رأسه، في حين كنتُ مبتهجاً في الأعالي من فوق ... كان خطؤهم ... وكنتُ أضحك من جهلهم) (٥٦/٦-٢٠) [٩].

كما ورد أيضاً في مخطوطة "رؤيا بطرس "Apocalypse of Peter" المكتشفة أيضاً في نجع حمادي ما يلي:

(لقد رأيتُه، كما بدا لي في ظاهره، وهم يقبضون عليه فقلتُ: ماذا أرى؟ يا إلهي! هل أنتَ حقّاً الذي أخذوه؟ وهل يدقّون المسامير في قدميّ ويديّ شخص آخر؟ ومن هو هذا الذي فوق الصليب يضحك مبتهجاً؟ قال لي: هذا الذي تراه يضحك مبتهجاً فوق الصليب هو المسيح الحيّ، أما الذي يدقّون المسامير في يديه ورجليه فهو البديل، لقد ألحقوا العار بشبيهه الذي بقي بين أيديهم، فانظر إليّ، وانظر إليه!) (رؤيا بطرس ٨١/٤-٢٤)[١٠].

غير أن القرآن الكريم حسم التخبط واللغط في موضوع الصلب بقوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء ٤/١٥٧].

٢- قصص الآلام:

أما الأسفار المعتمَدة الأربعة، فحتّى لو قبلنا القصص الواردة فيها عن الصلب، على علاّتها، يبقى الكثير من النقاط مبهمة شديدة الغموض، إذ المفترض أن عيسى كان محتفِلاً مع حوارييه بعيد الفصح اليهودي ليلة الغدر به -كما يقولون-، وتحكي الأسفار الأربعة قصص الآلام والعناء والكَرَب المفترض أن تحمّله عيسى خلال تعذيبه، والسخرية منه، وصلبه حسب قولهم، وهي الأحداث التي بدأت الليلة التي سبقت وفاته (مرقس الفصل ١٤-١٥)، أو حتى قبل إلقاء القبض عليه ابتداء من الدخول "المظفر" إلى القدس (مرقس ١١/١-١٠)، ويحكي مرقس ما زعموه من هرب الحواريين بمن فيهم بطرس وتخليهم عن المسيح (مرقس ١٤/٢٧-٣١)، وقصة حديقة جيتسيميني حيث زعموا أن جميع الحواريين تخلّوا عن عيسى و لاذوا بالفرار، وهي القصة التي يناقضها القرآن الكريم تماماً بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا

مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران/٥٢]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآَمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف ١٤/٦١]، وهذا من نبل القرآن الكريم أنه يصور الحواريين على حقيقتهم من حيث أنه استجابوا لعيسى ونصروه بقولهم (نحن أنصار الله) وهو سبب تسميتهم نصارى.

وتزعم الأسفار الثلاثة الأولى أن طقس القربان المقدس تأسس أثناء تناول وجبة الاحتفال بعيد الفصح اليهودي، أي مباشرة قبل القبض على عيسى و "صلبه"، غير أن السفر الرابع يذكر أنّ الوجبة كانت قبل ذلك بأيام عديدة .بمعنى أنها لم تكن وجبة عيد الفصح، وبالتالي فإن هذا السفر غافل تماماً عن تأسيس طقس القربان المقدس فهو لا يذكر عنه شيئاً!

كتب ويلسن A.N.Wilson مايلي: (تدّعي الأسفار الثلاثة الأولى أن عيسى أسس طقس القربان المقدس خلال أو بعد وجبة الطعام التقليدية لعيد الفصح اليهودي، فلو صحّ ذلك لكانت كل تفاصيل القصة: الاعتقال والمحاكمة والصلب من نسج الخيال، إذ لا يعقل أن يقوم اليهود بخرق أكثر أعيادهم قداسةً لأجل محاكمة شخص، غير أن السفر الرابع يذكر أن وجبة الطعام المذكورة كانت قبل عيد الفصح بكثير فهي إذن وجبة طعام لا علاقة لها بالعيد وبالتالي لا يوجد تأسيس للقربان المقدس في السفر الرابع، وقد يكون هذا الموضوع من أهم النقاط التي تبرز التناقضات في الديانة المسيحية مما يناقض الإدعاء أن المسيحية مبنية على الواقع التاريخي، وحتى لو صدقنا الإدعاء الخيالي أن عيسى أسس ديانة جديدة ذات طقوس وكوادر من الكهنوت كالأساقفة والشمّاسين فلا يمكننا تصديق الإدعاء أن عيسى أسس طقس القربان المقدس يوم عيد الفصح اليهودي على النحو الذي يؤكده بولس والأسفار الثلاثة) [(١١)].

٣- شهود العيان:

قال مرقس في روايته أن جميع الحواريين تخلّوا عن عيسى ولاذوا بالفرار: (فتركه الجميع وهربوا) (مرقس ١٤/٥٠)، فلم يشهد أحدٌ منهم محاكمة عيسى ولا كلّمه ولا شاهده منهم أحد بعد إلقاء القبض عليه وصدور الحكم، والأنكى من ذلك أنهم أضافوا قصة إنكار بطرس معرفته بالمسيح أثناء محاكمة الأخير (مرقس ١٤/٦٦-٧١)، مما يبدو أنه محض اختلاق من قبل محررين في وقت متأخر بقصد تشويه سمعة بطرس.

يذكر السفر الثاني أنّ ثلاثة نساء هنَّ: مريم المجدلية، ومريم والدة يعقوب James، وسالومي والدة "يعقوب ويوحنا" أبناء زيبيدي، كُنَّ شهود عيان على الصَلب (مرقس ١٥/٤٠)، وحتى لو صحّ ذلك فعلينا أن نواجه الحقيقة بأنه كان على ذاكرة هؤلاء النسوة الانتظار حوالي نصف قرن من الزمن، ومرور القصة عبر عدة وسطاء، قبل تدوين الأحداث.

وهكذا بغياب الشهود وانقضاء نصف قرن من الزمن قبل تدوين القصة، والحاجة لتفسير اختفاء عيسى ثم ظهوره ثانيةً على مسرح الأحداث، وجد مؤلفو الأسفار الأُوَل ملاذاً لهم في كتب العهد القديم للبحث فيها عما ينير طريقهم من "الأدلّة"! فبذلوا مجهوداً كبيراً لاستخلاص تفاصيل قصص الآلام من أسفار العهد القديم لكي "يبرهنوا" أن عيسى مات "بحسب ما نصّت عليه الأسفار القديمة"![١٢].

واجتهد المؤلفون والمحررون في تعديل نصوص من أسفار العهد القديم لجعلها تبدو وكأنها نبوءات تحققت، حتى صار شائعاً ومقبولاً عندهم اقتباس نصوص من العهد القديم وإعادة كتابتها لجعلها تحقق أحداثاً مستقبلية، مما جعل الواقع التاريخي ينطمس أو يتشوه تحت وطأة مؤلفاتهم! وأصبح من المستحيل معرفة درجة مصداقية القصص الواردة في الأسفار ومدى علاقتها بالواقع الفعلي.

وعن ذلك كتب اللاهوتي المسيحي أوريجون (١٨٥-٢٥٤): (إنه بليدٌ حقـاً من لايستطيع أن يلحظ من تلقاء نفسه أن الكثير مما صورتـه الأسـفار علـى أنـه واقع فعلي، لم يقع على الإطلاق، لقد خلطت الأسفار مع التاريخ ما لم يحدث، وأحياناً خلطت معه ما لا يمكن أن يحدث، وأحياناً ما يمكن أن يحـدث غـير أنـه قطعاً لم يحدث، وما يمكننـا قولـه أيضـاً أنـه مـا لـم يكـن المـرء في غايـة البـلادة فبإمكانه ملاحظة الكثير من أمثال هذه النماذج المدوّنة في الأسفار كما لـو أنهـا حدثت فعلاً رغم أنها لم تحدث على النحو المذكور)[١٣].

وقد أثبت علماء الكتاب المقدس في السنوات الأخيرة أن كثيراً مـن تفـاصيل قصص الآلام والصلب اقتُبست من أسـفار العهـد القديـم ممّـا جعـل أحـد كبـار المتخصصين في أسفار العهد الجديد يكتب: (نحن في الواقع لا نعرف شـيئاً علـى الإطلاق عن اعتقال عيسى ومحاكمته وصلبه!")[١٤].

٤-العدالة الرومانية؟

ومع كل ذلك، وحتى لو أُخذت قصص الأسـفار علـى علاّتهـا، لا يسـتطيع المرء أن يُثبت منها أن عيسى صُلب أو مات على الصليب حقاً، فمن جهة نـرى الحاكم الروماني في فلسطين يردّ التهم التي وجهها اليهود ضـد عيسـى المسـيح، وإذ كان مقتنعاً ببراءة المسيح من أية تهمة سياسـية فقـد شـعر بـأن المشـكلة لـم تكن سوى نزاعاً داخلياً صرفاً بين اليهود أنفسهم، وبصورة عامـة كـان الحكـام الذين تعيّنهم روما في المقاطعات على مستوى من الحكمة، وخاصة في فلسـطين حيث كانوا يتعاملون بحذر مع زعماء اليهود ويبذلـون مجهـوداً لتفـادي اسـتعداء الرأي العام وتجنّب الثـورات، وكـانت مسـؤوليتهم تجـاه رومـا مرتبطـة بـأدائهم ومحافظتهم على السـلام، ومِـن ذلـك مثـلاً أنّ بيلاطـس Pontius Pilate الحـاكم الروماني وقتئذٍ عندما علم أن عيسى من أهالي الجليل أراد التخلص من الإحـراج فأرسله إلى ملك اليهود في الجليل هيرود أنتيباس Herod Antipas لـيرى رأيـه فيـه ويتحمل مسؤوليته، وقد صادف وقتئذٍ وجود هيرود أنتيباس في القدس فحـاول

دون جدوى استنطاق المسيح لإثبات التهمة ضده وإذ لم يفلح أعاده إلى بيلاطس (لوقا ٢٣/٧-١١).

كانت التهم الموجهة إلى عيسى من قِبل كبير الكهنة ذات شقين: التحريض على الفتنة، والكفر: (وجدنا هذا الرجل يفسد الأمّة ويمنع دفع الضريبة لقيصر مدّعياً أنه هو المسيح، وأنه ملِك) (لوقا ٢٣/٢)، كان اتهام كبار الكهنة اليهود لعيسى بالكفر ناتجاً عن عدم اعترافهم بأنه المسيح المنتظر، وهو من جانبه كان على خلاف مستمر معهم بسبب فسادهم، ولا شك أن الكهنة كانوا يمقتون عيسى لعدم تقيّده بالشكليات والطقوس، ومن ذلك أنهم كانوا يريدونه التوقف عن شفاء المرضى أيام السبت، وكانوا يجدون متعة في ملاحقته بأسئلتهم الهادفة لإحراجه، كسؤاله إن كان يجب دفع الضريبة لقيصر، وإن كان يجب رجم الزانية، في حين كان من مهام عيسى إصلاح الديانة اليهودية والمجتمع اليهودي من الممارسات المنحرفة، فاليهود أدخلوا في العبادات طقوساً وثنية منذ أيام النبي إرميا الذي اتهمهم بارتكاب جرائم القتل والسرقة والزنا وحلف الأيمان الكاذبة وعبادة آلهة وثنية (إرميا ٧/٩-١١)، ولكن مثل هذه المواضيع باعتبارها قضايا يهودية داخلية بحتة، لم تكن ليكترث لها بيلاطس ولم تشكل عنده أساساً للقبض على عيسى أو الحكم عليه.

وخلال المحاكمة -على فرض أنه جرت محاكمة- وجّه كايفاسCaiphas رئيس الكهنة السؤال التالي إلى عيسى: (هل أنت المسيح ابن المبارك؟ فقال عيسى: أنا هو) (مرقس ١٤/٦١-٦٢) صرّح عيسى أنه المسيح فعلاً، أما لقب ابن المبارك أو ابن الله فلم يكن يُعتبر عند اليهود سوى لقباً رمزياً ينطبق على أي يهودي تقي، ولم يكن يعني أن صاحبه مؤلّه أو فوق البشر، فيستحيل أن يكون استعمال اللقب أساساً لاتهام إنسان بالكفر، لأنه عند اليهود، وبحسب الميشنا، لا يكفر إلا مَن يسيء استعمال لفظ الجلالة (يهوه) المكون من أربعة حروف[١٥].

وعلى أية حال، يستحيل على الحاكم بيلاطس -الوثني- أن يكترث لتهمة الكفر التي ألصقوها بعيسى، فهي لا تعني عنده شيئاً إذ لديْه من آلهة الإغريق وأبناء وبنات الآلهة وأنصاف الآلهة حسب عقليته الهلنستية ما يفوق الحصر، فلا يضره أن يزداد عددهم واحداً أو ينقص، كل ما كان يهتم له هو أن عيسى لم يشكل خطراً على الأمن أو على سلطة روما، فهو لم يكن محرّضاً على الشغب، ولم يكن سياسياً ولم يهدد السلم، بل على العكس أمر أتباعه قائلاً: (أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله) (مرقس ١٢/١٧).

٥- الدخول الملكي المظفّر إلى القدس:

قصة دخول عيسى المسيح عليه السلام إلى القدس (متّى ٢١/١-١١) والتي يطلقون عليها صفة "الدخول المظفّر" جرى تفخيمها وتضخيمها بشكل متعمّد، والهدف من ذلك إيجاد قصة تطابق وتحقق ما تنبأ به زكريا في السفر المنسوب إليه: (هُوَ ذا مِلِكك -أي ملك القدس- يأتي إليكِ، هو عادل، ويأتي بالخلاص، ومتواضع، وراكب على حمار، جحش ابن أتان) (زكريا ٩/٩)، أراد زكريا من نبوءته أن يعطي صورة شاعرية لمِلِك مخلّص يدخل القدس ممتطياً حماراً فتيّاً، ولكن متّى في تلهفه للبرهان على تحقق نبوءات العهد القديم في عيسى، بأدق تفاصيلها، كتب: (هُوَ ذا مِلِكك يأتيكِ -أيها القدس- وديعاً راكباً على أتان وجحش ابن أتان) (متّى ٢١/٥)، وليس معلوماً على وجه اليقين إن كان متّى اقتنع حقّاً أنّ عيسى عند دخوله "المظفّر" إلى القدس كان يركب دابتين في آن واحد، الأتان وابنها الجحش الصغير! ولكن يبدو أنّ معظم آباء الكنيسة صدّقوا ذلك[١٦]، مع أن باقي مؤلفي الأسفار لم يقعوا في خطأ متّى.

بعد عودة اليهود من النفي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد تنبّأ زكريا بقدوم الملك المخلّص المتواضع الذي يأتي لإعادة بناء القدس والمعبد والأمة، وقد كتب نبوءته في وقت كان اليهود محاصرين من أعدائهم وبانتظار الإذن من ملك الفرس لإعادة بناء القدس والمعبد، وبديهيّ أن زكريا كان يتوقع خلاصاً حقيقياً وفورياً، وليس خلاصاً بعد خمسة قرون عندما يأتي عيسى ممتطياً دابتين في آن

واحد، فيدخل القدس المدينة المشيّدة والغنية مع معبدها الرائع[١٧]، لكي يُغدر به، ويُقبض عليه، ويُحاكم، ويُصلب بحسب رواياتهم! فكل ذلك لم يكن ليحقق نبوءة زكريا بالخلاص الفوري.

وهنالك هدف آخر من تفخيم قصة الدخول إلى القدس وهو تصوير عيسى بأنه ابن الإنسان المظفّر، النبي-الملك الذي لا يُقهر بحسب نبوءة دانيال (دانيال/٧)، ولكن لو كانت هذه المبالغات صحيحة حقّاً لأثارت الريبة عند بيلاطس الحاكم الروماني ولأمَرَ بإلقاء القبض على عيسى فوراً، في حين نراه على النقيض من ذلك غير مكترث ولا قلِق بهذا "الدخول المظفر."

بالَغَ كلّ من متّى ولوقا في إشارتهما إلى الجموع -أو الحشود- التي استقبلت عيسى وهتفت له في القدس، في حين أن مرقس يقول فقط أن البعض شارك في الهتاف، ومن جهة واقعية لا يُعقل أن تحدث مظاهرة ضخمة بهذا الحجم تلهب المشاعر بهتافات من نوع "المَلِك" و"المملكة" دون أن يسبب ذلك استفزازاً للسلطة، ولو حدث ذلك لاعتُقل عيسى فوراً، في حين أنه بقي حرّاً طليقاً، مما يدل أن المظاهرة على فرض حدوثها كانت رمزية، ويؤكد ذلك إجابة بيلاطس لكبير الكهنة الذي كان يحاول إلصاق التهم بعيسى فأجابه بيلاطس: (لماذا؟ وأي شرّ عمِل؟) (مرقس ١٥/١٤).

وزيادة في التأكد يوجه بيلاطس السؤال التالي إلى المسيح: (هل أنت ملك اليهود؟ فأجاب عيسى: مملكتي ليست من هذا العالم، فلو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدّامي جاهدوا كي لا أُسلَّم إلى اليهود، أما الآن فمملكتي ليست من هنا) (يوحنا ١٨/٣٣-٣٦)، وهكذا أكّد المسيح لبيلاطس أنّ مملكته روحية صرفة وأن ليس له مطامع دنيوية ممّا أقنع بيلاطس تماماً، فالتفت إلى اليهود وقال لهم: (لا أجد فيه عِلّة على الإطلاق) (يوحنا ١٨/٣٨)، وهو قد أدرك أن المشكلة يهودية داخلية بحتة (لأنّه عَلِم أن رؤساء الكهنة كانوا قد سلّموه حَسَداً) (مرقس ١٥/١٠)، وقد تعززت قناعة بيلاطس ببراءة عيسى

عندما وصلته رسالة من زوجته كتبت فيها: (إياك وإيذاء ذلك الرجل البارّ فقد عانيْت اليوم كثيراً في حلمٍ من أجله) (متّى ١٩/٢٧).

فلشدة ما رأينا من معارضة بيلاطس وتفاديه إدانة عيسى يلزم أن ننظر بحذر إلى تتمة قصة الصلب، ونلاحظ من كتاب أعمال الرسل أنه لم يكن من عادة الرومان الحكم بالإعدام على أحد لمجرد إرضاء رغبة الغوغاء ولا حتى إرضاءً لرؤساء الكهنة! وعل فرض أن ذلك لم يكن نابعاً من الرغبة بتحقيق العدالة فعلى الأقل من باب الحرص على استتاب الأمن والخشية من العواقب السياسية وتفادي استفزاز العوام، وإذا كان رؤساء الكهنة يحرّضون بيلاطس على قتل "ملك يهودي" كما يدّعون فقد يكون هذا "الملك" شخصية ذات حظوة لدى العامة مما قد يسبب ثورة واضطرابات وهو آخر شيء يرغب به الرومان! ولا بد أنّ بيلاطس كان حريصاً على مسؤولياته تجاه السلطة المركزية في روما فيما لو حدثت اضطرابات في منطقته، والدليل على ذلك ما ورد في كتاب أعمال الرسل عن قصة اعتقال بولس ومحاكمته بعد عيسى بحوالي ثلاثة عقود من الزمن.

٦- المقارنة مع محاكمة بولس:

لا يمكن أن يفوت المرء ملاحظة الفارق الكبير جداً بين قصة القبض على عيسى ومحاكمته السريعة جداً وإعدامه -حسبما يقولون- بحيث تم كل ذلك بين عشية الخميس وضحى الجمعة، بالمقارنة مع محاكمة بولس الطويلة جداً في ظروف وتُهَم مشابهة، وملاحظة الحكمة والتعقل والتروي الذي بدا من الحاكم الروماني، فبحسب الأسفار أنهم اعتقلوا عيسى بحديقة جيتسيميني في وقت متأخر من ليل الخميس ثم قتلوه بحلول ظهيرة اليوم التالي فكل هذه الأحداث الخطيرة لم تستغرق سوى اثنتي عشرة ساعة، ست ساعات منها بعد منتصف الليل تم خلالها انعقاد جلسة طارئة لمجلس القضاء اليهودي الأعلى Sanhedrin ! وعلينا أن نفترض أن القضية عُرضت على الحاكم الروماني في وقت مبكر جداً من صباح يوم الجمعة بحيث كان لديه الوقت لاستجواب المسيح، ثم إرساله إلى

الملك هيرود أنتيباس ليحقق معه أيضاً، ثم إعادته إلى بيلاطس لاستكمال الاستنطاق، ثم المداولات مع رؤساء الكهنة، ثم بحث موضوع إطلاق سراحه أم سراح مجرم يقال له باراباس كبادرة حسن نية من قبل الرومان، وإصرار اليهود على إنزال العقاب بعيسى! كل هذه الأحداث المضغوطة في فترة قصيرة جداً، قبل ظهر يوم الجمعة، تثير الشك والريبة خاصة أنه لم يكن هنالك استعجال يبرر ذلك فلم يكن ما يهدد السلامة والأمن، يضاف لذلك اجتماع مجلس القضاء الأعلى بعد منتصف ليل الخميس مع أن اليهود كانوا مستغرقين في احتفالات عيد الفصح تلك الليلة! والشريعة تمنع انعقاد المحاكم ليلاً[١٨].

أما حادثة اعتقال بولس ومحاكمته بعد هذه القصة بثلاثة عقود فلا يسعنا إلا أن نلاحظ فيها الحرص والتروي الشديد الملفت للنظر من قبل القائد الروماني في القدس أولاً ثم الحاكم الروماني في قيسارية ثانياً.

يحكي كتاب أعمال الرسل قصة بولس عندما وجد نفسه في القدس في ظروف مشابهة للتي أحاطت بعيسى أو أسوأ منها بكثير (أعمال الرسل ٢١/٢٧-٤٠)، (أعمال الرسل ٢٢-٢٧)، فحسب رواية لوقا مؤلف سفر أعمال الرسل أن بولس اتُّهم بإدخال رجل من غير اليهود إلى المعبد، وهي تهمة تستحق القتل عندهم! ويصور لنا لوقا كيف أن الغوغاء هاجت وصخبت مطالبة بقتل بولس ثم تدخّل الجنود الرومان لإنقاذه في حين كانت الغوغاء تهتف: (تَخَلّصوا من هذا الرجل فلا يجدر به أن يبقى حيّاً) (أعمال ٢٢/٢٢)، وإذ خشي القائد الروماني في القدس أن تُقطّع الغوغاء بولس إرباً أَمَرَ جنوده بإنقاذه منهم وأخذه إلى مكان آمن في القلعة، وفي اليوم التالي أقسم المتطرفون اليهود أن يقتلوا بولس (أعمال ٢٣/١٤)، فلما سمع القائد بذلك خشي الفتنة وقرر إخراج بولس من القدس فوراً.

وقد تحمّل القائد مشقة إعداد مائتي جندي من المشاة وسبعين من الفرسان لمرافقة بولس خارج القدس باتجاه قيسارية (أعمال ٢٣/٢٣)، وهناك تم تسليم

بولس إلى الحاكم الروماني فيليكسFelix ، الذي كان مُتّخذاً قيسارية مقراً له، مع رسالة إليه من القائد تقول: (علمتُ أنه -أي بولس-متهم من قبل اليهود فيما يتعلق بشريعتهم، ولكن -من طرفنا- ليس هنالك ما يستحق عقاب الموت أو السجن) (أعمال ٢٣/٢٩)، فهاهنا نلاحظ تشابهاً مذهلاً بين هذا التعليق وبين قول بيلاطس عن عيسى، قبله بثلاثين عاماً: (لا أجد فيه عِلّة على الإطلاق) (يوحنا ١٨/٣٨).

ثم سافر كبير الكهنة حنانيا من القدس إلى قيسارية لتعزيز التهم ضد بولس باعتباره مُحرضاً على الفتنة ومثيراً للشغب فقال في مرافعته أمام فيليكسFelix الحاكم: (فإننا قد وجدنا هذا الرجل مُفسداً ومثيراً للفتنة بين جميع اليهود في العالم ومتزعّماً طائفة النصارى) (أعمال ٢٤/٥)، ومرة أخرى نتذكر التهم التي وجهوها إلى عيسى قبل بولس بثلاثة عقود: (وجدنا هذا الرجل -عيسى- يفسد الأمّة ويمنع دفع الضريبة لقيصر مدّعياً أنه هو المسيح، وأنه مِلِك) (لوقا ٢٣/٢). (نلاحظ في ذلك التاريخ المبكر أن حنانيا كان يخلط بين النصارى وبين المسيحية).

أراد فيليكس أن يتخذ جانب الحيطة ويتفادى المشاكل فاكتفى بإبقاء بولس موقوفاً في قيسارية واستمر توقيفه عامين آخرين حتى انتهت ولاية فيليكس وعينت روما حاكماً جديداً مكانه اسمه فستسFestus ، ومغزى القصة أنها تعطي مثالاً عن تروّي الحكام الرومان في إصدار الأحكام على المتهمين وعدم استجابتهم لتحريض رؤساء الكهنة اليهود لإصدار أحكام الإعدام جزافاً، يضاف إلى ذلك أن المتهمين ذوي الجنسية الرومانية كان لهم حق الاستئناف وعرض قضيتهم على القيصر نفسه، كما حدث مع بولس الذي أُرسل إلى روما لهذا الغرض بناء على طلبه.

والخلاصة أنّ محنة بولس في القدس تظهر تبايناً كبيراً بين ما حدث له وما حدث للمسيح قبله! إذ لم يكن الرومان يبادرون لإعدام معارضيهم لأقل نزوة،

وفي الواقع أن ظهور عيسى على مسرح الأحداث بعد حادثة "الصلب" يدعم هذه الحجة بقوة فذلك دليل على أن الحاكم أطلق سراحه في ظروف غامضة، ونلاحظ أنّ حاكم سورية العام من قِبَل روما كان يرسل حكام المناطق أحياناً إلى روما للإجابة على تهم التعامل بقسوة مع أهالي البلاد، وهو ما حدث بالفعل مع بيلاطس في العام ٣٧م حيث أرسله حاكم سورية العام فيتليوس Vitelliusإلى روما للإجابة على تهم موجهة إليه من هذا القبيل.

وعن عدالة روما كتب البروفسور مايكل جرانت: (رغم كل ما كان من التقصير وعدم المساواة في النظام الاجتماعي القديم فإننا نلاحظ أنه بين الرجال الأحرار على الأقل -غير العبيد- كان هنالك قدر كبير من العدالة حيثما كان القانون الامبراطوري سارياً) (١٩).

٧- ثلاثة نساء عند المدفن:

يروي مرقس قصة ثلاثة نساء جِئْنَ إلى "مدفن" عيسى صباح يوم الأحد ثالث يوم بعد حادثة "الصلب" لكي يقمنَ بتدليكه بالزيت والطِيب، وهؤلاء النسوة هنَّ: مريم المجدلية، ومريم والدة يعقوبJames ، وسالومي والدة يعقوب ويوحنا أولاد زبيدي (مرقس ١٦/١)، وفي سفر يوحنا أن النسوة الثلاثة كنّ مريم المجدلية ومريم والدة عيسى ومريم أختها زوجة كلوباس (يوحنا ١٩/٢٥). والرواية تثير الشكوك من حيث أنّ النسوة جئنَ لتدليك عيسى بعد انقضاء يومين على "وفاته"، فهل من عادة اليهود تدليك موتاهم بالزيت بعد يومين من الوفاة؟ حيث يكون الجسد بدأ بالتحلل وأي محاولة لتدليكه تؤدي لتفتته، ما لم تكن النسوة على علم أن عيسى كان حياً.

فطالما أن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومي كنَّ شهوداً على "الصلب" فلا بد أنهنّ عرفنَ أن عيسى بقي حياً وهو السبب الوحيد الذي يمكن أن يفسر رغبتهنّ بتدليكه! ربما لمعالجة بعض الكدمات على جسمه؟ فإمّا أنّ

عيسى لم يُصلب مطلقاً، أو لو أنهم ربطوه على الصليب فلا بدّ أنهم أنزلوه منه قبل أن يلحقه أذى كما شاهدنَ بأنفسهنّ"[٢٠].

وحسبما روى يوحنا كانت الساعة السادسة -أي ١٢ ظهراً- عندما قام بيلاطس بتسليم عيسى إلى اليهود ليصلبوه (يوحنا ١٩/١٤)، وتتفق الأسفار الثلاثة الأولى أن الظلام خيّم على المنطقة بين الساعة السادسة والساعة التاسعة -أي بين ١٢ ظهراً و ٣ عصراً- ولا بد أن الظلام ساهم في تبديد الجموع بحيث لم يعد هنالك مِن شهود!

ثم حضَر يوسف الذي من الرّامة إلى بيلاطس، ويوسف هذا مستشار في محكمة القضاء الأعلى اليهودية Sanhedrin من المتعاطفين مع عيسى، وساعده ضابط روماني متعاطف أيضاً، فالتمس يوسف من بيلاطس جسد عيسى، (فتعجّب بيلاطس أنّه مات كذا سريعاً؟) (مرقس ١٥/٤٣-٤٥)، لأنه كان يعلم من الخبرة أن المرء يحتاج لأيام قبل أن يموت على الصليب فالمتوقع أن يكون عيسى حيّاً في هذا الوقت المبكر، غير أنه لم يكن لدى بيلاطس حافز للتأكد من موت عيسى إذ كان مقتنعاً ببراءته من الأصل، فإن كان عيسى حيّاً فليكن، ومن ثمّ منح الإذن ليوسف لاستلامه (مرقس ١٥/٤٥-٤٦)، وقد لاحظ بعض العلماء أن يوسف طلب من بيلاطس جسد عيسى soma ولم يطلب جثتهptoma بمغزى علمه أن عيسى كان حياً[٢١].

وما بين رواية متى ورواية يوحنا فإن الحد الأقصى للزمن الذي يمكن أن يكون قضاه عيسى على الصليب لا يزيد عن ثلاثة ساعات -ما بين السادسة ظهراً والتاسعة عصراً- وفي الواقع كان أقل من ذلك بكثير، إذ يجب حسم الوقت بين تسليمه في الساعة السادسة ظهراً وبين زمن الوصول إلى كالفاري مكان الصلب.

أما المدفن الذي أُخذ إليه عيسى فلم يكن قبراً عادياً بل قاعة فسيحة متسعة، وبعبارة أخرى كان مخبأً، وإلاّ كيف استطاع بطرس وغيره من الحواريين الدخول إليه؟: (ثم جاء سمعان بطرس ودخل القبر) (يوحنا ٢٠/٦)، ثمّ:

(دخل أيضاً التلميذ الآخر) (يوحنا ٢٠/٨)، وأيضاً: (دخلنَ -أي النسوة الثلاثة- إلى القبر) (لوقا ٢٤/٣)، وأيضاً: (لمّا دخلنَ القبر -أي النسوة الثلاثة- شاهدنَ رجلاً جالساً عن اليمين) (مرقس ١٦/٥).

ولمّا وصلت النسوة الثلاثة إلى المدفن لتدليك عيسى ذُهلنَ لاختفائه من الموقع، فاقترب منهنّ شخصان: (وكانا خائفيْن ومنكّسيْن رأسيهما أرضاً وقالا لهنّ -للنسوة- لماذا تطلبنَ الحيّ بين الأموات؟) (لوقا ٢٤/٥)، فالشيء الوحيد الممكن استخلاصه من هذا الكلام أنّ عيسى كان حياً، وكان الرجلان خائفيْن ومنكّسيْن رأسيهما أرضاً لأنّ أحدهما كان عيسى، وكان سبب خوفه واضحاً إذ لم يكن يريد أن يعلم أحبار اليهود بنجاته، ولو كان شبحاً مبعوثاً من الموت لما كان عنده سبب للخوف لأنه لا يمكن للشبح أن يموت ثانيةً!

وأما رواية يوحنا فهي أكثر وضوحاً: (وقفت مريم عند المدفن تبكي...فرأت عيسى واقفاً دون أن تعلم أنّه عيسى) (يوحنا ٢٠/١١-١٤)، كانت تبكي لأنها لم تتعرف عليه، فواساها قائلاً: (يا امرأة، لِمَ تبكين؟ ومَن تطلبين؟ فظنّت أنه البستاني) (يوحنا ٢٠/١٥)، فالواضح إذن أنّ عيسى كان متنكراً بزي بستاني، وفي رواية لوقا نراه منكّساً رأسه أرضاً خِيفةَ أن يتعرّف عليه أحد، ثم: (قال لها عيسى: يا مريم، فالتفتت وقالت له يا معلّم) (يوحنا ٢٠/١٦)، وقد غمرها الفرح لأنّ البستاني كان عيسى نفسه ومِن شدة غبطتها أقبلت نحوه تريد عناقه فقال لها: (لا تلمسيني، لأني لم أصعد بعدُ إلى أبي) (يوحنا ٢٠/١٧).

لم يشأ عيسى أن تعانقه أو تلمسه فقد يؤلمه ذلك بسبب الرضوض التي يُحتمل أنّه تعرض لها، لكنه أخبرها بوضوح لا إبهام فيه أنه لم يصعد بعدُ إلى أبيه، ما يفيد أنه لا زال حيّاً يُرزق، وليس عائداً من الموت! ثم أرسلها عيسى لتخبر حوارييه بذلك: (فلمّا سمع أؤلئك أنّه حيّ يرزق وأنها شاهدته لم يصدّقوا) (مرقس ١٦/١١).

٨- عيسى يعود للظهور مع الحواريين:

في ذلك اليوم بالذات على الطريق إلى قرية عمواس القريبة من القدس التقى عيسى باثنين من الحواريين: (فاقترب إليهما عيسى ومشى معهما) (لوقا ١٥/٢٤)، (فأخبراه عن عيسى الذي كان نبيّاً مقتدراً بالفعل والقول) (لوقا ١٩/٢٤)، (فقال لهما: أيها الغبيّان بطيئا القلوب في الإيمان بما تكلم به الأنبياء) (لوقا ٢٥/٢٤)، يقصد ألا ترون أنني أنا عيسى حيّ أُرزق؟ (فانفتحت أعينهما وعرفاه) (لوقا ٣١/٢٤).

وفي القدس في ذلك اليوم التقى عيسى بالحواريين جميعاً -عدا توما- (وقال لهم: السلام عليكم، فأصابهم الرعب والذعر معتقدين أنهم شاهدوا شبحاً، فقال لهم: ما بالكم اضطربتم؟ ولماذا تخطر أفكار -الوسواس- في قلوبكم؟ انظروا يديّ ورجليّ، إنّي أنا هو، جسّوني -المسوني- وانظروا -أنني لستُ شبحاً- فإن الشبح ليس له لحم وعظام كما ترون لي، وبينما هو يتكلم أراهم يديه ورجليه) (لوقا ٣٦/٢٤-٤٠)، كان عيسى يقول لهم بكل وضوح أنه لم يُقتَل ويبرهن لهم ذلك بصورة لا يتطرق إليها أدنى شك.

غير أن الحواريين أصيبوا بالذعر لأنّهم افترضوا أنّ عيسى قُتِل بحسب ما سمعوه من الأقاويل والشائعات، فكل معلوماتهم كانت من الشائعات، إذ لم يكن أحدٌ منهم شاهداً على الأحداث (مرقس ٥٠/١٤)، وبالمقارنة معهم فإنّ مريم المجدلية لم تَخَفْ عندما شاهدت عيسى بل أقبلت عليه تريد عناقه لأنها كانت شاهدة عيان على ما حدث فعلاً، وبالتالي كانت تتوقع أن ترى عيسى حيّاً يرزق فهي من البداية عِلمتْ أن عيسى لم يُقتَل.

ولكي يبدّد عيسى أي شك في أذهان الحواريين وليعطيهم مزيداً من التأكيد أنه لم يكن شبحاً قال لهم: (أعندكم ها هنا طعام؟ فناولوه قطعةً من سمكٍ مشوي وشيئاً من شَهدِ عسل، فأخذها وأكل أمامهم) (لوقا ٤١/٢٤-٤٣)، ليبرهن لهم ماذا؟ أنّ الأشباح والأرواح تأكل؟ فلو أنّ عيسى أكلَ طعاماً ليبرهن

لهم أنه يستطيع الأكل رغم أنه شبح لا يحتاج لغذاء لكان ذلك سفسطة لا معنى لها[٢٢].

أما توما الحواري الثاني عشر فلم يستطع تصديق ما قاله الأحد عشر له (يوحنا ٢٠/٢٤-٢٥)، لأنهم أخبروه أنهم رأوا عيسى بلحمه ودمه يأكل سمكاً وشهدَ عسل فلم يصدّق، ولو أنهم قالوا له أنهم شاهدوا شبح عيسى روحاً راجعاً من الموت لما كان في ذلك ما يدعو لدهشته واستغرابه، ولكان صدّقهم على الفور، ففي تعاليم الحواريين لم تكن قيامة عيسى من الموت مستغربة أو مستحيلة ولا شيئاً خارقاً، لأنّ القيامة عندهم إشارة لبداية عصر جديد وفي هذه الحالة يكون عيسى أول مَن يقوم[٢٣]، وعلى أية حال فقد ادّعى متّى أنه لحظة الصلب (تفتحت القبور وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين) (متّى ٢٧/٥٢).

وبعد ثمانية أيام التقى عيسى الحواريين الاثني عشر بمن فيهم توما فقال لهم: (السلام عليكم، ثم قال لتوما: هات إصبعك إلى هنا وجسّ يديّ، وهات يدك وضعها في جنبي) (يوحنا ٢٠/٢٦-٢٧)، والمعنى تحقق بنفسك أنني أنا المسيح لا أزال حيّاً بلحمي ودمي ولستُ شبحاً أو روحاً، فماذا تريد أكثر من هذا الدليل؟

وهنالك نقطة أخرى جديرة بالانتباه، فلو كان عيسى قد تنبأ بصلبه وقيامته سلفاً كما تزعم الأسفار إذ جعلته يقول: (بعد ثلاثة أيام سوف أنهض – من الموت –) (متى ٢٧/٦٣، ٢٠/١٩) فلو كان ذلك صحيحاً لماذا أصيب الحواريون بالذعر عندما شاهدوه حياً؟ لم يكن هنالك من حواري واحد على الأقل تذكر "نبوءة" عيسى بقيامه من الموت المفترض أنه كررها على مسامعهم سلفاً! فلو كان ما زعموه عن هذه النبوءة حقاً فلماذا لم يذهب الحواريون إلى مكان المدفن في اليوم الثالث ليشهدوا قيامة المعلم؟ ولكنهم على النقيض من ذلك ارتعدت فرائصهم عندما شاهدوا حدثاً كان المفترض أنهم يترقبونه![٢٤].

٩- ظهوره في أماكن أخرى:

كتب لوقا في أعمال الرسل أنّ عيسى بقي حيّاً لمدة أربعين يوماً بعد محنته: (الذين أراهم نفسه حيّاً ببراهين كثيرة بعد محنته وقد ظهر لهم أربعين يوماً وتكلم عن أمور ذات علاقة بملكوت الله) (أعمال الرسل ١/٣).

ويروي سفر يعقوب Secret James، المكتشَف عام ١٩٤٥ من ضمن وثائق نجع حمادي بمصر أن عيسى استمر في بعثته لمدة ٥٥٠ خمسمئة وخمسين يوماً بعد المحنة [٢٥]، وذكر بولس في رسالته إلى أهل كورينثوس أن عيسى شوهد من قبل بطرس، ثم من قبل الاثني عشر، ثم من قبل حوالي خمسمئة شخص (رسالة بولس إلى أهل كورينثوس ١٥/٥-٨).

ومن المهم ملاحظة أن عيسى في ظهوره لم يقابل أعداءه، ولكن فقط مريديه، لأنه كشخص حيّ كان يخشى على نفسه من تآمر الأعداء، فلو كان شبحاً لما كان هناك ما يخشاه، والملاحظ أيضاً أنه كان يتنقل لمسافات قصيرة لأنه كان رجلاً حيّاً وليس شبحاً.

١٠- حياة المسيح:

من أكثر الأمور إرباكاً وحيرةً في قصة المسيح المذكورة في الأسفار أن تكون بعثته قد استمرت عاماً واحداً لا غير، بحسب روايات الأسفار الثلاثة الأولى، فهذه فترة قصيرة جداً إن أخذنا بالاعتبار الأهمية الفائقة لبعثة المسيح! ويمكن تفسير هذا الإشكال إذا فهمنا أنّه لا يجب -ولا يمكن- اعتبار قصص الأسفار تاريخاً واقعاً، وقد استنتج أحد علماء الكتاب المقدس أن مؤلفي الأسفار لم يرتّبوا قصة البعثة بحسب تسلسل الأحداث الزمني وإنما بحسب التقويم اليهودي للطقوس الدينية على مدار عام كامل[٢٦]، وهكذا فإنّ قارىء الأسفار يأخذ الانطباع الخاطيء أن عيسى زار القدس مرة واحدة فقط في أواخر بعثته، وأيضاً قد يظن أن البعثة في معظمها تركزت في منطقة الجليل ثم تُوجت بالرحلة إلى القدس في آخرها.

إنّ تاريخ ولادة عيسى المسيح عليه السلام ومدة بعثته وتاريخ وفاته كل ذلك غير معروف على وجه التحديد، ولكن الأسفار تفيد أن بعثة المسيح تبعت بوقت قصير بعثة يحيى المعمدان عليهما السلام، وبصورة خاصة قبل إعدام الأخير في السجن من قِبَل ملك اليهود في الجليل هيرود أنتيباس (٤ق م-٣٩م)، وبحسب سفر متّى يفترض أن تكون ولادة عيسى تمت في عهد هيرود الكبير ملك اليهود (٣٧ق م-٤ق م)، (متّى ٢/١)، وحيث أن هيرود مات عام (٤ ق م) فيفترض أن تكون ولادة عيسى قبل ذلك أو في العام نفسه على أكثر تقدير، ولكن سفر لوقا يعطينا تاريخين متناقضين لولادة المسيح: الأول في عهد هيرود الكبير (لوقا ١/٥،٢٦)، والثاني وقت الإحصاء السكاني الذي قام به الوالي الروماني على سورية كيرنيوس :Quirenius (وفي تلك الأيام صدر أمر من أغسطس قيصر بإحصاء سكاني للضريبة لكل العالم -الروماني- وكان ذلك أيام كيرينيوس والي سورية) (لوقا ٢/٢-٣)، وهنا يناقض لوقا نفسه لأن كيرينيوس قام بالإحصاء عام ٦م أي بعد موت هيرود الكبير بعشرة أعوام، ولكن حتّى لو قبلنا أن عيسى وُلد في أواخر عهد هيرود الكبير فلا نعلم في أي عام على وجه التحديد، وقد أهمل العلماء قصة الوالي كيرنيوس لتفادي تناقض لوقا واستنتجوا أن عيسى وُلد خلال الفترة ما بين (٧ ق م-٤ ق م) أواخر حكم هيرود الكبير[٢٧]، ويقدم ساندرز شرحاً لبيان السبب الذي من أجله وُلد المسيح مبكراً بضعة سنوات عن بداية التقويم الميلادي[٢٨].

وهنالك تضارب أيضاً فيما يتعلق بالسنّ الذي كان عليه عيسى وقت بداية بعثته، وكذا في مدة بعثته، والعام الذي توفي فيه، وتقتضي قصة لوقا أن عيسى كان في أوائل الثلاثينات عندما بدأ بعثته (لوقا ٣/١،٢٣)، حيث يذكر صراحة أنّ بعثة يحيى بدأت في العام الخامس عشر من حكم الإمبراطور طيباريوس Tiberius، وحيث أن حكم هذا الإمبراطور كان خلال الأعوام (١٤م-٣٧م) فيكون العام الخامس عشر من حكمه هو العام ٢٩م بداية بعثة يحيى، وعلى فرض أن بعثة عيسى تبعتها بعام واحد فعندها يتراوح سنّ عيسى بين ٣٤-٣٧

عاماً، غير أن سفر يوحنا يحدد أن عيسى كان في الأربعينات من عمره خلال بعثته إذ يقول تحديداً: (دون الخمسين عاماً) (يوحنا ٥٧/٨).

ولكن لوقا يناقض يوحنا فيذكر عيسى كان في الثلاثين من عمره عندما بدأ بعثته (لوقا ٢٣/٢)، وهذه المعلومة من لوقا تقتضي أن عيسى ولد في العام ١، وذلك كما يبدو كان الأساس في التقويم الميلادي الحالي.

أما بالنسبة الى السنة التي توفي فيها المسيح فيجب أن تكون بحسب الأسفار خلال فترة حكم الوالي الروماني بيلاطس على فلسطين (٢٦م-٣٧م)، فطالما أن عيسى توفي خلال حكم بيلاطس وقطعاً بعد استشهاد يحيى فلزم أن تكون الوفاة بعد العام ٣٥م أو في العام ٣٧م على أبعد تقدير، أي قبل أن تنتهي ولاية بيلاطس، وهكذا تكون وفاته في سنّ ٤١-٤٤ عام ممّا هو أقرب إلى تقدير سفر يوحنا الذي يذكر تحديداً أن عيسى كان دون الخمسين عاماً، ويعزز هذا الانطباع تاريخ استشهاد يحيى الذي حدده المؤرخ فلافيوس جوزفوس بين عاميْ (٣٥م-٣٦م) [٢٩]، وبناءً عليه تكون بعثة عيسى قد استمرت ما بين ستة إلى ثمانية أعوام، ولا يشمل ذلك مدة ظهوره بعد المحنة.

والخلاصة أن المعلومات الموثّقة المتاحة لنا توضح أنه من المستبعد جداً أن تكون بعثة المسيح استمرت عاماً واحداً فقط كما توحي بذلك الأسفار الثلاثة الأولى، ولا حتّى ثلاثة أعوام بحسب السفر الرابع، وفي ذلك يقول أيزنمان: (طالما أن عيسى توفي بعد استشهاد يحيى كما تقول الأسفار، فلا بد أن الوفاة إذن كانت حوالي العام ٣٧م أو قبل ذلك بقليل بحسب المؤرخ فلافيوس جوزفوس، أما لو كانت الوفاة قبل استشهاد يحيى فماذا نستطيع أن نستخلص من روايات الأسفار؟)[٣٠].

١١- المنظور الإسلامي:

هنالك ومضات مضيئة متبقية في العهد الجديد تشير إلى حقيقة أنّ عيسى لم يُصلب قطعاً ولم يمت على الصليب، وهي دليل على صعوبة أو استحالة كتابة

تاريخ مغاير للواقع، فقد حاول مؤلفو ومحررو العهد الجديد جاهدين دمج التاريخ الواقعي الحقيقي بتاريخ آخر من عندهم وقصص أضافوها بحسب تصورات مسبقة تهدف إلى تحقيق "النبوءات" قسراً وبحيث يتم كل شيء بحسب نصوص العهد القديم، ولكن تركوا وراءهم آثاراً تدل على الحقائق، وبقيت متناقضات لم تكن تخطر على ذهن المؤلفين والمحررين.

ومن الروعة ملاحظة أن القرآن الكريم يتفق فقط مع الأجزاء المتماسكة من الكتاب المقدس ويخالف الأجزاء المتناقضة منه، كما نلاحظ أن نتائج أبحاث علماء الكتاب المقدس حديثاً تقترب من حقائق القرآن الكريم، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة ٥/٤٨]، فالقرآن يصدّق فقط ما تبقى من الوحي الصحيح في الكتاب المقدس، وهو معنى قوله: "بين يديه"، والقرآن أيضاً مهيمن عليه فيغربل الصحيح فيه من الزائف، قال الله تعالى: ﴿وَما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلاّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ١٦/٦٤].

وهنالك توافق رائع بين ما ذكره القرآن عن رفع المسيح وبين الحوار الذي أورده سفر يوحنا بين المسيح وبين مريم المجدلية عند "المدفن"، إذ قال لها المسيح: (لا تلمسيني، لأني لم أصعد بعدُ إلى أبي ولكن اذهبي إلى إخوتي -الحواريين- وقولي لهم أني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم) (يوحنا ٢٠/١٧). فإذ أخبر عيسى مريم المجدلية أنه لم يكن قد صعد بعد إلى الله تعالى، إله الجميع، طلب منها إخبار الحواريين أنه في سبيله إلى ذلك! والملاحظ في تعبيره أن الله تعالى أب الجميع -مجازاً- وليس أباه بصورة خاصة، وأيضاً أنه تعالى إله الجميع فنفى عن نفسه الألوهية.

وهنالك حادثة أخرى يشير بها المسيح إلى رفعه إلى السماء بقوله عن نفسه: (وإن رُفعتُ أنا من الأرض) (يوحنا ١٢/٣٢)، ثم يعلق يوحنا على ذلك بقوله: (قال هذا مشيراً إلى أيّة ميتة كان مُزمِعاً أن يموت) (يوحنا ١٢/٣٣)، ولا شك أن يوحنا أضاف هذا التعليق الأخير من عنده بسبب تصوره المسبق عن

الصلب، وبالمقابل نجد من المدهش أن القرآن الكريم يذكر بدقة أنّ المسيح رُفع دون أن يُصلَب.

يؤمن المسلمون – خلافاً للمسيحية – أن الإنسان يولد بريئاً من كل ذنب فلاحاجة لافتدائه سلفاً من الخطيئة "الأصلية"، وليس هنالك من علاقة بين الديانة والشعور بالذنب "المتأصل" في النفس، إن مفهوم "الخطيئة الأصلية" وافتدائها "بالنيابة" ينقضه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٤٦/٦].

وقد لخّص القرآن الكريم الأحداث الأخيرة لبعثة عيسى المسيح بإيجاز رائع، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران ٣/٥٢-٥٥]. فمن جهة أن هذه الآية تشرِّف الحواريين بسلوكهم ومبادرتهم لنصرة المسيح وتمتدحهم بأنهم استسلموا لإرادة الله، بخلاف الأسفار التي تسفّههم وتصمهم بالجبن والتخاذل، ومن جهة ثانية تؤكد فشل المكيدة التي دبرها أعداء المسيح لقتله، وأن مكر الله كان فوق مكائد البشر، ومن جهة ثالثة أنّه تعالى توفّى المسيح ورفعه إليه دون أن يمسَّه سوء، فطهّره من الذين صمّموا على الكفر، ومن جهة رابعة أن الذين اتّبعوا المسيح -في حقيقته، وهم النصارى- وعدهم تعالى بالنصر النهائي إذ أيّدهم بالمسلمين، وأخيراً أنه تعالى يحكم بين المختلفين في المسيح يوم القيامة فيبين لهم الصواب من الخطأ في معتقداتهم، بمعنى أن الحساب على الله وحده وليس على العباد.

ولم يكن بوسع النبي (٥٧٠م-٦٣٢م) الاطلاع على الكتاب المقدس ولا على السجلات التاريخية لكي يحلّل الأحداث ويصل لهذه النتائج، فالترجمة

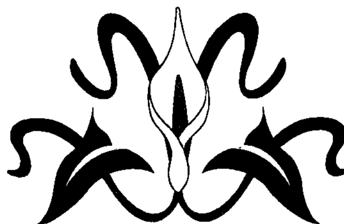
العربية الأولى للعهد الجديد تمت بتاريخ ١٠٦٠م كما رأينا، أي بعد البعثة الإسلامية بأكثر من أربعة قرون، وهي طبعة موجودة الآن في روسيا بمكتبة سان بطرسبورج، ومن باب أولى أنه لم يكن هناك ترجمة عربية للعهد القديم، هذا مع العلم أن النبي كان أمّياً على أية حال، وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران ٩٣/٣]، فمعناه من جهة، أنه لم يكن يوجد مِن العرب مَن يقرأ اليونانية -الترجمة السبعينية للعهد القديم- ولا من يقرأ العبرية، ومِن جهة أخرى تحدّاهم القرآن أن يأتوا بتوراة موسى الأصلية لأنهم درسوها فاندرست لقوله تعالى: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ [الأعراف ١٦٩/٧]، كل ما كان لديهم كتب العهد القديم التي ألّفوها فبقي فيها شذرات متفرقة من الوحي الأصلي، ومن إعجاز القرآن أنه أخبر بهذه الأمور مع أنه لم يثبت أن كان بمكة أو ضواحيها أو بجزيرة العرب مركز ثقافي ديني ليقوم بنشر أفكار الكتاب المقدس التي طرقها القرآن[٣١]، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨/٢٩].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣/١٦] إشارة صريحة لذلك، فالمعنى أن لسان الكتاب المقدس الذي يلحدون إليه أعجمي فهو إما بالسريانية طبعة البسيطة أو باللاتينية الطبعة الشائعة أو اليونانية الطبعة السبعينية، في حين لسان القرآن عربي مبين.

وهنالك نقطة عابرة وهامة لا يفوت المرء أن يلحظها في الأسفار، تلك أن المسيح عند لقائه بالحواريين كان يحييهم بتحية الإسلام: السلام عليكم (لوقا ٣٦/٢٤)، (يوحنا ٢٠/٢٦).

مراجع الفصل الثامن:

1. (Funk, HTJ p. 219)
2. (Funk HTJ p. 127)
3. (Funk HTJ p. 131)
4. (Funk HTJ p. 138)
5. (Wilson, JAL p. 227)
6. (Wilson, JAL p. x)
7. (Mack WWNT p. 152), (also Freke & Gandy TJM p.50-52)
8. (Vermes JTJ p.36,38)
9. (Robinson NHL p.365), (Freke & Gandy TJM p.120)
10. (Robinson NHL p.377), (Freke & Gandy TJM p.120)
11. (Wilson JAL p. x)
12. (Funk HTJ p.230-233)
13. (Dawes HJQ p.93)
14. (John Dominic Crossan, quoted by Funk HTJ p. 232-233)
15. (Vermes JTJ p. 35)
16. (Dawud MTB p.67)
17. (Dawud MTB p.68)
18. (Vermes CFJ p.169)
19. (Grant TTC p. 260)
20. (see also Schonfield TEO p. 119-121)
21. (see Schonfield TPP p.168)
22. (Deedat TC Vol.2 p. 213)
23. (Wilson PMA p.63)
24. (Dawes HJQ p.74-76 Reimarus)
25. (Robinson NHL p.29)
26. (Spong LTG p.95)
27. (Sanders HFJ p.11)
28. (Sanders HFJ p. 12)
29. (Eisenman JBJ p.62,106)
30. (Eisenman JBJ p.107)
31. (Ben Nabi QP p.246)



الفصل التاسع

سفر الرؤيا
والاستشراق
والأصولية المسيحية
في الغرب

الفصل التاسع

سفر الرؤيا والاستشراق

والأصولية المسيحية في الغرب

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص : ٢٨/٥٥].

١- سفر الرؤيا:

لا شك أن كتاب سفر الرؤيا (Revelation بالإنكليزية، Apocalypse بالفرنسية) - آخر كتب العهد الجديد - قد أخذ بلبّ الجماهير المسيحية خلال القرون الأولى، بل إنّه استمر في سحر العديد منهم - في نصف الكرة الغربي- لدرجة أو لأخرى حتى يومنا هذا، ذلك أن سفر الرؤيا الذي كُتب في مناخ من التوقع والأمل بالخلاص الفوري، غذّى ودعمَ المعتقد المسيحي الغربي من زاويتين: أولاً: ساندَ القناعة المسيحية بعودة المسيح الوشيكة رغم تنبّؤ بولس بوقوعها في حياته، لأن المسيحيين في القرن الأول والثاني لم ييئسوا قط من تحقق تلك النبوءة، ثانياً: كان على المسيح في مجيئه الثاني أن يحقق وينجِز ما لم يحققه في المجيء الأول.

و"الرؤيا"، الذي كتبه يوحنا العرّاف -الملقّب باللاهوتي- في أواخر الستينات من القرن الأول، لم يكن يُعتبر سفراً مقدساً وقت كتابته وحتى حلول القرن الرابع الميلادي، إذ بعد مؤتمر نيقية ٣٢٥م طلب الإمبراطور قسطنطين من يوزيبيوس Eusebius أسقف قيسارية إعداد "كتاب مسيحي مقدس" للكنيسة الجديدة، وليس مؤكداً إن كان يوزيبيوس في ذلك الوقت قرر

إدخال كتاب "الرؤيا" ضمن أسفار العهد الجديد، ذلك أن بعض المراجع المسيحية لم تكن تؤمن بصحة معلوماته، وعليه فقد يكون أن "الرؤيا" أُضيف إلى "الكتاب المسيحي المقدس" بعد زمن يوزيبيوس Eusebius بكثير. والجدير بالذكر أن نسخة البسيطة السريانية للكتاب المقدس والتي تتبناها الكنيسة الشرقية لاتشتمل على سفر الرؤيا.

وقد كتب ديونيسيوس Dionysius أسقف الإسكندرية، الذي كان معاصراً ليوزيبيوس، أن يوحنا مؤلف "الرؤيا" ليس الحواري يوحنا بن زبيدي قطعاً، وأضاف أنه لا يستطيع فهم "الرؤيا"، وأن الكثيرين من معاصريه انتقدوا "الرؤيا" بشدة، وذكروا أن المؤلف لم يكن حوارياً ولا قديساً ولا حتى عضواً في الكنيسة بل هو سيرنثوس Cerinthus الذي تزعم الطائفة المنحرفة المعروفة باسمه[١].

ولأخذ فكرة عن محتوى السفر، وكمقدمة لهذا الفصل، نورد ها هنا مقتطفات منه :

إنقاذ ١٤٤٠٠٠ من البشر فقط (رؤيا / الفصل ٧):

[٢] ورأيت ملاكاً آخر طالعاً من المشرق معه ختم الإله الحيّ فنادى بصوت عظيم إلى الملائكة الأربعة المكلفين بإلحاق الدمار بالأرض والبحر[٣] قائلاً لهم لا تلحقوا الأذى بالأرض ولا بالبحر ولا الأشجار حتى نختم جباه عباد الله[٤] وسمعت عدد المختومين مئة وأربعة وأربعين ألف من جميع قبائل بني إسرائيل[٥] من قبيلة يهوذا اثنا عشر ألف، من قبيلة رأُوبين اثنا عشر ألف، من قبيلة جاد اثنا عشر ألف [٦] من قبيلة أشير اثنا عشر ألف، من قبيلة نفتالي اثنا عشر ألف، من قبيلة منسّا اثنا عشر ألف [٧] من قبيلة شمعون اثنا عشر ألف، من قبيلة لاوي اثنا عشر ألف، من قبيلة يسّاكر اثنا عشر ألف [٨] من قبيلة زبولون اثنا عشر ألف، من قبيلة يوسف اثنا عشر ألف، من قبيلة بنيامين اثنا عشر ألف.

١٤٤٠٠٠ لم تدنّسهم النساء (رؤيا / الفصل ١٤):

(١) ثم نظرت وإذا خروف واقف على جبل صهيون ومعه مائة وأربعة وأربعون ألفاً واسم أبيه مكتوب على جباههم(٣) المائة وأربعة وأربعون ألفاً الذين افتُدوا من الأرض (٤) وهؤلاء هم الذين لم تدنسهم النساء ولا زالوا عذارى ويتبعون الخروف حيثما ذهب (٨) ثم تبعه ملاك آخر يقول: سقطت، سقطت بابل المدينة العظيمة، لأنها سَقت جميع الأمم من خمر غضب زناها!

جام الغضب على الفرات وعلى تل مجدّو Armageddon (رؤيا / الفصل ١٦):

(١٢) ثم سكب الملاك السادس جامَه على النهر الكبير الفرات فجفّ ماؤه، لكي يكون طريق الملوك القادمين من المشرق سالكاً (١٦) وجمعهم إلى الموضع الذي يقال له بالعبرية هرمجدون– Armageddon تل مجدّو–(١٩) وذُكرتْ بابل العظيمة أمام الله ليعطيها كأس خمر غضبه.

بابل: العاهرة الكبرى (رؤيا/الفصل ١٧):

ثم جاء واحد من السبعة ملائكة الذين معهم السبعة جامات وقال لي هلمّ فأُريك دينونة العاهرة الكبرى الجالسة على المياه العديدة (٢) التي زنى بها ملوك الأرض وسكِرَ سكان الأرض من خمر زناها (٥) وعلى جبهتها مكتوب، لغز، بابل العظمى أم العاهرات ونجاسات الأرض (٦) ورأيت امرأة سكرى من دماء القديسين ومن دماء شهداء عيسى.

سقوط بابل (رؤيا / الفصل ١٨):

ثم بعد هذا رأيت ملاكاً آخر نازلاً من السماء له سلطان عظيم (٢) وصرخ بصوت عظيم سقطت سقطت بابل العظمى وصارت مسكناً للشياطين وملاذاً لكل روح نجسة وقفصاً لكل طائر نجس كريه (٣) لأنه من خمر غضب زناها شربت جميع الأمم، وزنى بها ملوك الأرض (٥) خطاياها وصلت عنان السماء (٦) اسقوها من الكأس التي سقتكم منها وضاعفوا لها ضعفا لقاء أعمالها (٧)

بقدر ذلك أعطوها عذاباً وحزناً [٨] في يوم من الأيام سوف تأتيها الكوارث: الموت والأحزان والمجاعة وسوف تحترق بالنار كلّياً [٢١] ورفعَ ملاكٌ جبار حجرَ رحى عظيمة ورماه في البحر قائلاً: هكذا وبكل عنف سوف يُلقى ببابل العظمى حتى لا يَعُد لها وجود بعد اليوم.

معركة تل مجدّو Armageddon (رؤيا / الفصل ١٩):

لأنه أدان العاهرة الكبرى -بابل- التي أفسدت الأرض بزناها وفسوقها [١١] ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض والجالس عليه يُدعى أميناً وصادقاً [١٣] واسمه كلمة الله [١٤] وتبعته جيوش السماء على خيول بيضاء [١٦] وقد كُتب على ثوبه وعلى فخذه: ملك الملوك، وربّ الأرباب [١٩] ورأيت **الوحش** وملوك الأرض وجيوشهم مجتمعين لشنّ الحرب على الجالس على الفرس وجيشه [٢٠] فقُبضَ على **الوحش** وعلى النبي الزائف معه.. وأُلقي الاثنان أحياء في بحيرة النار المتّقدة بالكبريت [٢١] والباقون قُتلوا بسيف الجالس على الفرس المنبعث من فمه، وجميع الطيور شبعت من لحومهم.

المملكة الألفية السعيدة (رؤيا / الفصل ٢٠):

[١] ورأيت ملاكاً هابطاً من السماء ومعه مفتاح الهاوية التي لا قعرَ لها، وسلسلة عظيمة في يده [٢] فقبض على التنّين، ذلك الأفعى القديم، الذي هو الشيطان، وقيّده لمدة ألف عام [٣] وألقى به في الهاوية وأغلق عليه وختم عليه لكي لا يُضل الأمم بعد ذلك حتى تنقضي الألف عام، وبعد ذلك يجب أن يُطلق قليلاً! [٧] ومتى تمّت الألف سنة يُطلق الشيطان من سجنه [٨] ويخرج ليضلّ الأمم في أركان الأرض الأربعة يأجوج ومأجوج .... [١٠] ثمّ أُلقي إبليس الذي كان يضلّهم في بحيرة النار والكبريت حيث **الوحش** والنبي الزائف سيعذّبون ليلاً نهاراً إلى الأبد.

القدس الجديدة (رؤيا / الفصل ٢١):

(٢) وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة، القدس الجديدة، هابطة من السماء كما لو كانت عروساً مهيّأة لزوجها(٩) ثم جاء أحد الملائكة السبعة الذين معهم السبعة جامات...قائلاً هلمّ فأُريك العروس امرأة الخروف(١٠) فأراني المدينة العظيمة القدس هابطة من السماء من عند الله(١٢) وكان لها سور عظيم مرتفع وبه اثنا عشر باباً، وقد كُتب على كل منها اسم قبيلة من قبائل بني إسرائيل الاثنا عشر!

يُنسب سفر الرؤيا إلى يوحنا العرّاف -الملقب باللاهوتي- وإن كان من غير المؤكد من أين جاء يوحنا هذا؟ غير أن أي قارئ فطِن لا بد أن يتساءل: لِمَ كتب يوحنا هذا البحث؟ وما خلفيّته؟ ونجد في كتاب "بولس عقلية الرسول" إجابة وافية لهذه التساؤلات (٢) .

٢ – نيرون إمبراطور روما:

في السنة العاشرة من حكم الإمبراطور نيرون، نشب حريق روما الشهير خلال شهر تموز من العام ٦٤م، واستمر لحوالي شهر من الزمن أتى بنهايته على ثلاث من أربع عشر منطقة من مناطق روما الإدارية، وعند نشوب الحريق كان نيرون يستجمّ في منتجع أنتيوم الساحلي القريب من روما فلمّا بلغه الخبر عاد إلى العاصمة سريعاً ليشرف شخصياً على إطفاء الحريق.

وقد يكون أن نيرون تصرف بدافع من الدهاء السياسي، إذ اتهموه بعدئذٍ بتعمّد إشعال الحريق لغرض إفساح مساحات لمشاريع البناء الفخمة وتجميل المدينة، خاصة لبناء قصره المعروف بالبيت الذهبي، ولِما عُرف عنه من صفات القسوة، والمزاج المتقلب التي تطورت عنده خلال العقد الأخير من حكمه فقد انتشرت الأقاويل -وقد يكون أنها مجرد إشاعات- بأنه كان واقفاً على مرتَفَع من روما يرقَب الحريق واللهب تحته وهو يغني ويعزف القيثارة.

كانت روما وقتئذٍ مزدحمة بحوالي مليونين من السكان نصفهم من العبيد، وقد ساد الذعر بعد الكارثة إذ بقي ألوف الناس بلا مأوى، وزاد من قلق السلطة ما أشيع من كون نيرون نفسه مسؤولاً عن إشعال الحريق واحتمال حدوث اضطرابات وشغب، وفي مثل هذه الأحوال يجد بعض الحكام مخرجاً لهم في البحث عن كبش فداء يسترضون به الدهماء، وكان نيرون منهم إذ لاحت له الفرصة السياسية لاتهام أقلية مسيحية لم تكن معروفة سوى أن أفرادها من أتباع "كريستوس"، فإلصاق التهمة بهذه الأقلية وإنزال أشد العقوبات بها بدا له مناسباً جداً، إذ لم يكن متوقعاً أن يتعاطف معها إلاّ أقلّ القليل من الناس، هذا بالإضافة أن أهالي روما كانوا يستمتعون بمشاهدة فنون التعذيب ويعتبرونها من وسائل الترفيه والتسلية، وعن فنون التعذيب التي أنزلها نيرون بالمسيحيين كتب المؤرخ الروماني تاسيتوس Tacitus (٥٥-١١٧م) ما يلي:

(تم أولاً اعتقال المسيحيين الذين اعترفوا، وبنتيجة استجوابهم أُدينت أعداد كبيرة من رفاقهم ليس فقط بتهمة إضرام النار، وإنما لشعورهم بالكراهية تجاه الجنس البشري، وقد رافق الهزء نهايتهم إذ خاطوا بعضهم ضمن جلود حيوانات ضارية ثم أُطلقت عليهم الكلاب الشرسة فنهشتهم بأنيابها، ورُبِط بعضهم إلى صُلبان تُضرم فيهم النيران ليلاً كأعمدة للإنارة، وفَتح نيرون حدائقه للعرض واختلط مع الناس وأحياناً كان يقف في عربة سباق تجرها الخيل مرتدياً بزّة المتسابق)[٣].

لقد وجد نيرون وأهالي روما البهجة في استعراض مثل هذه الوحشية، وليس معنى ذلك أنّ نيرون كان معادياً للمسيحية بشكل خاص، فقد كان مجـرّداً عن أي شعور ديني مهما يكن، كل ما في الأمر أنه وجد من المناسب في هذه الحالة الانتقام من المسيحية وسيلةً لصرف انتباه الرأي العام عن أسباب الكارثة.

٣ - الاضطهادات المسيحية :

وعلى هذا لا يصحّ التخمين أنّ نيرون كان الرائد الأكبر لاضطهاد المسيحية، ذلك أن وحشيته بدتْ متواضعة أمام اضطهادات المسيحية التي حدثت على نطاق واسع بعد نيرون بحوالي قرنين من الزمن، وحتى هذه الأخيرة بدت باهتة أمام اضطهاد الكنيسة لمخالفيها من "الهراطقة" في وقت لاحق، وقد رأينا أنّ الكنيسة المسيحية، في مجهودها الذي بذلته لجعل عقائد الناس كافةً مطابقة لعقائدها، كانت أول مَن ابتدع الاضطهادات الدينية، الأمر الذي لم يكن معروفاً من قبل بين الوثنيين في العالم اليوناني-الروماني[٤].

ومن ذلك أنه في العام (١٩٠م)، وتحت طائلة الخروج عن المسيحية الكاثوليكية، أوجب أسقف روما فيكتور على مسيحيي آسيا الصغرى التخلي عن احتفالاتهم بعيد الفصح وفق التقويم اليهودي والالتزام بدلاً من ذلك بالتقاليد الرومانية!.

ثم بعد مؤتمر نيقية في العام (٣٢٥م) أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية، وبعد هذا التاريخ، وتحت السلطة الرسمية للكنيسة، لم يبقَ أي مجال للتسامح أو حرية للدين والمعتقد، فرجال الدين المسيحيين الذين كانوا يعانون الاضطهاد من الشرطة صاروا الآن يقودونها، وكل مَن خالفَ أو رفضَ القبول بعقيدة نيقية وُصمَ بالهرطقة وآلَ مصيرُه إلى الاستئصال[٥].

ونلاحظ أنه في تاريخ لاحق قادت الكنيسة حروباً صليبية ضد "هراطقة" آخرين في المشرق لم يجاريها في قسوتها أي من أباطرة روما، ومن ذلك أنّه في الحملة الصليبية الأولى التي دعا إليها البابا أوربان الثاني Urban ii دخل مسيحيو أوروبا القدس عام (١٠٩٩م) وقتلوا عشرات الألوف من السكان غير المحاربين[٦]، ثم بعد ذلك بقرن من الزمن نفّذ البابا إنوسنت الثالثInnocent iiiحملة صليبية ضد حركة "الهراطقة" الألبية Albigensians في جنوب فرنسا (١٢٠٩-١٢١٣م) جاعلاً منها أرضاً محروقة، وانتهت بقتل مئات الألوف الأبرياء من السكان لم يكن ذنبهم سوى أنهم رفضوا الطقوس ورفضوا سلطة

الكنيسة وطبقاتها الكهنوتية [٧] . وعندما سُئِلَ سيمون مونتفورت قائد الحملة الفرنسية الذي ذبح أهالي بيزييه Beziers كيف يمكن للجنود أن يميّزوا بين "الهراطقة" وبين غيرهم المسيحيين أجاب بقوله الشهير: (اذبحوهم جميعاً فالله يعرف خاصّته)[٨].

وفي العام (١٢٥٢م) أنشأ البابا إنوسنت الرابع Innocent iv نظاماً معتمَداً للقهر، إذ وافق على سنّ قوانين التعذيب للحصول على "الاعترافات" من المشتبه "بهرطقتهم"، ثم في العام (١٥٥٥م) عندما فزِع البابا بولس الرابع من انتشار البروتستانتية أنشأ نظاماً نشِطاً لملاحقة المنشقين، ولم يستثنِ من ذلك الأساقفة والكرادلة، كما نشرَ فهرساً بالكتب الممنوعة التي اعتبر أنّها تسيء إلى العقائد" الصحيحة."

وفي العام (١٥٣٦م) غامر الإنكليزي وليام تايندل Tyndale بترجمة الكتاب المقدس إلى الإنكليزية -مستفيداً من ثورة البروتستانت- فلاقى معرضة مريرة من الكنيسة حتى أعدمته علناً حرقاً بالنار، وفي العام (١٥٢٠م) قام الألماني مارتن لوثر Luther بترجمة الكتاب المقدس إلى الألمانية مما سبب له الطرد والحرمان من الكنيسة واعتبره البابا فاسقاً ، ولم تتمكن الكنيسة من إعدامه لأن أحد أمراء المقاطعات الألمانية بسط له الحماية، وفي العام (١٦٣٣م) قامت محاكم التفتيش المنبثقة عن الكنيسة الكاثوليكية بإدانة الفلكي الإيطالي جاليليو Galileoفحكموا عليه بالسجن المؤبد بتهمة الفسوق والهرطقة لاعتقاده أن الأرض تدور حول الشمس، ولم تعتذر البابوية عن ذلك إلا بعد مرور ثلاثمئة وستون عاماً إذ أصدر البابا مرسوماً في العام (١٩٩٢م) يعترف فيه بالخطأ .

أما محاكم التفتيش الإسبانية فتأسست بقرار من البابا في العام (١٤٧٨م) وحاكمت العديد من اليهود بتهمة اعتناق المسيحية عن غير اقتناع، وفي العام (١٥٠٢م) تحوّل نشاط المحاكمات نحو مسلمي الأندلس، ثم في العام (١٥٢٠م) التفتت نحو المشتبه بقبولهم العقيدة البروتستانتية، ومن جانبهم برهن

البروتستانت في مناطقهم أنهم لا يقلّون عن الكنيسة الكاثوليكية في عمليات القمع والقهر "الديني."

٤ – يوحنا العرّاف و"الرؤيا:"

ومع كل ذلك حرصت الدعاية في أوقات لاحقة على انتقاء نيرون دون غيره باعتباره المضطهِد الأكبر للمسيحية، فقد اتهموه مع أحد سابقيه وهو الإمبراطور كاليجولا بأنّ كلاًّ منهما هو المقصود بالوحش المشار له في رؤيا يوحنا، أي عدو المسيح Anti-Christ بمعنى العدو الأكبر للمسيحية أو المسيح الدجال[٩]، وإذ حرصت الكنيسة على التمسك بنبوءة كلّ من بولس ويوحنا عن نهاية التاريخ فهي لم تيأس بالتالي من البحث عن "وحش الرؤيا" العدو الرهيب للمسيح، لدرجة أنهم أوجدوا على مرّ العصور وفرة لا يستهان بها من المرشحين لهذا اللقب تراوحوا على مدىً واسع من الشخصيات المتناقضة كالبابا نفسه، كما يعتقد البروتستانت، وحتى صدّام العراق على النقيض الآخر[١٠]، لأنّ العراق يرمز بنظرهم إلى (بابل أم العاهرات ونجاسات الأرض) (رؤيا ١٧/٥)، وقد بلغ هذا التفكير ذروته قبل وبعد حرب الكويت.

كان يوحنا مؤلف "الرؤيا" أحد المسيحيين القاطنين في روما وقت الحريق الشهير ومن الذين تمكنوا من النجاة من وحشية نيرون، وقد اعتقد يوحنا أنّ الكارثة التي لحقت بإخوانه مؤشّراً واضحاً على النهاية التي تنبأ بها بولس والتي كان الجميع بانتظار تحققها، فكتب في "رؤياه" (لأن الوقت قريب) (رؤيا ١/٣) يقصد النهاية الوشيكة التي كان مفترضاً أن تقع أيام بولس بحسب نبوءته.

كتب يوحنا "رؤياه" في مناخ فكري هيمنَ عليه استبطاء تحقق نبوءة بولس بالإضافة للبلاء الذي أصاب المسيحيين في روما، ممّا أشعل الآمال والتوقعات بالمجيء الثاني للمسيح بعد مضيّ ثلاثين عاماً على غيابه، فقد رفضَ يوحنا القبول بالحقيقة المرّة، وتخيَّلَ المجيء الثاني في "رؤياه" واصفاً إيّاه: (هوَ ذا يأتي

مع السحاب وستشاهده كلُّ عين بمن فيهم الذين طعنوه) (رؤيا ١ /٧)، يقصد حتمية مجيئه خلال حياة الذين "طعنوه"! واقتضى في رؤياه أن يعود المسيح على صورة الملك-المحارب الذي يبيد أعداءه الرومان، إذ كانت روما أول من وُصَم بأنها الوحش المقصود في الرؤيا، باعتبارها مضطهدة المسيحية حتى رمزوا لروما بلقب "عاهرة بابل الرهيبة"، وعلى ذلك وبالنسبة إلى فكر يوحنا لم يكن هنالك بدّ من عودة المسيح منتقماً لإبادة ليس الرومان فحسب وإنما البشرية بكاملها بحيث لا يبقى من البشر سوى (١٤٤٠٠٠) شخص من النخبة اليهود وهم الذين خُتمت جباههم بعلامة النجاة (رؤيا ٧/١-٨)، وعلى هذا النحو كتب يوحنا رؤياه التي اقتطفنا منها بعض الفقرات أعلاه، والطريف أن هذا النمط من التوقعات تكرر عبر التاريخ في مناسبات كثيرة، ولا زال يتكرر إلى يومنا هذا.

وصمَ يوحنا روما بأنها العاهرة الكبرى، المرموز لها ببابل (أم العاهرات ونجاسات الأرض)، وفي الرؤيا صوّرَ روما على أنها امرأة تزني مع وحش ذي سبعة رؤوس، إشارة إلى سبعة من أباطرة روما، ابتداءً من الإمبراطور أغسطس Augustusوانتهاء بالحكم القصير الأمد للإمبراطور أوتو Otho بالعام ٦٩م، مما يضع تاريخ تأليف "الرؤيا" مباشرة بعد سقوط الإمبراطور السابع أوتو (يناير- أبريل ٦٩م) أو خلال حكمه (رؤيا ١٧/١-١١)، غير أنه في وقت مبكر جداً -لم يكن يوحنا يتخيله- برهنت الأحداث على الخطأ السافر لنبوءته، فبعد عام واحد فقط من تأليفه "الرؤيا" دمّر الرومان القدس والمعبد تدميراً تامّاً.

كان وصم روما بأنها "العاهرة الكبرى"، ونبوءة يوحنا بإبادة البشرية، ذات مغزى كبير من حيث أنه أبرز مشاعر يوحنا المعادية ليس فقط للرومان وإنما للبشرية بكاملها، فالحقد الذي بدا سافراً في رؤياه يصنّفه مع فئات المتطرفين شديدي التعصب، وعلى فرض أن مشاعره كانت نموذجاً لمشاعر باقي المسيحيين من أتباع بولس، على الأقل في روما العاصمة، فقد يفسر ذلك السبب الذي من أجله اختار نيرون أن يعاقب المسيحيين دون غيرهم بتهمة

الحريق، وفي ذلك كتب المؤرخ الروماني تاسيتوسTacitus أن المسيحيين اعتُقلوا في روما بعد الحريق بسبب تطرفهم الواضح وعداوتهم لغير المسيحيين مما جعلهم مرشحين لتهمة إحراق روما بداهةً (١١) ، وقد يكون أن يوحنا عبَّر عن خلاصة مشاعرهم في رؤياه، بما فيها توْقه لهلاك البشرية بكاملها في بحيرة من النار والكبريت، باستثناء (١٤٤٠٠٠) من مُختاريه!

وفي الوقت نفسه، وعلى النقيض الآخر من مشاعر يوحنّا العدوانية تجاه روما، نقرأ ما كتبه بولس في رسائله من الحض على طاعة السلطة الحاكمة باعتبارها منبثقة من الله حسب قوله: (ليخضع كل فرد للسلطة الحاكمة، لأنه لا سلطة إلا من الله، والسلطات الموجودة أوجدها الله، ولذا فكلّ من يقاوم السلطة يقاوم أمر الله، ومَن يقاوم يستوجب على نفسه اللعنة) (رسالة بولس إلى أهل رومية ١٣/١-٢)، ولا يفوتنا ملاحظة أنّ يوحنا وبولس كلاهما كتبا هذه الأفكار المتباينة في عهد الحاكم نفسه وهو نيرون الإمبراطور، ثمّ بعد ذلك بحوالي خمسة عقود من الزمن اتّخذ لوقا، مؤلف سفر أعمال الرسل، الموقف الممالىء نفسه للسلطة الحاكمة لدرجة أنه قدّم سفريْه: أعمال الرسل، وسفر لوقا، إلى "المحترم ثيوفيلس most excellent Theophilus" وهو كما يبدو أحد المسئولين الرومان (أعمال الرسل ١/١)، (لوقا ١/٣).

٥- إنقاذ المؤمنين جواً Rapture:

كان عدد الأفراد البالغ ١٤٤٠٠٠ فقط المفترض نجاتهم من كارثة هرمجدون الرهيبة بحسب سفر الرؤيا مصدر قلق جدي بل بمثابة كابوس مخيف للكثير من المؤمنين، ناهيك عن كون الموضوع برمته مصدر حرج كبير للكنيسة، ولمجابهة هذه المشكلة وجد الوعاظ الأصوليون المسيحيون في الغرب حلاً مناسباً لطمأنة جماهيرهم المؤمنة، وهذا الحل يضمن إنقاذ المؤمنين "المولودين ثانية" بحيث يرتفعون لملاقاة المسيح العائد في الجو قبل حدوث كارثة هرمجدون الرهيبة على الأرض، وهو ما أطلقوا عليه تعبير "الرفع للجو Rapture"، وقد استندوا في ذلك

على عبارة وردت في رسالة بولس الأولى إلى أهل تيسالونيكي قال فيها: (لأن الرب نفسه -عيسى- سوف يهبط من السماء وقتما يهتف بذلك كبير الملائكة وينفخ في بوق الله، فالأموات في المسيح يقومون أولاً -من قبورهم- ثم نحن الأحياء الباقون سنرتفع معهم في السُحُب لملاقاة الرب في الهواء، وهكذا نكون مع الرب إلى الأبد) (رسالة بولس الأولى إلى أهل تيسالونيكي ٤/١٦-١٧)، ومن ثم فليس من مبرر لقلق المسيحيين "المولودين ثانية" فيما يتعلق بالنهاية الرهيبة التي سوف تحل في باقي البشرية: (لذلك طمئنوا بعضكم بعضاً بهذا الكلام (رسالة بولس الأولى أهل تيسالونيكي ٤/١٨)[١٢].

٦ - التراث الذي تركه يوحنا العرّاف للشرق الأوسط:

يمكن للمرء الاستنتاج أنّ "الرؤيا"، كانت تمثل -وقت كتابتها- مشاعر فئات من المسيحيين تجاه روما جُلّهم من المحرومين والمُعدَمين والمتذمّرين والناقمين والمعادين للسلطة الرومانية وحتّى القابلين منهم للاشتراك في عمليات تخريب أو عصيان مسلح، وقد ناقضَ مسيحيون آخرون من أتباع بولس مشاعر هؤلاء إذ قبلوا كتابات بولس بوجوب الخضوع للسلطات الحاكمة المتجسّدة في نيرون نفسه في ذلك الوقت باعتبار أنه معيَّن من الله، وقد يكون أنّ بولس كتب مرئياته بغرض تهدئة أتباعه ولتجنب الاحتكاك مع السلطات الرومانية ولإعطاء السلطة الانطباع أن المسيحيين مواطنون مسالمون يتقيدون بقوانين السلطة الحاكمة.

تمت كتابة "الرؤيا" بعد حريق روما كما رأينا، وقطعاً قبل أن يدمّر الرومان القدس في العام ٧٠م، لأن أقصى ما توقعه المؤلف في "رؤياه" ألاّ يتم تدمير سوى عُشر المدينة (رؤيا ١١/١٣)، كما تنبأ أيضاً أن يبقى معبد القدس سالماً (رؤيا ١١/١-٢)، وتلك من جملة نبوءاته التي ثبت خطؤها الفاضح.

والملفت للنظر أنّه رغم الفشل السافر لنبوءات كل من بولس ويوحنا عن المجيء الثاني ونهاية التاريخ، ورغم أنّ مسيحية بولس -المرتكزة على هذه

النبوءات- لم تكن مقصودة للأجيال القادمة، فقد تمكنت المسيحية من الانتشار ليس فقط في العالم اليوناني-الروماني لذلك الحين، بل لأجيال قادمة على مستوى العالم كله تقريباً! والأكثر عجباً أن المسيحية الغربيةلم تيأس حتى يومنا هذا من تحقق المجيء الثاني، وحتى في أمريكا القرن العشرين نجد أنّ ما لا يقل عن ٥٣ بالمئة من سكان الولايات المتحدة -بمن فيهم الرئيس الأسبق ريجان- يؤمنون بأنّ المجيء الثاني للمسيح ونهاية التاريخ على وشك الحدوث[١٣]، فلا غرابة والحالة هذه أن يتمكن هال ليندسي Hal Lindsey من بيع عشرين مليون نسخة من كتابه "كوكب الأرض العظيم الفائت" والذي يجدد فيه النبوءة بنهاية التاريخ ويجزم أن العالم حالياً يعيش في مناخ مُهيّأ لظهور عدو المسيح الأكبر[١٤] Anti-Christ .الذي رمزت له "الرؤيا" برقم (٦٦٦) (رؤيا ١٣/١٨).

والمثير للدهشة في نبوءات المجيء الثاني ونهاية التاريخ والمشاعر المترتبة عليها، أنها كانت العامل المؤثر تاريخياً في تكييف مشاعر وسلوك المسيحيين -في نصف الكرة الغربي- تجاه الشرق الأوسط وسكانه.

ومن ذلك إعلان البابا أوربان الثانيUrban ii ، في العام ١٠٩٥م، أن الحملة الصليبية الأولى كانت قدَراً من الله يهدف لتحقيق انتشار المسيحية في هذه الأزمان الأخيرة، وبحيث عندما يظهر عدو المسيح -ولا بد له من الظهور عاجلاً- فسوف يجد هنالك ما يكفي من المسيحيين لقتاله[١٥].

ويُطلق اليوم في الغرب تعريف "المسيحيين الأصوليين" على المؤمنين منهم بحتمية "المجيء الثاني للمسيح" وبأنّ "نهاية التاريخ" والمجيء الثاني أوشكا على الحدوث، وقد كانت العقلية الأصولية في نصف الكرة الغربي، بالإضافة لإقحام اليهود في تصوّر المجيء الثاني، عاملاً أساسياً في تكييف سياسة الغرب تجاه المشرق وفي الكوارث التي لحقت وتلحق بمنطقة الشرق الأوسط.

٧ – التراث الذي تركه يوحنا العرّاف لفلسطين:

بعد مرور قرابة ألفيْ عام على رحيل يوحنا، واستناداً على "رؤياه"، لا يـزال المسيحيون الأصوليون في نصف الكرة الغربي مقتنعـين مـع أتبـاعهم بـأن نشـوء إسرائيل في فلسطين كان مقدّمة حتمية لا بدّ منها لتحقّق المجيء الثـاني ونهايـة التاريخ، فالكثير من الأمريكيين الذين كانوا في السابق معادين لليهودية بحجة أن اليهود رفضوا المسيح وقتلـوه -بزعمهـم- تحوّلـوا إلى أنصـار متحمسـين لليهـود ولإسرائيل نظراً للدور المفترض أن يلعبه اليهود في خطـة المجـيء الثـاني وتحقـق النبوءات.

يمكن تلخيص العقلية المسيحية الأصوليـة الغربيـة بإيجـاز بالعبـارة التاليـة: (لا يمكن للمسيح أن يعود مـا لـم تكـن هنـالك إسـرائيل يمكنـه العـودة إليهـا)[١٦]، وبعبارة أخرى، وحيث صارت إسرائيل حقيقـة واقعـة، فقـد بـدأ العـدّ التنـازلي لنهاية العالم، وفي كتابها الرائـع "النبـوءة والسياسـة"Prophecy & Politics" فصّلت الكاتبة الأمريكية البارزة جريس هالزل Grace Halsell معلومات دقيقـة ومذهلة حول الموضوع، والكاتبة، وهي صحفية أيضـاً، سـبق أن عملـت كاتبـة خطابات للرئيس الأمريكي الأسبق جونسون.

يؤمن الأصوليون المسيحيون في أمريكـا إيمانـاً شـديداً أن اليهـود شـعب الله المختار، وأن الله تعـالى أعطـاهم الأرض المقدسـة: فلسـطين، وأنـه تعـالى يبـارك الذين يباركون اليهود ويلعن الذين يلعنونهم، والأصوليون الغربيون كـأجدادهم منذ ألفي عام لم يداخلهم اليأس إطلاقـاً مـن تحقـق نهايـة فوريـة للتـاريخ، هـذه النهاية التي ستبدأ بمعركة تل مجدّو في فلسطين المفترض أن تكون المعركة النهائية والفاصلة بين قوى الخـير بقيـادة المسـيح العـائد وبـين قـوى الشـر بقيـادة عـدو المسيح، وبالطبع سيخرج المسيح من المعركة الرهيبة ظافراً، وبنتيجة هـذا النصـر الحاسم سوف يقيم مملكة الله على الأرض فعليّاً وليس مجازاً، ثم يحكمها بنفسـه لمدة ألف عام من مقر قيادته في القدس! ولا بد لليهود عندئذٍ من الإقرار بعيسـى

مسيحاً لهم فيتحوّلون إلى المسيحية، ويشتركون مع المسيح في حكم العالم خلال تلك الألفية السعيدة التي سيُقيّد فيها الشيطان لمدة ألف عام! وليس مفهوماً السبب الذي من أجله سوف يتم إطلاق الشيطان ثانيةً في نهاية الألفية كي يعود لخداع العالم في "أركان الأرض الأربعة" (رؤيا ٢٠/٨)!

لقد أصبح الوعظ بلاهوت تل مجدّو الشغل الشاغل ليمين المسيحي الأصولي الأمريكي في هذا العصر، فمن خلال شبكة هائلة من مئات الإذاعات وقنوات التلفزيون يقوم عشرات الألوف من الوعّاظ الأمريكان في الكنائس وعلى الإذاعات والتلفزيون ومدارس الأحد بالتغلغل في قلوب وعقول عشرات الملايين من الأمريكيين، أما لاهوت تل مجدّو فمشتق من "رؤيا" يوحنا ويتلخص كما يلي: [١٧] نهاية العالم أوشكت على الحدوث بعد تحقق الشرط اللازم لوقوعها وهو إنشاء إسرائيل، ولم يبقَ سوى أن يعود المسيح بصورة الملك-المحارب فيسحق أعداءه في معركة تل مجدّو الرهيبة، أما دور المؤمنين في الوقت الحاضر فهو المساهمة بتسريع تحقق الأحداث المتوقعة والتمهيد لإنشاء مملكة الله على الأرض التي سيكون المسيح على رأسها، والمخيف أن العديد منهم يحبّذ حصول كارثة نووية كأنسب وسيلة لتحقيق المجيء الثاني بأقصى سرعة! ومِن هؤلاء مَن بيدهم مقاليد الأمور كمثل الرئيس الأسبق ريجان مثلاً، ويجد الواعظون بهذ المخطط البهجة خلال مواعظهم في وصف الفظائع التي ستحدث خلال معركة تل مجدّو، ويتحدثون عنها بإسهاب أمام جمهورهم سريع التصديق! ومن هؤلاء الوعّاظ الأصوليون أسماء شهيرة مثل جيري فالويل، وجيمي سواجارت، وبات روبرتسون، وهال ليندسي[١٨].

والمخيف أيضاً أنّ زعماء الأصوليين يتغلغلون في السياسة الأمريكية لدرجة أنّ الواعظ الأصولي الشهير بات روبرتسون Pat Robertson رشّح نفسه للرئاسة الأمريكية عام ١٩٨٨، وكان قد شارك شخصياً في هجوم إسرائيل على لبنان العام ١٩٨٢ [١٩] والمشهور عن أمثال هؤلاء اعتقادهم أن ليس هناك

ما يخشاه المرء من انتشار الأسلحة النووية، ولا من إمكانية اشتعال حرب عالمية ثالثة بنتيجة نشوء إسرائيل، لأن مثل هذه التطورات مرغوبة لكونها جزءاً من مخطط إلهي من شأنه تسريع عودة المسيح! فالأصوليون لا يؤمنون بضرورة العمل من أجل السلام، بل قبول الحرب كأمر لا مفر منه تحقيقاً لإرادة الله -حسب زعمهم-، ومن ذلك أن وزير الداخلية الأمريكي الأسبق جيمس واط James Wattصرّح أمام مجلس النواب أنه باعتبار العودة الوشيكة للمسيح ونهاية العالم فليس من مبرر للقلق على البيئة، ولا التذمر من تخريب الموارد الطبيعية(٢٠).

ومن جهته حدد الواعظ جيري فالويل نبوءته بدقة فقال: (لا أظن أنّه لدينا خمسون عاماً من الوقت، ولا أعتقد أن أولادنا سيعيشون حياتهم بأكملها)(٢١)، ومنذ عام (١٩٧٠) دأبَ بيلي جراهام على إنذار جمهوره بقوله: (إنّ العالم يسير حالياً بسرعة نحو معركة تل مجدّو) و (أنّ الجيل الحالي من الشباب قد يكون آخر أجيال التاريخ)، وقال للرئيس الأسبق ريجان بأنّ (عيسى المسيح على الأبواب وقد يعود في أية لحظة) ، أما جيري فالويل فقد روى أن الرئيس ريجان قال له: (جيري: أشعر أحياناً أننّا نتجه الآن بسرعة نحو معركة تل مجدّو)، أما هال ليندسي فقد باع عشرين مليون نسخة من كتابه "كوكب الأرض العظيم الفائت" الذي زعم فيه أن العدّ التنازلي لنهاية التاريخ قد بدأ منذ نشوء دولة إسرائيل، وفي روح مشابهة لما كتبه يوحنا في رؤياه زعم هال ليندسي أن المسيح العائد سوف يحرق الأرض بسكانها باستثناء (١٤٤٠٠٠) يهودي سوف يتم إنقاذهم! (٢٢).

والأدهى من ذلك أن ريجان وقتما كان حاكماً على ولاية كاليفورنيا طلب من الواعظ بيلي جراهام أن يخطب في مجلسيْ الولاية التشريعيين ما يسمّونه خطاب الوضع العام للولاية، وكان ذلك في تموز من العام (١٩٧١)، وبعد الخطاب وجه ريجان السؤال التالي إلى جراهام قائلاً: (هل تعتقد أن المسيح

سيعود عاجلاً؟) فأجابه جراهام: (كل المؤشرات أنه على الأبواب وقد يعود في أية لحظة!) فوافقه ريجان وكان مسروراً من إجابته ثم قال: (لقد تحققت جميع النبوءات التي يجب أن تسبق تل مجدّو.. كل شيء يحدث كما هو متوقع، ولا يمكن للنهاية أن تكون بعيدة بعد اليوم).

وأثناء حملته الانتحابية لرئاسة الولايات المتحدة عام (١٩٨٠) خطب ريجان في جمع من زعماء اليهود قائلاً: (إسرائيل هي النظام الديموقراطي الوحيد الذي يمكننا الاعتماد عليه بحيث يمكن لمعركة تل مجدّو أن تتحقق)، ثم عندما أصبح رئيساً طلب من الواعظ جيري فالويل حضور اجتماعات مجلس الأمن القومي لمناقشة كبار القادة العسكريين في خطط الحرب النووية مع روسيا، كما وافق ريجان على أن يخطب هال ليندسي مؤلف كتاب "كوكب الأرض العظيم الفائت" أمام مخططي وزارة الدفاع الأمريكية -البنتاجون- حول احتمالات نشوب الحرب النووية مع روسيا، ويؤمن الوعّاظ الأصوليون من أمثال جيري فالويل وهال ليندسي وبات روبرتسون أن المجيء الثاني لن يتحقق إلا بعد سلسلة من الكوارث والفوضى الاجتماعية والانهيار الاقتصادي وحرب نووية في تل مجدّو.

وفي العام (١٩٨٣) استخدم ريجان تعبير "الإمبراطورية الشريرة" إشارةً إلى الاتحاد السوفييتي بمعنى أن السوفييت من قوى الشر التي تدعم قوى الظلام التي سوف تحارب تحت لواء الوحش عدو المسيح في معركة تل مجدّو الرهيبة، حيث يُفترض في تلك المعركة أن تقاتِل إسرائيل وحلفاؤها من قوى الخير -كذا- إلى جانب المسيح عند مجيئه الثاني.

وحيث وضعَ الرئيس الأسبق ريجان معركة تل مجدّو نُصبَ عينيه فقد وجدَ من واجبه الديني العمل على زيادة الجبروت العسكري الأمريكي استعداداً للمعركة الرهيبة، وليس من شكّ في أنّ عقيدة ريجان بقرب انتهاء التاريخ في تل مجدّو كان لها الأثر الأكبر في توجيه سياسته الاقتصادية وسياسة التسلح

والإنفاق العسكري الأمريكي، فخلال فترتين متتاليتين من رئاسته تفاقم عجز الميزانية الفدرالية إلى مستوى مذهل لم يسبق له مثيل في تاريخ أمريكا، وقد انبثقت سياسة ريجان الاقتصادية المبنية على الإنفاق التضخمي من اعتقاده بعدم وجود مبرر للقلق من تفاقم الدين العام ما دامت "الخطة الإلهية" اقتضت نهاية التاريخ في العاجل، ثم إن الإنفاق تركّز على التسلح باعتباره الوسيلة المثلى لضمان المستقبل، في الوقت الذي تم فيه تخفيض الإنفاق على البرامج الاجتماعية المحلية، وفي ذلك قال ريجان: (لا يمكن لمعركة تل مجدّو أن تحدث في عالم مجرّد من السلاح)[٢٣].

وعندما يستعيد المرء أحداث الماضي القريب يُصاب بالذعر كيف أن أقوى أمة على وجه الأرض متحالفة مع إسرائيل آمنَ رئيسها بلاهوت تل مجدّو، وتطلّعَ واستعدّ بجد ونشاط لتحقيق النهاية الرهيبة، فلم يكن أقل من معجزة أن انتهت ولاية ريجان دون انفجار حرب نووية بسبب "نبوءات" أصرّ أصحابها على تحقيقها قسراً.

والملاحظ أنّ مَن يعتبرون أنفسهم حجّاجاً إلى فلسطين مِن المسيحيين الأمريكيين الأصوليين يضعون على صدورهم لوحة صغيرة كُتب عليها: (نحن نحبك يا إسرائيل، لأن الله يحبك)[٢٤]، والواضح أنّ الوعاظ الأصوليين من أمثال جيري فالويل نجحوا في أن يجعلوا من "رؤيا" يوحنا نوعاً من التقديس لإسرائيل، في حين أنها ليست سوى ميثولوجية عملت على تشويه رسالة المسيح بشكل سافر، والنتيجة البحتة لكل ذلك أن الأصوليين المسيحيين في الغرب جعلوا من تقديس إسرائيل ديانة جديدة لهم تعلو على ديانة المسيح الحقيقية، فقد تعمّد الوعاظ الأصوليون ونجحوا في أن يجعلوا من "رؤيا" يوحنا وسيلة هائلة لمساعدة إسرائيل[٢٥]، فكان أن تكيفت السياسة الأمريكية نحو الشرق الأوسط عموماً ونحو فلسطين خاصة لدرجة أن جعلت مصير أمريكا مرتبطاً بمصير إسرائيل، وقد قالها فالويل بلا مواربة: (لو أهملنا حماية إسرائيل فلن يكترث بنا الله)،

وبعبارة مختصرة ومبسّطة: فإن إسرائيل هي العمود الفقري للعقيدة المسيحية الأصولية -في الغرب- ومن دونها تنهار هذه العقيدة.

وفي آب من العام (١٩٨٥) لخّص الواعظ الأصولي التلفزيوني الأمريكي الشهير بات روبرتسون موقف الأصولية المسيحية في أمريكا تجاه إسرائيل والشرق الأوسط بقوله: (إن المسيحيين الأصوليين يحترمون العرب ويهتمون بهم، ولكن هذا الاحترام والاهتمام يتلاشى نحو الصفر إذا قيسَ بمشاعرنا تجاه إسرائيل)[٢٦].

والمحزن أن مقالة بات روبرتسون هذه عبّرت تماماً وبشكل دقيق عن السياسة الأمريكية الرسمية تجاه فلسطين، ففي نيسان من العام (١٩٩٨م) صرح مارتن إنديك مساعد وزير الخارجية الأمريكية بما يلي: (إن تعبير "الوسيط المتوازن" ، بين إسرائيل والعرب، لا وجود له في القاموس السياسي الأمريكي، لأن العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل خاصة جداً)[٢٧]، وبنتيجة هذه العلاقة الخاصة جداً تضع أمريكا بتصرف إسرائيل مواردها الاقتصادية الهائلة وآلتها الحربية الضخمة لدعم العدوان الإسرائيلي المستمر على الشعب الفلسطيني والشعوب العربية من حولها، ويكفي أن تعلم أن مارتن إنديك كان قد عمل ضابطاً في الجيش الإسرائيلي واشترك في حرب عام ١٩٧٣م ضد العرب ثم هاجر من إسرائيل إلى أمريكا عام ١٩٩٣م، ثم أصبح سفيراً لأمريكا في إسرائيل عام ١٩٩٥م ثم مساعداً لوزير الخارجية الأمريكية[٢٨].

ليس هذا فحسب بل إنه بعد أحداث ٢٠٠١/٩/١١م الترويعية الرهيبة في نيويورك دعا الواعظ الأصولي بات روبرتسون اتباعه لصلاة (كي يمنع الرب انتشار الإسلام في أمريكا) كما قال: (إن الإسلام دين تخلف ورق وعبودية) وأضاف (إن العالم الإسلامي مرتع لعمل الشيطان)[٢٩].

وعودة إلى تل مجدّو، فقد يتساءل المرء باستغراب: لماذا تل مجدّو؟ وما هو الشيء الخاص جداً بهذا الموقع بفلسطين المفترض أن تقع فيه معركة كونية رهيبة لإفناء البشرية؟ تل مجدّو بالكنعانية -والعربية طبعاً- تعني هضبة مجدّو،

والهضبة في العبرية "هَر" لذا يقولون هَرمجدّو أو هَرمجدّون Armageddon، وهذا التل كان موقعاً استراتيجياً على مسافة ثلاثين كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من مدينة حيفا اليوم، وفي القرن العاشر قبل الميلاد كانت تربض عليه قلعة كنعانية(٣٠)، ويبدو أن احتلال العبرانيين لهذه القلعة والمعارك الضارية التي جرت مع الكنعانيين، وبعدها مع المصريين للدفاع عن القلعة، ومنها المعركة التي قُتل فيها الملك اليهودي جوشيا Josiah في العام (٦٠٩ ق م) وهو يحاول الدفاع عن القلعة ضد المصريين(٣١)، ممّا أدّى إلى ذكريات مريرة عند اليهود استمرت لقرون عديدة، إلى أن قرر يوحنا مؤلف "الرؤيا" -وهو يهودي من أتباع بولس- أن يُخلّد الذكريات اليهودية عن تل مجدّو بطريقته الخاصة!

ومن الطريف في العصر الحديث أن الجنرال البريطاني اللنبيAllenby ، عندما كان قائداً للقوات البريطانية في فلسطين خلال الحرب العالمية الأولى، تمكّن في أيلول (١٩١٨م) من قطع خطوط التراجع للجيش العثماني المنهزم بشمال فلسطين، ويبدو أنّ هذا الجنرال كان على معرفة وثيقة برؤيا يوحنا ومؤمناً بها لدرجة أن لم تفتْه الفرصة لإطلاق اسم تل مجدّو على المناوشات التي جرت بينه وبين العثمانيين خلال انسحابهم، ولسنا ندري إن كان فَعَل ذلك احتراماً وإعجاباً بذكرى تل مجدّو، أم كان من المؤمنين بحتمية المعركة الكونية الرهيبة القادمة بحسب نبوءة يوحنا!!(٣٢).

ومن الجدير بالذكر أن الجنرال اللنبي كان يقود خلال هذه المناوشات كتيبتين بريطانيتين جميع جنودهما من اليهود المتطوعين(٣٣).

٨- التراث الذي تركه يوحنا العرّاف للعراق:-

أما وصم بابل العظيمة بأنها "أم العاهرات ونجاسات الأرض" فلا يقل غرابةً وشذوذاً عن لاهوت تل مجدّو! والعجيب أنه منذُ وَصَمَ يوحنّا بابل بهذا اللقب أصبحت عندهم إلى الأبد رمزاً لكل رذيلة ولكل شيء بغيض على وجه

الأرض، وليس من شك أن يوحنا كان متشرّباً روح العهد القديم في النص الحاقد الذي يتحرّق كاتبُه لسحق رؤوس الأطفال البابليين بالحجارة: (طوبى لِمَن يجازيكِ -يا بابل- كما جازيتِنا، طوبى لِمَن يُمسِك أطفالك ويسحقهم على الصخور) (مزامير ١٣٧/٨-٩).

في العام ٥٩٨ق م، أي قبل زمن يوحنا بأكثر من ستة قرون، استولى نبوخذ نصّر ملك الكلدان على القدس بعد حصار دام ثلاثة شهور، فكان رفيقاً متسامحاً في تعامله مع اليهود المهزومين لدرجة أنه لم يقرَب معبدهم واكتفى أن أخذ الملك اليهودي يهواشين Jehoiachin وحاشيته إلى نفي مريح في بابل مع تكريمهم، ولكن سدقيا الملك اليهودي الجديد الذي عيّنه البابليون في القدس ثار مرة ثانية على أسياده فكان أن دمّروا القدس، والمعبد، وأخذوا سدقيا والكثير من كبار القوم إلى بابل مكبلين بالحديد ولم يتركوا بالقدس سوى فقراء اليهود، ثمّ استمر الأسر البابلي -كما صار يُعرف- ثمانية وأربعين عاماً(٣٤).

ولم يتمكن اليهود من العودة إلى القدس إلا ببادرة كرم من قورش ملك الفرس الذي هزم البابليين واستولى على بابل عام (٥٣٩م) وأمر بعودة المنفيين اليهود إلى القدس، وهذا الأمر بدوره يفسّر السبب الذي من أجله أسبغ العهد القديم على قورش لقب المسيح! رغم أن قورش كان وثنياً! ومن نافلة القول أن الأسر البابلي لم يكن ليبرّر حقداً يهودياً أبدياً ضد بابل لقرون طويلة قادمة سوى أنهم خلّدوه في العهد القديم.

ولكن مِن سخريات القدر أنه منذ قام يوحنا بِوَصْم بابل في "رؤياه" باللقب البغيض "أم العاهرات ونجاسات الأرض" أصبحت بابل العراق مرتبطة فوراً في أذهان اليهود والمسيحيين الأصوليين -في الغرب- بكل أوصاف الرذائل والطغيان والاضطهاد والفساد، حتى أن القديس أوغسطين نفسه، في اعترافاته عن أيام صباه، كتب: (انظروا مع أي نوع من الناس رتعت في شوارع بابل، وكيف تمرغتُ في وُحولها كما لو كانت دِهاناً من الطيب والقرفة، فتمسكت

بسرّتها....لأنه كان من السهل إغوائي)، وعن والدته المتدينـة البعيـدة عـن كـل مُجون كتب: (والدتي التي تجري دماؤها في عروقي ابتعدت كثـيراً عـن وسـط بابل)[٣٥].

ومن أكثر الألغاز حيرةً وغموضـاً أن يَعـرف المـرءُ السببَ الـذي مـن أجلـه قررت الكنيسة في القرن الرابع أن تُدرج "رؤيا" يوحنا ضمـن الكتـاب المقـدس! والأكثر غموضاً وحيرةً كيف أن "الرؤيـا"، بعدمـا أصبحـت سـفراً مـن أسـفار الكتاب المقدس، تركت هذا الأثر العجيب الذي لا يُمحى عبر القرون، ليس في العقل الغربي فحسب، وإنما في عملية اتخاذ القرارات عنـد الغربيـين تجاه منطقـة الشرق الأوسط حتى بعد ألفيْ عام من الزمن.

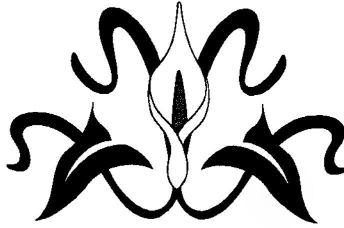
منـذ انتهـاء حـرب الخليـج الثانيـة عـام (١٩٩١م) أبـدت كـل مـن أمريكـا وبريطانيا رغبتها الإطاحة بالنظام العراقي، ولكن النتيجة العملية لسياسـتهما لـم تكن سوى إطالة أمد المعاناة للشعب العراقي، ومن الصعوبة والحالة هـذه اعتبـار ذلك من قبيل المصادفـة، خاصـة إذا تذكّر المـرء أن القـوات الأمريكيـة بعـد أن هزمت العراق فتحت ممراً آمناً للحرس الجمهوري العراقي لكي يصل من بغـداد إلى البصرة خصيصاً لقمع الاضطرابات في الجنوب.

واليوم نجد في الغرب وفرة من الكتب التي تجد علاقة صريحة بين عراق اليـوم وبين بابل "أم العاهرات ونجاسات الأرض" ومنها كتاب شارل تايلورCharles Taylorبعنوان "صـدام بـابل العظيمـة" Saddam's Babylon the Great ، وكتاب شارل دايرCharles Dyer من نـدوة دالاس اللاهوتيـة بعنـوان "صعـود بابل "The Rise of Babylonوعلى غلافـه صـورة صـدام، وحتـى بعـد هزيمـة العراق ذكر شارل داير أنّ العراق قد يبرز من جديد بدور "بـابل أم العـاهرات" وأن صدام نفسه قد يعود للظهور بصورة "وحش الرؤيا" عدو المسـيح[٣٦]، فـلا يستغرب المرء إذاً أن تستمر العقوبات الاقتصادية الصارمة علـى العـراق دون أن تحقق غرضاً سوى معاناة الشعب العراقي.

مراجع الفصل التاسع:

1. (Eusebius HTC p. 88,89,240-243), (Mack WWNT p. 216,288), (Freke & Gandy TJM p.238), (McGinn AntiChrist p.xiv)
2. (Wilson PMA p. 1-13), (see also McGinn AntiChrist p.45-56)
3. (Tacitus AIR p. 365)
4. (Wilson PMA p. 9-10)
5. (Rubenstein WJBG p.223-227), (Freke & Gandy TJM p.243-251)
6. (see Fuller NTA p.33)
7. (see Ben Nabi QP p.192)
8. (Knight & Lomas TSM p.159)
9. (Fuller NTA p. 3), (McGinn AntiChrist p.49-50).
10. (Fuller NTA p. 13,144,159-160)
11. (Tacitus AIR p. 365)
12. (Halsell FGH p. 33-37), (McGinn AntiChrist p. 253-254).
13. (Fuller NTAC p.4)
14. (Halsell PAP p. 9)
15. (Fuller NTA p.33)
16. (Halsell PAP p.124)
17. (Halsell PAP p.10)
18. (Halsell PAP p.28)
19. (Halsell FGH p.92)
20. (Halsell PAP p.10)
21. (Halsell PAP p.35)
22. (Halsell PAP p.30)
23. (Halsell PAP p.40-50)
24. (Halsell PAP p.51)
25. (Halsell PAP p.66)
26. (Halsell PAP p. 67)

27. (Riyadh newspaper 24/4/1998)
28. (Al-Sharq Al-Awsat newspaper 9/4/2001 p.8)
29. Al-hayat 22/11/2001
30. (Halsell PAP p.22)
31. (Rhymer ATB p 53)
32. (Halsell PAP p.22)
33. (Schonfield TMM p.129)
34. (Rhymer ATB p.54-55)
35. (Ryan CSA p.69)
36. (Fuller NTA p. 160,222)



الفصل العاشر

حركة الإصلاح الديني
البروتستانتية
المسيحية عند الغربيين
أو
المسيحية الأصولية
في نصف الكرة الغربي

الفصل العاشر

حركة الإصلاح الديني البروتستانتية المسيحية المتصهينة عند الغربيين أو المسيحية الأصولية في نصف الكرة الغربي

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١/١١٨-١١٩] .

١- الأصولية المسيحية في الغرب:

ظاهرة المسيحية المتصهينة، أو المسيحية الأصولية، ذرّت قرنها في أوروبا في أوائل القرن السادس عشر مع انفجار ثورة الإصلاح الديني البروتستانتية على مسرح الأحداث، فكان مِن شأن النهضة الأوروبية وثورة الإصلاح الديني المذكورة أن مهّدا السبيل معاً لتاريخ الغرب الحديث، ومنذ ذلك الحين بدأ اليهود في البروز عند البروتستانت الغربيين في منظور هام وجديد، بعد أن كانت الكنيسة تعتبرهم أعداءها التقليديين تاريخياً ولقرون طويلة، وهذا المنظور الجديد، وهو منظور متعاطف وداعم لليهود، يتلخص في وجوب "إعادة تجميع" اليهود في فلسطين تنفيذاً "لخطة إلهية" سوف تُتَوّج بالمجيء الثاني للمسيح!

وبنتيجة إقحام اليهود في هذه الخطة وبهذا التصور الجديد تكيفت بالتدريج مفاهيم ومعتقدات البروتستانتية فيما يتعلق بالصهيونية على النحو التالي[1]:

١. الاعتقاد الجازم بالعهد القديم جزءاً من الكتاب المقدس.

٢. التفسير الحرفي –وليس الرمزي– لنصوص الكتاب المقدس.

٣. تجديد الإيمان بالمجيء الثاني للمسيح بحسب نبوءة بولس منذ ألفيْ عام.

٤. ضرورة إنشاء وطن لليهود في فلسطين و"إعادة" تجميع اليهود فيه كشرط مسبق لتحقق المجيء الثاني.

٥. التطلع نحو تحقيق المملكة الألفية السعيدة التي سوف يكون المسيح على رأسها.

٦. التأكيد على واجب المؤمنين العمل على تمهيد الطريق لتحقيق المجيء الثاني بأسرع وقت.

كان مبدأ العودة إلى نصوص الكتاب المقدس أساس الدعوة التي بدأها مارتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦م) في ألمانيا، اعتقد لوثر أن الكتاب المقدس معصوم من الخطأ، في حين أن البابا –خلافاً لِما كان شائعاً حتى ذلك الوقت– معرض للخطأ مثل غيره من البشر، وعلى هذا يلزم أن يكون الكتاب المقدس هو المرجع الأول الذي يجب العودة إليه وليس البابا، ولهذا السبب رأى لوثر وجوب ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات الوطنية المحلية، ليكون في متناول عامة الناس وليس حكراً على النخبة فقط، أو على رجال الدين الذين كانوا حتى ذلك الحين يقرءونه باللاتينية –طبعة الفالجيت -Vulgate أو بالآرامية ، طبعة البسيطة . Peshitta-

وفي حين كان مارتن لوثر يخوض صراعاً مريراً ضد الكنيسة الكاثوليكية في ألمانيا، أمَرَ الملك هنري الثامن في إنكلترا بقطع العلاقات مع البابا وإنهاء الهيمنة

البابوية والكاثوليكية التي استمرت قروناً من الزمن، وفي العام ١٥٣٨ صدر الأمر الملكي البريطاني بتحرير كنيسة إنكلترا من السلطة البابوية، وأصبح الملك هنري الثامن نفسه رئيساً لكنيسة إنكلترا.

لم يكتفِ البروتستانت بإعلان مرجعية الكتاب المقدس فوق سلطة البابا ومرجعيته، بل ذهبوا أكثر من ذلك إذ أعلنوا البابا عدوّاً للمسيح: أي الوحش المذكور في "رؤيا" يوحنا، قال لوثر بلا مواربة: (إن البابا هو العدو الحقيقي للمسيح) وقال أيضاً: (إن إدانة البابا بوصفه عدوّ المسيح مسألة حياة أو موت بالنسبة للكنيسة)[٢]، لقد نظر البروتستانت إلى الكاثوليكية على أنها تركيبة من الخرافات والهرطقات واعتبروا الكنيسة الكاثوليكية عدوّاً للإيمان الحقيقي، بل ندّاً متآمراً مع الشيطان لتضليل المؤمنين، وفي مرحلة لاحقة بعد أن هاجر الأمريكيون من أوروبا إلى القارة الجديدة "اكتشفوا" أن الكنيسة الكاثوليكية هي "النبي المزيف" بعينه -المذكور في "رؤيا" يوحنا (رؤيا ١٩/٢٠)- والذي يساند الوحش عدو المسيح -البابا- في جهوده كي يعبده العالم أجمع[٣].

وهكذا بنتيجة حركة الإصلاح الديني وبعد مرور ستة عشر قرناً على بعثة المسيح تمت ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات المحلية، وبدأت طباعته، وأُتيح للمسيحيين لأول مرة في التاريخ شراء واقتناء وقراءة الكتاب المقدس وتفسيره بلا تدخل من الكهنوت، فصار يُقرأ في الكنائس، وفي الاجتماعات العامة، وفي مدارس الأحد للأطفال باللغات المحلية مما أكسب الناس بالتدريج فكرة عن أسماء الأعلام، والمواقع، والأمكنة المذكورة فيه، وبتكرار هذه القراءات بما فيها قصص العهد القديم أصبحت قصص الكتاب المقدس بقسميه العهد القديم والجديد مألوفة لدى عامة الأوروبيين لدرجة أن صارت جزءاً مهماً من الأدب والفكر الأوروبي، وبالتالي بدأت تؤثر تدريجياً على نظرة أوروبا تجاه المشرق وخاصةً نحو فلسطين.

ومن هذا التطور صارت اللغة العبرية جزءاً من الثقافة الأوروبية باعتبارها اللغة "المقدسة" المفترض أن تَكلّمها آدم ونوح وإبراهيم بحسب ظنهم، وهي اللغة التي خاطبّ بها الله تعالى كليمَه موسى! وهكذا صاروا ينظرون للعبرية لغةً هامةً، ليس فقط في الدراسات الدينية، وإنما أيضاً لغةً رديفة، مع بقية اللغات الأوروبية، حتى أن الكهنوت مع قطاعات أخرى من المجتمع صاروا يبذلون جهوداُ ووقتاً كبيراً لتعلم العبرية باعتبارها اللغة الأم للعهد القديم، وأدى ذلك إلى اعتقاد الكثير من البروتستانت أن فلسطين أرض يهودية ومسخوا تاريخها قبل المسيح واختزلوه إلى القصص المرويّة في العهد القديم بغض النظر عن قصر المدة التي أمضاها اليهود في فلسطين، (راجع الملحق أ: جدول المحطات التاريخية لفلسطين والقدس).

وهكذا بنتيجة الحماس المتجدد والاهتمام الطارىء بالعهد القديم وانتشار الكتب والدراسات العبرية في الجامعات والمراكز الثقافية، بنتيجة كل ذلك تم شحن العقل الأوروبي بمفاهيم ومعتقدات جديدة عن فلسطين وعن اليهود، فبرزت على السطح ما أُطلق عليه "المسيحية المتصهينة" أو "المسيحية المتهوّدة" أو الأصولية المسيحية اختصاراً، واليوم يُطلق تعبير "المسيحيين الأصوليين" على البروتستانت المؤمنين بعصمة الكتاب المقدس، وبالتفسير الحرفي له، وبضرورة وجود إسرائيل جغرافيّاً في فلسطين كمقدمة لا بدّ منها للمجيء الثاني للمسيح.

وقد وصل الفكر المسيحي الأصولي إلى حدّ اعتبار الحضارة الغربية بمجملها تراثاً يونانياً-رومانياً -يهودياً، وليس تراثاً يونانياً-رومانياً فقط[٤]. ولذلك، وضمن هذا المنظور، وُصفتْ حركة الإصلاح الديني البروتستانتية بأنها نهضة عبرانية-يهودية.

٢ – المنظور الكاثوليكي :

كان الكاثوليك يعتقدون أن الغضب الإلهي حلَّ على اليهود بسبب جرائمهم المتكررة عبر تاريخهم، وأنهم بذلك استحقوا فترة النفي البابلي (٥٨٦–٥٣٩ ق م) من ضمن عقوبات إلهية عديدة تُوّجت بطردهم النهائي من فلسطين في العام ٧٠م، وأما النبوءات بعودتهم إلى الأرض المقدسة فقد تحققت فعلاً بحسب المعتقد الكاثوليكي عندما سمح لهم قورش ملك الفرس بالعودة من بابل إلى فلسطين (٥٣٧–٥١٥ ق م).

وعلى ذلك فإنّ طرد اليهود من فلسطين على يد الرومان في العام ٧٠م كان نتيجة مباشرة لرفضهم الإيمان بمسيحهم المنتظر عيسى عليه السلام، ممّا أدى لانتهاء وجودهم كأمة وتشريدهم في أصقاع الأرض، وقد استحقوا هذا العقاب ليس فقط لرفضهم المسيح وتآمرهم على قتله، بل لأنهم كانوا بعد ذلك يتحالفون مع وحش "الرؤيا"، عدو المسيح، كلما سنحت لهم فرصة[٥]، ممّا جعلهم الأعداء التقليديين للمسيحية.

وأما النبوءات في الكتب اليهودية عن نشوء إسرائيل جديدة فهي بحسب تفسير الكاثوليك تعني نشوء الكنيسة المسيحية بصفتها الوريث الوحيد لإسرائيل، فبحسب المعتقد الكاثوليكي تعتبر الكنيسة المسيحية تجسيداً لمملكة الله على الأرض، تماماً كما كتبَ ووعظَ القديس أوغسطين منذ القرن الخامس.

ومن المهم ملاحظة أنه قبل حركة الإصلاح الديني البروتستانتية لم يكن هنالك أدنى فكرة عند المسيحيين "بوجوب إعادة تجميع" اليهود في فلسطين، ولا حتى بإعادة تجميعهم كأمة، لأن فلسطين بحسب معتقد الكاثوليك لم تكن سوى الأرض المقدسة التي شعّ منها نور المسيح إلى العالم، وأن القدس هي مدينة العهد الجديد الذي حلّ محلّ العهد القديم، وأما بعض نصوص سفر "الرؤيا" بهذا الخصوص فقد فُسّرت رمزياً وليس حرفيّاً.

وضمن هذا المنظور الكاثوليكي للأمور، ليس واضحاً تماماً كيف توصل البروتستانت للاعتقاد، كما لو كان فجأةً، بضرورة إنشاء "إسرائيل جديدة" في فلسطين كي "يعود" إليها اليهود! فلمدة خمسة عشر قرناً لم تعرف المسيحية هذه الفكرة إلى أن قلبت البروتستانتية الموائد برفضها التفاسير الرمزية التي كانت تبنتها الكاثوليكية على مر الأيام، ممّا سبّب الكوارث لشعب فلسطين خاصة ولشعوب الشرق الأوسط عامة

٣ – الخطة الإلهية بحسب الأصولية المسيحية في الغرب:

يصرّ البروتستانت أنّ "إسرائيل الجديدة" ليست الكنيسة المسيحية كما اعتبرها مجازاً القديس أوغسطين[٦]، فبالنسبة إليهم هي بنو إسرائيل "المفترض عودتهم" إلى فلسطين لإقامة مملكة الله على الأرض، جغرافياً وليس مجازاً، وهو ما اعتبروه مقدمة ضرورية للمجيء الثاني ولتحقيق المملكة الألفية السعيدة (رؤيا/الفصل ٢٠)، أما الكنيسة بالنسبة إلى البروتستانت فهي مملكة الله السماوية في حين أن إسرائيل هي مملكة الله الجغرافية على أرض فلسطين! وبالتالي أصبح البروتستانت من أشد أنصار إسرائيل حماساً ودعماً لها.

ولّما كانت الخطة الإلهية عند الغرب تقتضي المجيء الثاني للمسيح فيلزم بالضرورة أن يسبقه "الشعب المختار" اليهود إلى فلسطين تمهيداً لعودته، والنتيجة أن "عودة" اليهود لفلسطين مرغوبة ومطلوبة ليس لجدارتهم واستحقاقهم وإنما تحقيقاً للنبوءات التي تفرض عليهم أن يلعبوا دوراً هاماً في "الخطة الإلهية لخلاص البشرية"! فالمسيح لن يعود إلى فلسطين إلا إذا عاد اليهود لها حسب اعتقاد الأصوليين المسيحيين في الغرب، ذلك أن "نهاية التاريخ" التي تنبأ بها بولس منذ ألفي عام ترتكز أولاً وآخراً على إنشاء وطن يهودي في فلسطين يستطيع المسيح أن يعود إليه[٧]، ومنه يتضح ضآلة الفارق بين عقيدة اليهود وعقيدة البروتستانت حول هذه النقطة، فبينما ينتظر اليهود المجيء الأول لمسيحهم، يتطلّع البروتستانت إلى مجيئه الثاني لكي ينقذ اليهود من ضلالهم!

وفي ذلك قال البروتستانتي الألماني بولس فلاجنهاوفر عام (١٦٥٥م) أن اليهود سيعترفون بعيسى مسيحاً لهم عند مجيئه الثاني[٨]، وعندئذٍ يتحد اليهود والمسيحيون معاً، ومن البديهي أن اليهود ينبذون هذا الاعتقاد.

وعلى المستوى العملي ترجم الأصوليون الأوربيون، وبالتالي الأمريكيون، عقيدتهم إلى عمل، فقد شعروا أن من واجبهم لعب دور عملي ونشط في تحقيق النبوءات وتسريع المجيء الثاني سعياً وراء إنشاء المملكة الألفية السعيدة التي تنبّأ بها يوحنا في "رؤياه"، ولم يكن هذا الحماس المتجدد منحصراً فقط على المستوى الشعبي ولا على مستوى الكهنوت الدعاة، ولكن تجاوزه إلى الزعماء السياسيين وكبار القادة والمستعمرين والرحالة والأكاديميين!

كان الأمريكيون الأوائل -الذين تسمّوا حجّاجاً- في هجرتهم من أوروبا إلى أمريكا يشبّهون أنفسهم بقبائل إسرائيل التائهة، ومن قبيل المجاز أو الاستعارة قارنوا المحيط الأطلسي بصحراء سيناء، والأرض الجديدة بأرض كنعان أي الأرض الموعودة[٩].

ومنذ عام (١٨٥٣م) كتب محرر المجلة الطبية للجراحين في بوسطن: (لقد عبّرتُ مراراً عن ملاحظاتي فيما يتعلق بمستقبل أرض الميعاد، فأنا أؤمن إيماناً عميقاً بوجوب "إعادة" اليهود نهائياً إلى فلسطين وإعادة إنشائهم كأمة)، وكتب أيضاً: (من المؤكد أنه ما لم يتم اقتلاع السكان الحاليين من الأرض -الموعودة- وإحلال سلالة جديدة مكانهم فإن الكتاب المقدس لن يكون مُعتبَراً إلا من قبل الأقلية، والتي بدورها لن يكون لها تأثير يُذكر في تغيير تقاليد وعادات المجموعْ)[١٠].

وعلى الأرض كان بعض المبشّرين والرحالة الأمريكيين واثقين من نجاح خططهم الطموحة، فبعد أن يئس أكثرهم من تحويل المسلمين إلى المسيحية كتب بعضهم: (مِن الأسهل تحويل القرميد إلى حجارة، فليست إرادة الله أن

يتحول المشرق إلى المسيحية)، والحل الذي اقترحه بعضهم لم يكن سوى: (اقتلاع السكان الأصليين من أرضهم وجلب سلالة "أفضل" إلى المشرق)[١١].

وقد صوّروا السكان المحليين من الترك والعرب والمسلمين بأشكال مختلفة تراوحت من البراءة إلى التوحّش، فقد كتب أحدهم: (هؤلاء السكان الهمج يذكرونني على الدوام بالهنود الحمر)[١٢].

أما هنري جيسب Henry Jessup مؤلف (ثلاثة وخمسون عاماً في سورية (١٨٥٧-١٩١٠م)) و(Mohammadan Missionary Problem 1879) فهو والدكتور جون باركلي Barkley في كتابه (City of the Great King 1858) وضعا خطة مفصلة لمستقبل المشرق، بما فيها تقسيم المنطقة بين الدول الغربية ومن ضمنها روسيا، وتجميع اليهود في فلسطين استعداداً لإنشاء مملكة الله على الأرض، حتى أن بعضهم رسم حدود إسرائيل من النيل إلى الفرات ومن جبل آرارات إلى بحر العرب وخططوا لمشاريع سكك حديدية تربط إسرائيل بالغرب[١٣].

(كان المفهوم أن مصير المشرق مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمصير الولايات المتحدة، وأن على الولايات المتحدة أن تلعب بذلك دوراً "رسمته يد الله"، فالمشرق مثل الغرب الأمريكي: "كان مقدراً له أن يكون نقطة التقاء الأنجلو- ساكسون في مسيرتهم نحو مغرب ومشرق الإمبراطورية "وأما الدور الأمريكي فهو تحقيق "حلم صهيون"، ويترتب على المبشرين – الأصوليين- إنقاذ نفوس المسلمين التائهة)[١٤].

ولم يكن عجيباً –على سبيل المثال- لداعية الحقوق المدنية الأسود مارتن لوثر كنج الأصغر أن يقول عام (١٩٦٨م) في خطبة مؤثّرة شهيرة له: (إنني أرى الأرض المقدسة)! Martin Luther King Jr.

لقد ترسخت مثل هذه المفاهيم في العقل الغربي خلال القرون الأربعة الأخيرة، وأصبحت منطلقاً لأنشطة تبشيرية، ثم اكتسبت هذه الأنشطة زخماً

كبيراً خلال القرن التاسع عشر، وفي القرن العشرين تحولت إلى مُجريات سياسية فاعلة تُوّجت بإنشاء إسرائيل بدعم غير مشروط من الغرب عامة، ومن الولايات المتحدة خاصةً.

والخلاصة: أن (الاستشراق الأمريكي تطور خلال القرن الحالي إلى مصطلح لغوي قائم بذاته، وهو يتضمن أنشطة عديدة فكرية وأكاديمية وسياسية ودينية، وتعتبر الجمعية الأمريكية لدراسات الشرق الأوسط Middle East Studies Association of America المنظمة الأم لعدة مؤسسات أكاديمية أحرزت قفزات ضخمة في مجالات دراسات الاستشراق)[١٥].

٤ - العمل على دفع "الخطة الإلهية" إلى الأمام:

كان كلّ من الرؤساء الأمريكيين السابقين جون آدامز (١٧٩٧-١٨٠١م) و توماس جفرسون (١٨٠١-١٨٠٩م) عضوين في لجنة تأسست عام ١٧٧٦م لغرض انتقاء شعار للأمة الأمريكية الجديدة، فأوصى كلاهما أن يكون الشعار صورة للنبي موسى وهو يقود اليهود الهاربين من فرعون مصر! وفي مناسبات عديدة أبدى جون آدامز رغبته المخلصة "لإعادة اليهود إلى أرض يهوذا" - فلسطين- كأمة مستقلة، ومن جهته رأى بنيامين فرانكلين الدبلوماسي الأمريكي أن يكون الشعار صورة موسى وهو يشق البحر الأحمر بعصاه![١٦].

وفي العام (١٨٤٨م) عمِل واردر كريسون Warder Cresson القنصل الأمريكي في القدس على تأسيس مستعمرة يهودية في فلسطين موّلتها جمعية مسيحية-يهودية في إنكلترا، وفي العام (١٨٩٨م) كتب إدوين شيرمان والاس Edwin Sherman Wallace القنصل الأمريكي في فلسطين: (أرض فلسطين بالانتظار، والشعب جاهز للقدوم)[١٧].

وفي انكلترا عام (١٦٥٠م) صرّح أوليفر كروميل Oliver Cromwell بصفته اللورد المدافع عن الكومنويلث الجديد Lord Protector أن الوجود

اليهودي في فلسطين سوف يكون مقدمة للمجيء الثاني للمسيح! وقد حثه أحد أعوانه على نقل المعركة إلى أرض كنعان.

وفي العام (١٨٣٩م) قام اللورد أنتوني أشلي كوبرAnthony Ashley Cooper، الإيرل السابع لشافتسبوري، والمعروف في إنكلترا بلقب المُصلح الأكبر، قام بحثّ اليهود على الهجرة إلى فلسطين إذ رأى فيهم أمل المسيحية في الخلاص، لأنهم سيلعبون دوراً هاماً في "الخطة الإلهية" للمجيء الثاني، وزعم أن فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، وقد عمِل على إنشاء قنصلية بريطانية في القدس كان النائب الأول للقنصل البريطاني فيها وليام يونج William Youngوهو رجل دين بروتستانتي متعصب، وكان من أحد مهامه بسط الحماية على (٩٦٩٠) من يهود فلسطين، وهو عددهم الإجمالي آنذاك(١٨).

ومنذ عام (١٨٤٥م) اقترح إدوار ميتفورد Edward Mitford المعيَّن في مكتب لندن للمستعمرات الإنكليزية إنشاء دولة يهودية في فلسطين تكون تحت حماية بريطانيا، وقال أنّ هذه الدولة (ستضع بريطانيا في وضعية قيادية في المشرق تمكنها من إيقاف التعديات! وإرهاب الأعداء ووقف تقدمهم عند اللزوم!)(١٩).

أما لورنس T.E. Lawrence عميل المخابرات البريطانية في الجزيرة العربية خلال الحرب العالمية الأولى، والذي لقبوه زوراً وبهتاناً "لورنس العرب" فقد كتب: (كم أتعبني هؤلاء العرب، إنهم تجسيد للساميين المنحطين... إن العقل العربي شاذ وغارق في الظلمة والكآبة والاعتزاز المفرط بالنفس، ويفتقر إلى قواعد المنطق)، وعن دوره في قيادة الثوار العرب ضد العثمانيين كتب: (بما أنني لست مغفلاً فقد كان واضحاً منذ البداية أنه في حال فوزنا بالحرب فستصبح الوعود التي قطعناها للعرب حبراً على ورق، ولو كنت مستشاراً شريفاً –

للعرب- لعملت على تسريح رجالي من الثوار ولما جعلتهم يجازفون بأرواحهم لمثل هذا الهدف!)[٢٠].

ويكفي أن نعلم عن رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج (١٩١٦-١٩١٩م) Lloyd George الذي صدر في عهده وعد بلفور أنّه تربّى في مدرسة كانت تعلم الطلاب تاريخ اليهود أكثر من تاريخ إنكلترا، وقد علّق وايزمان Wiezman بعد أن التقاه لأول مرة أنه قابل رجلاً لا تُقدّر قيمته بثمن تجاه القضية اليهودية.

وأما بلفور نفسه Arthur James Balfour الذي كان وزير الخارجية البريطاني (١٩١٦-١٩١٩م) وصاحب الوعد المشؤوم المعروف باسمه، فقد تربّى بروتستانتياً متزمّتاً منذ طفولته، وبفضل تنشئته البروتستانتية كان مطلعاً تماماً على كتب العهد القديم، إذ اعتاد على رؤية والدته وهي تقرأ العهد القديم مراراً وتكراراً مما كان له أكبر الأثر عليه وقد وصفها أنها امرأة شديدة الالتزام والتديّن، وكان مقتنعاً تمام الاقتناع أن "عودة اليهود "إلى فلسطين مقدمة ضرورية للمجيء الثاني، وقد ذكرت ابنة أخته التي كتبت قصة حياته شدة إيمانه بأنّ المسيحية مدينة لليهودية بالشيء الكثير وأنه من المعيب أن المسيحية لم تكافىء اليهودية بما فيه الكفاية[٢١].

وودرو ولسون Woodraw Wilson الرئيس الأمريكي خلال فترة (١٩١٣-١٩٢١م) كان بروتستانتياً متزمّتاً ومتعاطفاً مع اليهود بشكل سافر ولذا سارع إلى تأييد وعد بلفور في ٣١ آب عام ١٩١٨م.

هاري ترومان Harry Truman الرئيس الأمريكي خلال (١٩٤٥ - ١٩٤٩م) درس العهد القديم بعناية ومن الأصوليين الذين عُرفوا بأنهم "مولودون ثانيةً"، كان مؤمناً تماماً بمبررات قيام إسرائيل، وقد أبدى مشاعره هذه قبل أن يصبح رئيساً بزمن طويل، وقد يظن بعض الناس أن اعترافه الفوري

بقيام دولة إسرائيل كان بتأثير اللوبي الصهيوني الأمريكي أو سعياً وراء الأصوات الانتخابية اليهودية، في حين أنه كان نابعاً من إيمان ديني حقيقي!

جيمي كارتر الرئيس الأمريكي خلال الأعوام (١٩٧٦-١٩٨٠م) كان أيضاً من الأصوليين البارزين "المولودين ثانية"، وفي خطاب ألقاه أمام الكنيست الإسرائيلي في آذار عام (١٩٧٩م) قال: (نحن نشترك مع اليهود في تراث العهد القديم)، وقد آمن أن إنشاء إسرائيل لم يكن سوى تحقيقاً لنبوءات العهد القديم، وأما السلام في الشرق الأوسط فلم يكن يعني له سوى (ضمان استمرار الوجود الإسرائيلي الآمن بفلسطين)، وعندما استقبل في البيت الأبيض رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيجن وعده أن الولايات المتحدة ستدعم إسرائيل إلى الأبد، وقال في خطبة له أنه منذ تدمير القدس في العام (٧٠م) استمر اليهود في الصلاة ليكون عامهم القادم في القدس، وأنهم عادوا أخيراً إلى أرض التوراة بعد ألفي عام من المنفى والشقاء والتمييز العنصري ضدهم![٢٢] وخلال زيارته البوسنة والهرسك في (١٩٩٢م) وسيطاً بين الصرب والمسلمين أضاف كارتر إلى سجله المتحيّز أن خاطب الصرب الذين نشطوا في جرائم الحرب وفظائع التطهير العرقي ضد المسلمين فقال لهم معتذراً عن الولايات المتحدة: (إن الشعب الأمريكي قد أساء فهمكم).

أما رونالد ريجان الرئيس الأمريكي خلال (١٩٨٠-١٩٨٨م) فكان من الأصوليين المؤمنين جداً بقرب تحقق المجيء الثاني للمسيح وفق ما كتبه يوحنا في "رؤياه" ووفق سيناريو تل مجدّو Armageddon (رؤيا ١٦/١٦)، وكان لا يملّ من الاستشهاد بنصوص من العهد القديم في كل مناسبة، والطريف أنه كما آمن بولس قبله بألفيْ عام بوجوب تحقق المجيء الثاني خلال سني حياته -أي حياة بولس نفسه- فقد آمن ريجان أيضاً أن المسيح سيعود خلال حياته هو -أي حياة ريجان-.

وفي ٦ شباط -فبراير- من العام ١٩٨٣م أعلن الواعظ الأصولي جيري فالويل أنّه يفضّل أن تضم إسرائيل إليها أجزاءً من العراق وسورية وتركيا والسعودية ومصر والسودان والأردن والكويت ولبنان بكامله، وقال: (إن الله يبارك أمريكا لأنّنا نطيعه في حماية ما هو ثمين بالنسبة له) يقصد إسرائيل(٢٣).

وبتاريخ ٢٩/٤/١٩٩٨م خلال الاحتفال بمرور خمسين عاماً على إنشاء دولة إسرائيل خطب رئيس الوزراء الإسرائيلي نتنياهو أمام جمهوره، وكان من ضمنهم آل جور Ale Gore نائب الرئيس الأمريكي، فقال: (كان الأمريكيون يتطلعون إلى "الأرض الموعودة الجديدة" -مجازاً-، ولكن هذه هي الأرض الموعودة حقيقةً -يقصد فلسطين-، وكان الأمريكيون أيضاً يتطلعون إلى "المدينة التي على الهضبة" -مجازاً-، ولكن القدس هي "المدينة التي على الهضبة" حقيقةً) ولم يكن مستغرباً أن قابل آل جور وزوجته هذا الكلام بتصفيق حاد.

وقس على ذلك عقيدة الرئيس كلينتون الذي كان صهيونياً واضحاً إلى حد تبجحه بذلك أمام الكنيست الإسرائيلي مثلما كان قبله الرئيس بوش الأب وبعده الرئيس بوش الابن من الأصوليون المولولدين ثانية، وقد ذكر أفنيري داعية السلام الإسرائيلي أن الرئيس بوش الابن يعتبر نموذجاً لليمين الأصولي المسيحي(٢٤).

والخلاصة أن حركة الإصلاح الديني البروتستانتية زودت اليهود بفرصة تاريخية نادرة وفريدة حصلوا بنتيجتها على الاحترام، والدعم الهائل، وغير المشروط من المسيحية الغربية بسبب إيمان الأصوليين بالدور الكبير المفترض أن يلعبه اليهود في "سيناريو المجيء الثاني"، فاليهود حصلوا على فلسطين باعتبارها "الأرض الموعودة" والمسيحيون الأصوليون ضمِنوا بذلك تحقيق عودة المسيح الوشيكة!(٢٥).

٥ – انتظار المجيء الثاني:

كان يوحنا العرّاف يهودياً اعتنق ديانة بولس ثم ألّف "سفر الرؤيا" الذي أصبح فيما بعد آخر كتب العهد الجديد، وقد صوّر في "رؤياه" مسيحاً عائداً على النمط الذي يتوقعه اليهود، فجَعَله يقف على جبل صهيون مع /١٤٤٠٠/ من البشر فقط! المفترض أنهم أخيار اليهود وهم /١٢٠٠٠/ يهودي من كل قبيلة من قبائل بني إسرائيل الاثني عشرة، ويتوجب على مسيحه في "الرؤيا" أن يقود معركة تل مجدّو بفلسطين ضد "الوحش" وضد ملوك الأرض وقوى الشر قاطبةً، ويلزم أن يكون المسيح العائد الأسد من قبيلة يهوذا من سلالة داوود (رؤيا ٥/٥)، وسوف يشاهد القدس الجديدة بأبوابها الاثني عشرة وهي تهبط من السماء وقد كُتبَ على كل باب من الأبواب اسم قبيلة من قبائل بني إسرائيل الاثنا عشرة.

غير أن اليهود بالطبع لا يقبلون رؤيا يوحنا، إذ بالمقارنة مع المسيح العائد "كريستوس Christ " المذكور في "الرؤيا"، فإنّ اليهود ينتظرون مسيحاً محارباً خاصاً بهم، وهو غير "كريستوس Christ " الذي ينتظره المسيحيون الأصوليون، ذلك أن انتظار المسيح المحارب هو أحد أهم المعتقدات اليهودية، ويُفترض عندهم أن يأتي المسيح المحارب من سلالة داود فيعيد تأسيس مملكة داوود بالقوة، وينقذ اليهود من النفي، ويعيدهم إلى الأرض المقدسة حيث يسحق أعداءهم، ويعيد بناء معبد سليمان، وتعود القدس عاصمة لهم، وكان هذا سبب رفضهم عيسى مسيحاً لهم، لأنه نفى أن يكون لمهمته أي علاقة بالحرب أو سحق الأعداء أو تأسيس مملكة جغرافية على الأرض! فقد أوضح لليهود بجلاء أنه لم يأت لكي يقودهم في حرب ضد إمبراطورية روما، لذلك اتهموه بأنه "دعيّ مزيّف" حسب زعمهم –والعياذ بالله–، ومنذ ذلك الوقت ولمدة ألفي عام حتى الآن لا زالوا بانتظار مسيحهم المحارب، النبي–الملك–المقاتل ذي السلطة الدينية والدنيوية الذي سيعيد مملكة داود.

وبعد طول انتظار، وبعد انفجار الأصولية المسيحية على مسرح الأحداث في الغرب، قرر اليهود أخذ المبادرة بأيديهم والعودة إلى فلسطين بقوة السلاح، وهكذا عندما يستعيد المرء أحداث التاريخ الحديث يتبين له بوضوح أن الحركة الصهيونية لم تولد في فراغ، وإنما وُجدت وصارت ممكنة فقط ضمن نطاق الأصولية المسيحية الغربية التي استفاد منها اليهود أيّما استفادة، لقد كان اعتقاد المسيحيين الأصوليين الغربيين بوجوب "إحياء" الدولة اليهودية في فلسطين و "إعادة" اليهود لفلسطين كشرط أساسي ومُسبق للمجيء الثاني ولتحقق المملكة الألفية السعيدة، كل ذلك كان سبباً في تزويد الصهيونية بفرصتها التاريخية!

ظلّت هذه البيئة الدينية-السياسية تغلي في الغرب حتى صارت القوة الدافعة وراء الحركة الصهيونية التي أعطت أولى ثمارها بانعقاد المؤتمر اليهودي الصهيوني الأول في بازل بسويسرا عام ١٨٩٧ بزعامة الصحفي اليهودي النمسوي تيودور هرتزل Hertzel الذي أصبح أباً للصهيونية اليهودية السياسية، وقد ناشد هرتزل اليهودَ في أنحاء العالم أن يعيشوا معاً مع بعضهم البعض ضماناً سلامتهم لأنّ باقي الأمم تكرههم بحسب قوله.

ولكن المؤتمر اليهودي الصهيوني الأول في بازل لم يكن ليُحْدِث شيئاً بمفرده لولا نشاط الأصوليين المسيحيين الغربيين، ورغبتهم العارمة تحقيق المجيء الثاني بأقصى سرعة، فكانوا بذلك السبّاقين -أكثر من اليهود الصهاينة بكثير- في تخطيطهم وعملهم على "إعادة" اليهود إلى فلسطين، لقد اعتقد الأصوليون البروتستانت أن واجبهم الديني يحتّم عليهم العمل لجعل النبوءات تتحقق طوعاً أو قسراً.

مثل هذا الحماس الأصولي عبر عنه بفصاحة وبلاغة فان در هوفنVan der Hoeven الناطق بلسان "السفارة المسيحية العالمية"، ففي شهر آب ١٩٨٥م عقدت السفارة المسيحية العالمية مؤتمرها المسيحي-الصهيوني الأول في بازل بسويسرا، وردّاً على تعليق أحد المشاركين اليهود في المؤتمر أن ثلث الشعب

اليهودي مستعد لقبول السلام مع العرب مقابل التنازل عن الأراضي المحتلة أجاب فان در هوفن بعقلية المسيحيين الأصوليين المتحمسة: (لا يهمنا رأي اليهود في هذا الأمر، وإنما تهمنا إرادة الله فقط، لقد أعطى الله هذه الأرض - يقصد فلسطين- لليهود)[٢٦] !

ليس هنالك الكثير من الأبحاث المفصلة التي درست نشوء ونهوض الأصولية المسيحية في الغرب، غير أنه من غرائب القدر أن تبعَ هذا النهوض الأصولي المسيحي الغربي ارتداد عن الكنيسة على نطاق واسع بين الذين خاب أملهم في الكنيسة من بين المفكرين المسيحيين العقلانيين وذلك في العقود الأخيرة من القرن العشرين، ومن هؤلاء مثلاً أكثر من مائتين من علماء ودكاترة اللاهوت وأساتذة الجامعات في أمريكا الذين اشتركوا فيما أسموه "ندوة عيسى Jesus Seminar " والتي استمرت ست سنوات أثمرت في العام ١٩٩٣ نتاجهم القيّم وهو كتاب "الأسفار الخمسة The Five Gospels " إشارةً للأسفار القانونية الأربعة مضافاً إليها سفر توماس المكتشف حديثاً في نجع حمادي بمصر (انظر الفصل الثاني)، كما ظهرت في الغرب في القرن الماضي كمية كبيرة من الأدب الناقد لموقف الكنيسة ولفكر بولس اللاهوتي[٢٧].

٦- السفارة المسيحية العالمية:

وكأن لم تكتفِ الأصولية المسيحية في الغرب بإنشاء دولة إسرائيل في فلسطين، فأتبعت ذلك في العام (١٩٨٠م)، بتأسيس ما أسمته "السفارة المسيحية العالمية" في القدس باعتبارها مندوبة الأصولية المسيحية في الغرب خاصة، وفي العالم كله إلى إسرائيل، ويُعتقد أن تمويل هذه السفارة يأتي من دولة جنوب إفريقيا[٢٨].

في ١٩٨٥/٨/٢٧م عقدت السفارة المسيحية العالمية مؤتمرها المسيحي- الصهيوني الأول في بازل بسويسرا، لمضاهاة المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقده

تيودور هرتزل في نفس المدينة في العام (١٨٩٧م)، بل في القاعة نفسها التي استخدمها هرتزل، وقد حضر المؤتمر كلّ من مدير السفارة المسيحية العالمية جوهان لوكهوف Johann Luckhoff وهو من جنوب افريقيا، والناطق بلسانها فان در هوفن Van der Hoeven وهو من هولندا، وممثلها في واشنطن ريتشارد هيلمانRichard Hellman، والدكتور جورج جياكوماكيسGeorge Giacumakis الرئيس الأسبق لمعهد دراسات الأرض المقدسة في القدس[٢٩].

وقد حثّ المؤتمر يهود العالم على ترك مواطنهم الحالية والهجرة إلى إسرائيل والعيش فيها، كما قرر المجتمعون أن القدس "التي هي مدينة داوود" يجب أن تبقى إلى الأبد عاصمة موحدة لإسرائيل، وأن يهودا والسامرة اللتين يُطلق عليهما خطأً –كذا– الضفة الغربية هما جزء من إسرائيل استناداً على نبوءات الكتاب المقدس، وحثّ المؤتمر أيضاً الولايات المتحدة والدول الأخرى التي أقامت علاقات دبلوماسية مع إسرائيل على نقل سفاراتها من تل أبيب إلى القدس، كما طلبت من الولايات المتحدة وأوروبا الامتناع عن تسليح أعداء إسرائيل.

وفي العام (١٩٨٨م) عقدت السفارة المسيحية العالمية مؤتمرها المسيحي–الصهيوني الثاني، وهذه المرة في القدس، احتفالاً بالذكرى الأربعين لإنشاء دولة إسرائيل، وكان من ضمن مقرراتها: (إثبات الحق المقدس لليهود أن يعيشوا أحراراً في أرض إسرائيل كلها، وأن الأرواح الشريرة في الإسلام مسؤولة عن العبودية الروحية في العالم العربي، وعن العداء للسامية في أنحاء العالم، وعن الابتزاز النفطي ضد الأمم التي تساند إسرائيل، وأن وجود مسجد إسلامي في اقدس بقعة بالقدس، هي جبل موريا، يعتبر سخرية كبيرة من الله –كذا– ووصمة للموقع المقدس للهيكل، ولذلك ليكن دعاؤكم ضد روح الإسلام –كذا–)[٣٠].

واليوم ينشط عشرات الألوف من الوعّـاظ الأصوليـين في الولايـات المتحـدة بنشر مواعظ تتضمن أفكاراً مشابهة للمذكور أعلاه، مستفيدين من شبكة مـن مئات القنوات التلفزيونية المحلية والفضائية ومحطات الإذاعة فيستمع لهم حوالي نصف السكان في أمريكا(٣١).

٧- المنظور الإسلامي:

يمكن تلخيص المعتقد الإسلامي فيما يتعلق ببعثة عيسى المسيح عليه السـلام، وفيما يتعلق بمفاهيم: مملكة الله على الأرض، والمجيء الثاني للمسـيح، والأرض الموعودة، وهي عبارات تتكرر مراراً في الكتاب المقدس، على النحو التالي :

أ- المسيح المنتظر: استناداً إلى القرآن الكريم، يؤمن المسلمون أن عيسى عليـه السلام هو المسيح المنتظر حقّاً، بُعث لإصلاح الدين اليهودي وإعادتـه إلى نقائـه الأصلي ولتقويم مقاييسه الأخلاقية والاجتماعية، وتطهيره مـن شـوائب الوثنيـة التي دخلت فيه على مر العصور، ذلـك أن تـاريخ اليهوديـة زاخـر بـالعديد مـن الانتكاسات المخزية نحو الوثنيـة ونحـو التفسـخ الأخلاقـي والاجتمـاعي ممّـا هـو موثّق في كتبهم قبل غيرهم! قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْـرَائِيلَ اعْبُـدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّـةَ وَمَـأْوَاهُ النَّـارُ وَمَـا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٥/٧٢]، وقال عزّ من قـائل: ﴿ وَلَمَّـا جَـاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُـونَ فِيـهِ فَـاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي ۞ إِنَّ اللَّـهَ هُـوَ رَبِّـي وَرَبُّكُـمْ فَـاعْبُدُوهُ هَـذَا صِـرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤٣/٦٣-٦٤]. فالحكمة التي جاءهم بهـا تضمنـت معـايير الصـواب مـن الباطل ومعايير الأخلاق والمجتمع .

ب- مملكة الله على الأرض: لم تكن مملكة الله التي أشار إليها عيسى كنيسـة كاثوليكية مُنتصرة على أعدائها، كما لن تكن مملكة ألفية سعيدة خيالية تتحقـق في المستقبل بعد مجيئه الثاني، ولا مملكة جغرافية علـى الأرض لأمـة معتديـة، ولا

مملكة سماوية مكونة من أرواح الأنبياء والقديسين! ولكنها دين الإسلام العملي للمؤمنين بالإله الواحد، ديناً غير مقتصر على الأمور الروحية بل يتجاوزها إلى تنظيم الحياة والمجتمع، بلا تفريق بين الدين والدنيا(٣٢).

ج ـ المجيء الثاني للمسيح: لا يوجد في القرآن الكريم ولا في الأحاديث الشريفة المؤكدة ما يدل على وجوب عودة المسيح إلى الأرض -أي المجيء الثاني- فبالنسبة للمسلمين أن بعثة عيسى المسيح حققت الغرض منها كما ذكر أعلاه، ولذا وخلافاً للاهوت بولس ونبوءاته ليس من سبب يبرر مجيء عيسى ثانيةً إلى الأرض، وأمّا الزعم أنّ الساعة لا تتم إلا بعد المجيء الثاني فقد فنّده القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمّد: ١٨/٤٧]، ولأن محمّد (ﷺ) هو ﴿ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠/٣٣]، فقد تحققت بمجيئه أشراط الساعة حيث بُعث للناس كافة وليس لأمّة بعينها، فليس بينه وبين الساعة نبيّ آخر، وهو معنى قوله (ﷺ): ((بُعثتُ أنا والساعة كهاتين)) وأشار بإصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام (رواه البخاري عن أنس) . فانتظار المجيء الثاني هو بالحقيقة انتظار المنقذ المخلص وقد تحقق ببعثة محمد ﷺ.

ويحتمل أن يكون مفهوم عودة المسيح، أو مجيئه الثاني، قد دخل الفكر الإسلامي عن طريق ما يسمّى بالإسرائيليات، وهي المفاهيم والقصص الإسرائيلية التي تغلغلت في السيرة النبوية وفي الحديث الشريف والتفسير عن طريق أهل الكتاب، وفي ذلك كتب ابن خلدون في مقدّمته :

(إن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها، وسطّروها في صفحات الدفاتر وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهِموا فيها أو ابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفّقوها ووضعوها، واقتفى تلك الآثار ممّن بعدهم واتّبعوها، وأدّوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا ترّهات

الأحاديث ولا دفعوها، فالتحقيق قليل، وطرف التنقيح في الغالب كليل، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل، والتقليد عريق في الآدميين وسليل، والتطفل على الفنون عريض وطويل، ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل، ... هذا وقد دوّن الناس في الأخبار وأكثروا، وجمعوا تاريخ الدول والأمم وسطّروا، والذين ذهبوا بفضل الشهرة والأمانة المعتبرة واستفرغوا دواوين من قبلهم في صحفهم المتأخرة هم قليلون لا يكادون يجاوزون عدد الأنامل.... وإن كان في كتب المسعودي والواقدي من المَطعَن والمغمَز ما هو معروف عند الأَثبات، ومشهور عند الحَفَظة والثقات، والناقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون.... ... ثم لم يأتِ من بعد هؤلاء إلاّ مقلّد بليد الطبع والعقل، أو متبلّده، ينسج على ذلك المنوال.... يكررون في موضوعاتهم الأخبار المتداولة بأعيانها، اتباعاً لمن عني من المتقدّمين بشأنها، ويغفلون أمر الأجيال الناشئة في ديوانها.. ثم إذا تعرضوا لذكر الدولة نَسَقوا أخبارها نَسقاً محافظين على نقلها وهماً أو صدقاً) (مقدمة المقدمة لابن خلدون).

وقد نعى الرازي ما يشبه ذلك على بعض فقهاء المسلمين أيضا، فقال:

قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجتهدين رضي الله عنه -يحتمل أنه يقصد بشيخه والده عمر ضياء الدين، أو شيخه البغوي-: (قد شاهدت جماعةً من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله تعالى في بعض المسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات، فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا إليها وبقوا ينظرون إلي كالمتعجب، يعني كيف يمكن العمل بظواهر الآيات مع أن الرواية عن السلف على خلافها! ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء سارياً في عروق الأكثرين من أهل الدنيا)، انتهى.

والمغزى أن هؤلاء الناس درجوا على التقليد الذي ذمّه القرآن في آيات عديدة، في حين أن الإسلام مبني على العلم اليقيني، دون التقليد.

وفي التأريخ عند العرب كتب جورجي كنعان:

(والمؤسف أنّ تاريخ ما قبل الإسلام الذي دونه المؤرخون العرب جاء منقولاً برمته جملة وتفصيلا عن الكتب المقدسة اليهودية، والقصصيين اليهود، يقول ابن هشام "لم يدون في تاريخ العرب أو السيرة شيء إلى أن مضت أيام الخلفاء -الراشدين-، فلما كانت أيام معاوية أحبّ أن يدوّن في التاريخ كتاب، فاستقدم عبيد بن شرية من صنعاء، فكتب له كتاب الملوك وأخبار الماضين"، وحسبك أن تعلم أن ابن اسحاق والواقدي والطبري أكثروا من الأخذ عن هذا الإخباري اليهودي.

والمدهش أو المؤلم أن الإخباريين العرب كانوا يكنّون تقديرا واحتراما عظيمين للإخباريين اليهود، على اعتبار أنهم (أهل علم) و (أهل كتاب مقدس) وأن ما يروونه للإخباريين العرب كان يؤخذ على علاته بكثير من طفولة الذهن والسذاجة الفكرية بلا تمحيص ولا تقويم. قال ابن اسحاق "حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا كنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا -اليهود- أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا". وتكثر في كتاب ابن هشام عبارة "قال ابن اسحاق فيما بلغني عن بعض أهل العلم -يعني اليهود."

وتعبيرا عن هذا التقدير والاعتبار كان المؤرخون -الإخباريون- العرب يدوّنون ما يرويه لهم الإخباريون اليهود من دون أي محاولة للتثبت من قيمة المعلومات التي ينقلون، على اعتبار أن الرواة موضع ثقة وأهل علم، لأن ما يروونه مقتبس من الكتاب اليهودي -المقدس-، مما حدا بهم إلى اعتبار رواية الإخباريين اليهود كحقائق مسلم بها، يقول الطبري مثلاً في كتابه (تاريخ الأمم والملوك) "حدثنا فلان عن فلان عن فلان قال: قال كعب الأحبار -يهودي- الدنيا ستة آلاف سنة" ويروي في موضع آخر من كتابه "حدثنا فلان عن فلان عن فلان قلت لوهب بن منبه -يهودي- كم الدنيا؟ قال ستة آلاف سنة". ويقول أيضاً "القول في خلق آدم، القول في قدر مكث آدم في الجنة، القول في

الموضع الذي أهبط إليه آدم وحواء من الأرض، إلخ " إلى أن يصل إلى "خبر ما انتهى إلينا من مغازي سليمان وخبر الشيطان الذي أخذ خاتمه،.. إلى آخر القصص التوراتية، وفي مصنفه، الآثار الباقية عن القرون الخالية، يقول "القول في ابتداء الخلق، ذكر الأخبار الواردة بأن إبليس كان له ملك السماء الدنيا والأرض، ذكر الأحداث التي كانت في عهد آدم بعد أن أهبط إلى الأرض، ذكر أن قابيل لما قتل هابيل وهرب من أبيه آدم إلى اليمن أتاه إبليس، إلخ"

وقس على ذلك أقوال ابن الأثير في مصنفه (الكامل في التاريخ) والمسعودي في (مروج الذهب) والكسائي في (قصص الأنبياء) وابن الجوزي في (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم).

والخلاصة أن تاريخ ما قبل الإسلام الذي دونه المؤرخون العرب هو تاريخ توراتي برواية إخباريين يهود)(٣٣).

د - **الأرض الموعودة**: إن نبوءات العهد القديم المدوّنة في (سفر التكوين ١٥/١٨ و ١٧/٢٠)، والتي تَعِد ذرية إبراهيم جميع الأراضي ما بين الفرات والنيل، هذه النبوءات تحققت فعلاً منذ أربعة عشر قرناً مع الفتوحات الإسلامية الأولى، لأن المسلمين هم سلالة إبراهيم من إسماعيل عليهما السلام (٣٤)، ولأنّ المسلمين اكتسبوا صفة شعب الله المختار لنشر رسالة التوحيد تحقيقاً لنبوءة عيسى في سفر (متى ٢١/٣٤) بعد أن فقد اليهود هذه الصفة برفضهم آخر أنبيائهم عيسى عليه السلام.

٨ - الإسلام وحركة الإصلاح الديني البروتستانتية :

من أكثر مظاهر البروتستانتية لفتاً للنظر أن روح المباديء التي جاء بها لوثر تُعتبر في الإسلام من البديهيات المسلّم بها قبل لوثر بتسع مئة عام، ولننظر على سبيل المثال النقاط التالية من مباديء لوثر ونقارن مع منظور الإسلام لها:

١) البشر ليسوا معصومين عن الخطأ، وبالتالي فإن الباباوات ليسوا مقدسين وعليهم أن يواجهوا العدالة كغيرهم من البشر.

(في الإسلام ليس هنالك بشر مقدس أو معصوم عن الخطأ، بل مقابل ذلك نلاحظ عصمة "الإجماع" لقول النبي: ((إِنَّ أُمَّتِي لا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلالَةٍ فَإِذَا رَأَيْتُمُ اخْتِلافًا فَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الاعْظَمِ)) (رواه الدارمي عن أنس)[٣٥].

٢) ليس لبشر -بمن فيهم الباباوات- أية سلطة على البرزخ، وأن نظام الغفران الذي ابتكرته الكنيسة ليس سوى مظهر من مظاهر الفساد البابوي.

(لنقارن سلطة البابا مع شهادة (لا إله إلاّ الله) فاللازمة لهذه الشهادة أنّ السلطة جميعاً بيَد الله وحده)[٣٦].

٣) لأي مسيحي، أيّاً كان، الاطلاع على الكتاب المقدس بلا تدخل من الكهنوت.

(أما الإسلام فيفرض على كل مسلم قراءة وتدبّر معاني القرآن لقوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٤٧/٢٤].

٤) الكتاب المقدس هو أساس الشرع، وباعتباره كلام الله فهو مصدر السلطة بحد ذاته، ولا يمكن لغيره أن يحدد مباديء الكنيسة وممارساتها.

(الإسلام يعتبر الوحي السماوي كلام الله المعصوم عن الخطأ وإنما فقط في وضعه الأصلي الذي نزل على الأنبياء، وليس ما ألّفه البشر).

٥) إن زعم البابا بأنه الوحيد الذي يعلم معاني الكتاب المقدس غير صحيح.

(بالمقابل فقد عكف المسلمون منذ صدر الإسلام على كتابة العديد من تفاسير القرآن).

٦) ليس للكنيسة أن تكون وسيطاً بين الله والمسيحيين، فالرحمة الإلهية متاحة للجميع بلا وساطة.

(المسلمون يصلّون لله بلا وساطة من البشر).

٧) الكهنوت ليس حكراً على طبقة من الناس، لأنه يمكن لأي مسيحي أن يكون كاهناً، والحاكم نفسه كاهن من واجبه أن يعمل على إصلاح الكنيسة.

(لا كهنوت في الإسلام، بل كل فقيه مفكّر يمكنه أن يكون رجل دين، وكل رجل دين يجب أن يكون مفكراً).

٨) ليس في الأسفار المسيحية ما يبرر نظام تعيين القديسين. (لا يقر الإسلام وجود قديسين).

٩) الاعتراف أمر طوعي، ويمكن للمسيحي أن يعترف لأي مسيحي آخر.

(الاعتراف غير ضروري للمسلم، وهو بين المسلم والله تعالى فقط).

غير أنّ مثل هذه المباديء العقلانية والنبيلة التي جاء بها لوثر والتي ناشدت الفكر والمنطق لم تصل عنده إلى حد الإصلاح الجذري، فقد بقي لوثر أسيراً لفكر بولس ولم يستطع أن يبصر في المسيحية سوى شخص "كريستوس" الميثولوجي الذي ابتدعه بولس، وعلى الغالب فإنّ عيسى المسيح من جهة و"كريستوس" الذي ابتدعه بولس من جهة أخرى كانا شخصاً واحدة بالنسبة إلى لوثر كما بالنسبة إلى عامة المسيحيين، وهكذا بقيت إصلاحات لوثر شكلية –على قيمتها الكبرى– إذ لم تتعامل مع الجوهر.

فعلى الرغم من معارفه وعلومه الواسعة، أو بسببها، وعلى الرغم من دكتوراه اللاهوت التي حصل عليها، ودرجة الأستاذية، وسعيه وراء الكمال الديني، وصراعه وكفاحه ضد الشك الداخلي، رغم كل ذلك أو بسببه لم يستطع لوثر أن يحقق قفزة نوعية، فبقي مقيّداً ضمن عقد بولس اللاهوتية التي اصطدم بها الكثيرون قبله فوجدوها مبهمة غير مفهومة، ولم يكن لوثر أول من حاول استخلاص نتيجة منطقية لفكر بولس، فقد حاول مارسيونMarcion قبله أن يدفع بفكر بولس إلى خاتمة منطقية، وبالطبع لم يكن لفكره شيء من

هذا القبيل[٣٧]، كان لبّ المشكلة يكمن في تمسك لوثر "بكريستوس الهلنستي" الذي تخيله بولس، فلم يستطع إبصار الفارق الكبير بل الفجوة الشاسعة بين ديانة عيسى وديانة بولس، مع أنّ هذا الإبصار أو الاستبصار هو طريق الإصلاح الوحيد الذي الكنيسة بأمس الحاجة إليه، كان لوثر مصلحاً ولكنه في الوقت نفسه بقي تقليدياً متمسكاً بعقيدة النهاية الوشيكة وظهور عدو المسيح الرهيب[٣٨].

أما موضوع "عصمة الكتاب المقدس عن الخطأ" الذي تمسك به لوثر، فكان على المسيحية الانتظار أربعة قرون أخرى من الزمن قبل أن تظهَر الدراسات النقدية عن هذا الموضوع عندما بدأ علماء الكتاب المقدس في التاريخ الحديث بحثهم عن شخص عيسى المسيح التاريخي وتعمقوا في البحث عن أصل الكتاب المقدس ومؤلفيه.

غير أن الإصلاح الجذري الذي احتاجته المسيحية كان قد ظهر قبل لوثر بتسعة قرون من الزمن وإن كانت الكنيسة تجاهلته ولم تتمكن من استيعابه، فعندما جاء الإسلام بدا الفرق واضحاً بين ديانة عيسى وديانة بولس، إذ أعاد الإسلام لديانة الوحدانية نقاءها وشهِدَ بأن عيسى ومريم عليهما السلام بشر، غير أن الكنيسة التي ما انفكّت تعتبر عيسى التاريخي تهديداً لوجودها أصرّت على التمسك بموقفها[٣٩].

فرانك سبستيان Franck Sebastian:

برزت شخصية هامة جداً في عصر لوثر وهي شخصية فرانك سبستيان (١٤٩٩-١٥٤٢م) الذي يعتبر أحد كبار المفكرين في القرن السادس عشر تمكن من الوصول إلى اختراق معرفي ملفت للنظر بالنسبة لعصره وبيئته، كان سبستيان رافضاً للتقليد ذا فكر مستقل وبالتالي عانى من خيبة أمل شديدة من المؤسسة الكنسية فتحول في بادئ الأمر من الكاثوليكية إلى اللوثرية - البروتستانتية - وسرعان ما خاب أمله مجدداً بالحركة "الإصلاحية" التي لم

تعالج سوى الشكليات دون أن تتمكن من الوصول إلى الجوهر، نظر سبستيان إلى الكتاب المقدس على أنه كتاب طافح بالتناقضات التي تحجب رسالته الصحيحة، وكان يؤمن أن أعداء المسيح تمكنوا من التسلل إلى الكنيسة في اللحظة التي توفي فيها الحواريون بحيث لم يعد هنالك من مسيحية صحيحة منذ البداية وبحيث سيطر الهراطقة بمفردهم على كنيسة المسيح، ولاشك أن سبستيان تمكن بثاقب فكره من معرفة الفرق الشاسع بين نصارى المسيح وبين المسيحية التي انتصرت بعدهم، وقد دوّن سبستيان النتيجة التي خلص إليها كما يلي: (كل ما تعلمناه منذ طفولتنا – عن المسيحية – علينا أن ننبذه، ذلك أنه من الأسهل علينا أن نجعل من الأتراك المسلمين نصارى جيدين، من محاولة إصلاح المسيحي المكابر أو إصلاح رجل الدين المسيحي)(٤٠)، ومن الواضح أن سبستيان لم يكن مطلعاً على الفكر الإسلامي ليعرف أنه الوحي النهائي والأخير الذي نزل على البشرية والذي كان من ضمن مهامه إصلاح الكنيسة المسيحية.

٩- الأصولية:

شاع لدى الإعلام الغربي في الفترة الأخيرة إطلاق عبارة "المسلمين الأصوليين" أو "الإسلام الأصولي" بقصد إعطاء معنى التطرف والتشدد والتزمت والتعصب وحتى الإرهاب بين المسلمين، وقد تبعهم في ذلك عن سوء فهم بعض أجهزة الإعلام العربي، حتى انطبع في أذهان الكثيرين وخاصة الغربيين منهم أن لهذه الكلمة معنى إيديولوجي في الإسلام، مع أنّ الواقع يشهد بأن كلمة "أصولي" لا وجود لها البتة في قاموس الإسلام، فليس هنالك مسلم أصولي ومسلم غير أصولي، ولا إسلام أصولي أو إسلام غير أصولي، بل هنالك مسلم فقط، وإسلام فقط.

وقد رأينا كيف أن صفة "الأصولية" مسيحية غربية بحتة أُطلقت في الغرب على المسيحيين الذين اعتقدوا بالتفسير الحرفي للكتاب المقدس، كما اعتقدوا

بضرورة وجود دولة إسرائيلية في فلسطين يتجمع فيها يهود العالم كمقدمة ضرورية تمهّد للمجيء الثاني للمسيح، وبالتالي للمملكة الألفية السعيدة التي تنبأ بها يوحنا في "رؤياه".

يقدر عدد المسيحيين الأصوليين في الولايات المتحدة اليوم بحوالي ٦٢ مليوناً من السكان، أي أن أكثر من ثلث عدد البالغين الأمريكيين يؤمنون بقرب وقوع معركة أرمجدون الرهيبة ونهاية العالم الوشيكة، وفي الإحصائيات أن حوالي نصف خريجي الجامعات الأمريكية بانتظار المجيء الثاني للمسيح، أما عشرات الألوف من المبشرين البروتستانت المنتشرين في أنحاء العالم فإن تسعين بالمئة منهم أصوليون وبتصرفهم آلة دعائية هائلة مشتملة على مئات الإذاعات وقنوات التلفزيون الفضائية، وقد تبجح المبشر الأصولي جيري فالويل بأن حوالي ٢٠٠,٠٠٠٠ مئتي ألف من القساوسة الأصوليين في أمريكا على استعداد لوضع نفوذهم بخدمة إسرائيل.

أما الحزب الجمهوري فإن ثلث أعضائه حالياً من المسيحيين الأصوليين وهم ذوو نفوذ هائل في الحزب ويخططون لانتقاء رئيس جمهورية يكون أصولياً شديد التعصب، والخطير في الموضوع أن الولايات المتحدة التي تعيب على إيران وتتهم حكومتها بالأصولية المتطرفة هي نفسها في حالة هوس "ديني" بل في تحول تدريجي من دولة ديموقراطية إلى دولة ثيوقراطية متطرفة(٤١).

ومن المهم ملاحظة أن هذا الهوس الديني الأمريكي ليس حديث الولادة بل ضارب جذوره في التاريخ الأمريكي فهو امتداد للصحوات الدينية الأمريكية خلال القرن الثامن عشر الذي اتسم بكثرة الاجتماعات العامة للصلاة وانتشار الوعاظ والمواعظ والعواطف الدينية الجياشة الشعبية التي رافقتها.

وقبل ذلك في أوربا لوحظت موجات من التطرف الديني في القرون الوسطى تبلورت مثلاً في الحروب الصليبية التي تمت برعاية البابا والهيئات

الدينية المتعصبة ورافقتها أحياناً بعض مظاهر هوس "دينية" غير طبيعية كظاهرة الذين يطوفون في الشوارع وهم يعذبون أنفسهم بالجلد تعبيراً عن توبتهم وتأسست جمعيات خاصة بهم، وكظاهرة الرقص الجنوني dancing mania أو رقص المهووسين الذين كانوا يطوفون الشوارع أيضاً وهم يرقصون في حالة من الهستريا الجماعية وأطلقوا على هذه الظاهرة تعبير "رقص القديس فيتس" St. Vitus dance وأكثر ما انتشرت هذه الظواهر في ألمانيا وإيطاليا بين القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر.

غير أن تعبير الصحوة الدينية أو الإحياء الديني Revival أكثر ما ينطبق على حركة البروتستانت في كل من بريطانيا وأمريكا حيث وصلت موجات "الصحوة الدينية" فيهما إلى أوجها، وقد اتسم القرن الثامن عشر في أمريكا بشكل خاص بموجتين بارزتين أطلق عليهما الصحوة الدينية الأولى والصحوة الدينية الثانية.

الصحوة الدينية الأمريكية الأولى، وأطلقوا عليها اسم الصحوة الكبرى Great Awakening نشأت في ولايات نيو إنجلند - انكلترا الجديدة - في الشمال الشرقي وانتشرت منها إلى مناطق أخرى من أمريكا بدأت في العام ١٧٢٠م ثم بلغت ذروتها حوالي الفترة ١٧٤٠-١٧٤٢م واتسمت بتجديد الإيمان الشديد بقرب حدوث الألفية مما استدعى ضرورة التوبة العاجلة من قبل الجماهير قبل وقوع النهاية الوشيكة للعالم، وتجدر الإشارة أن جذور كل من جامعة برنستون Princeton وجامعة دارتموث Dartmouth الأمريكيتين تعود إلى هذه الصحوة الكبرى، وفيما بعد ذلك عُرفت هذه الصحوة لدى الأجيال الأمريكية بتعبير البروتستانتية الإنجيلية Evangelical Protestanism.

ثم في أواخر القرن الثامن عشر نشأت موجة ثانية من الإحياء الديني استمرت بشكل متقطع من العام ١٧٩٠م حتى العام ١٨٦١م وأطلقوا عليها اسم الصحوة الكبرى الثانية Second Great Awakening حيث بلغت ذروتها

خلال ١٨٥٩ - ١٨٦١م ورافقت هذه الصحوة الثانية المهاجرين الجدد الذين كانوا يتوسعون لاكتساب أراضي جديدة في القارة الأمريكية باتجاه الغرب ولكنها امتدت أيضاً شرقاً لتشمل سكان ولاية نيويورك وبقية سكان الولايات الشرقية، وقدروا أن الكنيسة اكتسبت خلالها ملايين المنتسبين الجدد لها.

وفي أوقات لاحقة صارت الكنائس تعتمد على "صحوات" أخرى ضماناً لاستمراريتها ونموها حتى أنها اتبعت أسلوباً جديداً - قبل ظهور الفضائيات والإذاعات - بتعيين قسس جوّالين يطوفون على الناس في أماكن إقامتهم، غير أن النشاط التبشيري لم يقتصر على الأرض الأمريكية وحدها وإنما تركز على اكتساب أكثر ما يمكن من الأتباع والبلدان خارج أمريكا، وأحياناً بنجاح كبير كما حدث مثلاً في الكثير من مناطق إفريقية وجنوب أمريكا وشرق آسيا التي دخلت المسيحية حديثاً، وهذه الظاهرة لاتزال مستمرة إلى يومنا هذا[٤٢].

مراجع الفصل العاشر:

1. (Canaan CFWH p. 31-39)
2. (Fuller NTAC p. 37)
3. (Fuller NTAC p. 5,145-148)
4. (Shaban TOC p. 10)
5. (Fuller NTAC p. 143-144)
6. (Halsell PAP p. 134), (Halsell FGH p.60)
7. (Fuller NTAC p. 144-145)
8. (Halsell PAP p. 135)
9. (from Shaban TOC p. 8)
10. (from Shaban TOC p. 3-4,16)
11. (from Shaban TOC p. 17)
12. (from Shaban TOC p.20)
13. (from Shaban TOC p.17).
14. (quoted from Shaban IAAT p.199)
15. (quoted from Shaban IAAT p. 197)
16. (Canaan, CFWH p.60)
17. (Halsell PAP p.139)
18. (Halsell PAP p.135-136)
19. (Halsell PAP p. 137)
20. (Kabbani, EMO p.110)
21. (Canaan CFWH p. 24)
22. (Canaan CFWH p.66-67), (Halsell FGH p.61)
23. (Halsell PAP p.141)
24. (Al-Sahrq Al-Awsat newspaper 27/6/2001), (Halsell FGH p.11,39,102)
25. (Schonfield MOM p.124,129)
26. (Halsell PAP p.11,133), (McGinn AntiChrist p.256)
27. (Funk HTJ p.6,13)
28. (Halsell PAP p. 98,120)

29. (Halsell PAP p. 11, 132)

30. (Canaan CFWH p. 164-165)

31. (Halsel PAP p.13-17), (Halsell FGH p.50)

32. (see Dawud MTB p. 92), (Izetbegovic IEW, p. 194 -200), (Dawes HJQ p.69)

33. (Canaan MAJ p. 273-277)

34. (see Dawud MTB p. 27-28)

35. (Izetbegovic IEW, p. 197)

36. (Izetbegovic IEW, p. 195)

37. (see Wilson PMA p. 234 quoting R.S.Wilson on Marcion, Study of a second century heretic)

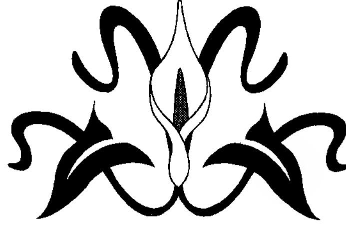
38. (McGinn AntiChrist p.201,213)

39. (Funk HTJ p. 21-23)

40. (Mcginn AntiChrist p.216-217)

41. (Halsell FGH p. 8,9,19,40,44,94,102,111)

42. (Wilson Brian Christianity p. 70-74, 82-98)



الملاحق والمراجع

- ملحق أ
- ملحق ب
- ملحق جـ
- مراجع الكتاب

ملحق أ

فلسطين والقدس، محطات تاريخية

(٢١٠٠-٢٠٠٠ ق.م) خلال هذه الفترة تقريبا كانت بعثة ابراهيم عليه السلام.

(١٦٣٠-١٥٢١ ق. م) فترة حكم الهكسوس في مصر وخلالها أقام يوسف عليه السلام فيها.

(١٢٩٢-١٢٢٥ ق. م) فترة حكم رمسيس الثاني: فرعون الاضطهاد.

(١٢١٣ ق. م)خروج بني اسرائيل من مصر مع موسى عليه السلام في عصر فرعون مصر (منفتاح)

(١٣١٠ ق. م) وفاة يوشع خليفة موسى وبداية عهد القضاة الذي استمر حوالي مئة سنة.

(١٠٢٠ ق.م) بداية ملك طالوت (شاؤول) في فلسطين وبداية عهد الملوك.

(٩٧٠ ق. م) بناء معبد سليمان في القدس؟

(٩٣٥ ق. م) وفاة سليمان بن داود عليهما السلام وانقسام اليهود إلى مملكتين اسرائيل (السامرة) شمالا، و(يهوّذا) جنوباً

(٧٢١ ق. م) سقوط مملكة اسرائيل وعاصمتها شكّيم (نابلس) بيد الآشوريين بقيادة ملكهم سرجون الثاني، وطرد سكانها اليهود إلى الأبد، ومنذ ذلك الحين ادعت جماعات عديدة أنها "قبيلة إسرائيل الضائعة"، منها شعب الخزر ومنها جماعات انكليزية وأمريكية.

(٥٨٦ ق. م) سقوط مملكة يهوّذا وعاصمتها (القدس) بيد الكلدانيين بقيادة نبوخذ نصّر وتدمير معبد سليمان.

(٥٨٦ ق. م) نفي اليهود من سكان يهوّذا إلى بابل.

(٥٣٩ ق. م) قورش ملك الفرس يستولي على بابل .

(٥٣٧-٥١٥ ق.م) عودة اليهود بقيادة زيروبابل من الأسر البابلي وإقامة معبد جديد في القدس.

(٣٣٢ ق. م) الاسكندر الكبير يستولي على فلسطين وانتشار الثقافة اليونانية فيها.

(٣٠٠-١٩٨ ق. م) البطالسة، خلفاء الاسكندر في مصر، يحكمون فلسطين.

(١٩٨ ق. م) أنطوخيوس الرابع (إبيفانس) أحد خلفاء الاسكندر الكبير يصبح ملكا على سورية ويحتل القدس.

(١٩٨-١٤٢ ق. م) السلوقيين، خلفاء الاسكندر في سورية، يحكمون فلسطين.

(١٦٤ ق. م) اليهود يحققون حكماً ذاتياً في القدس بعد ثورة اليهود الذين عرفوا بالمكابيين.

(٦٢ ق. م) الرومان بقيادة بومبيوس يحتلون فلسطين ويتركون لليهود الحكم الذاتي تحت إشراف الرومان.

(٣٠-٣٧م) بعثة عيسى المسيح ويحيى عليهما السلام .

(٦٦ م) الرومان بقيادة فيسبازيان -في عهد نيرون- يسحقون ثورة اليهود في القدس.

(٧٠ م) القائد الروماني تيطوس يحتل القدس ويخرب المعبد بعد ثورة اليهود وبدء عصر تشتتهم .

(١٣٥م) الإمبراطور الروماني أدريانوس يزيل معالم القدس والهيكل تماما وقتل وتشريد من بقي من اليهود، ويسمي القدس "عاصمة إيلياء" وهو اسمه الأول.

(١٣٥م) أدريانوس يقيم معبدا وثنيا سماه جوبيتر مكان مسجد سليمان، ثم يدمره قسطنطين الكبير٣٢٥ م.

(٣٢٥ م) المجتمع المسكوني الأول في نيقية (تركيا) برعاية قسطنطين الكبير امبراطور روما، ويحضره ٣١٨ فقط من أصل ١٨٠٠ من أساقفة الامبراطورية لبحث مبدأ التوحيد عند الأريسيين -ورثة النصارى-، ويقرر الحاضرون أن عيسى المسيح هو الابن المتزامن مع الأب.

(٣٣٥ م) بناء كنيسة القيامة.

(٤٣١ م) المجتمع المسكوني الثالث في إفسس (تركيا) يسمي السيدة مريم "والدة الإله" .

(٥٧٠ م) المولد النبوي الشريف (٢٠/٠٨/٥٧٠).

(٦٢٠ م) الاسراء والمعراج.

(٦٢٢ م) الهجرة النبوية.

(٦٣٨ م) المسلمون يفتحون القدس في خلافة عمر بن الخطاب، والعهدة العمرية مع البطرك سفرونيوس تحرم على اليهود دخولها .

(٦٩١ م) بناء جامع قبة الصخرة في خلافة عبد الملك.

(٧١٥ م) بناء المسجد الأقصى بالقرب من قبة الصخرة.

(١٠٩٥ م) الحملة الصليبية الاولى.

(١٠٩٩ م) استيلاء الصليبيين على القدس.

(١١٨٧ م) صلاح الدين يحرر القدس من الصليبيين.

(١٣٦١-١٤٥٢م) المسلمون يحتلون أجزاء كبيرة من أوروبا الشرقية .

(١٤٥٢م) فتح القسطنطينية على يد السلطان العثماني محمد الفاتح.

(١٤٩٢م) سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس.

(١٥١٦م) العثمانيون يدخلون سورية ويسيطرون على مصر والحجاز (السلطان سليم الاول).

(١٥٨٣م) السلطان سليمان القانوني يعيد بناء أسوار القدس (ونظام الري) ولا تزال قائمة الى اليوم.

(١٥٢٠م) مارتن لوثر يؤسس البروتستانتية في أوروبا، وبداية تهويد المسيحية الغربية.

(١٥٣٨م) هنري الثامن ملك بريطانيا ينفصل عن بابا روما وينهي وصاية الكهنوت على الكتاب المقدس.

(١٥٦١م) وليام الثالث ملك بريطانيا يسمح بعودة اليهود إلى بريطانيا -أيام أوليفر كرومويل- فيسمونه قورش اليهود، بعد أن كانوا طردوا منها عام ١٢٩٠م.

(١٦٥٣م) اوليفر كرومويل يحل البرلمان الإنكليزي ويستبدله بمجلس القديسين _أي البيوريتانيين المتهودين- مكوناً من سبعين عضوا أسوة بعدد أعضاء السنهدريم (المجلس اليهودي الأعلى القديم).

(١٧٨٠م) عدد المهاجرين اليهود إلى أمريكا يبلغ ٢٠٠٠ شخص وقت حرب الاستقلال الأمريكية.

(١٧٨٠م) الممول اليهودي هارون لوبيز من كبار الممولين لجيش الثورة الامريكية.

(١٧٩٨م) نابليون يصدر بياناً أثناء احتلاله مصر يحث اليهود على إنشاء مملكة القدس القديمة .

(١٨٦٠م) ارنست لاهاران السكرتير الشخصي لنابليون الثالث ينشر كتابه: المسألة الشرقية، إعادة بناء الأمة اليهودية.

(١٨٦٥م) إنشاء (صندوق اكتشاف فلسطين) برعاية الملكة فكتوريا وبرئاسة رئيس أساقفة كنتربري.

(١٨٧٨م) القس وليم بلاكستون ينشر كتابه (المسيح آت) في أمريكا، ويباع منه الملايين ويترجم إلى ٤٨ لغة، ويهدي نسخة منه إلى هرتزل عندما فكر بإقامة الوكالة اليهودية في اوغندا أو الأرجنتين، قائلا أن إرادة الرب قضت أن تكون فلسطين ميراثا أبديا لشعبه المختار، وأن هذا هو الطريق الوحيد للخلاص تمهيدا لعودة المسيح.

(١٨٧٩م) عدد المهاجرين اليهود الى أمريكا يبلغ ٢٥٠٠٠٠.

(١٨٩٧م) ثيودور هرتزل يعقد المؤتمر الصهيوني الأول في بال في سويسرا.

(١٩٢٠م) عدد المهاجرين اليهود الى أمريكا يبلغ ثلاثة ملايين.

(١٩١٧م) وزير خارجية بريطانيا جيمس بلفور يعلن وعده المشهور باقامة وطن قومي لليهود في فلسطين (نوفمبر ١٩١٧م).

(١٩١٧م) الانكليز يحتلون فلسطين والقدس بقيادة الجنرال اللنبي ويسهلون هجرة اليهود إلى فلسطين (ديسمبر ١٩١٧م) .

(١٩١٨م) الملك فيصل بن الحسين يتفق مع وايزمان ويعترف بوعد بلفور.

(١٩٢١م) إنشاء أمارة شرق الأردن بقيادة الأمير عبد الله بن الحسين كحاجز حماية بين اليهود والعرب .

(١٩٤٨م) الإنكليز يعلنون انسحابهم من فلسطين واليهود يعلنون إقامة دولة لهم فيها (١٤ أيار١٩٤٩م).

(١٩٤٩م) تقسيم القدس إلى جزأين شرقي للأردن وغربي لليهود بعد هزيمة الجيوش العربية أمام اليهود.

(١٩٦٧م) احتلال اليهود لكامل مدينة القدس والضفة الغربية وسيناء والجولان.

(١٩٧٧م) أنور السادات رئيس مصر يزور القدس ويعرض الصلح على اليهود.

(١٩٧٩م) أنور السادات يوقع الصلح مع اليهود مقابل انسحابهم من سيناء.

(١٩٨٠م) تأسيس السفارة المسيحية الدولية في القدس -سفارة المسيحية المتهودة -

(١٩٨٢م) اسرائيل تجتاح لبنان وتطرد الفلسطينيين من بيروت .

(١٩٨٥م) السفارة المسيحية الدولية تعقد المؤتمر الصهيوني المسيحي الأول في ٢٧/٨/ ٨٥م في بال – سويسرا، على غرار المؤتمر الصهيوني الأول في بال وفي نفس القاعة التي عقد فيها هرتزل المؤتمر الصهيوني الأول، وتقرر أن القدس، مدينة داود، عاصمة أبدية موحدة لإسرائيل، وأن يهودا والسامرة (المسماة خطأ الضفة الغربية) -كذا – جزء من اسرائيل بالحق التوراتي.

(١٩٨٨م) السفارة المسيحية الدولية تعقد في ١٠-١٥/٤/٨٨م المؤتمر الصهيوني المسيحي الثاني في القدس، احتفالا بالذكرى الأربعين لقيام إسرائيل، وتصدر قراراتها بإثبات الحق المقدس لليهود أن يعيشوا أحرارا في كامل أرض إسرائيل، وتقرر أيضا أن (الأرواح الشريرة للإسلام) -كذا- مسؤولة عن العبودية الروحية في العالم العربي، وعن العداء للسامية، والابتزاز النفطي، والسخرية من الله -كذا- لوجود مسجد إسلامي كبير في أقدس بقعة، يعتبر وصمة للموقع المقدس للهيكل اليهودي، ولذلك ليكن دعاؤكم ضد روح الإسلام -كذا -

(١٩٩٣م) توقيع اتفاقية الصلح بين السلطة الفلسطينية وإسرائيل .

(١٩٩٤م) توقيع الصلح بين الأردن وإسرائيل .

(٢٠٠٠م) اندحار إسرائيل من جنوب لبنان (مايو).

إفساد اليهود في فلسطين:

من جملة ما يفيدنا التأريخ الفلسطيني المذكور أعلاه دراسة قوله تعالى عن بني إسرائيل في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولا (ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمْ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/٤-٨].

أما قضاؤه تعالى لهم في الكتاب فمذكور في كتبهم بالعهد القديم (سفر اللاويين ٢٦/١٤-٣٩) و (سفر التثنية ٢٨/١٥-٦٨)، وهو يتضمن العواقب الوخيمة جداً -المذكورة بالتفصيل- التي تنتظرهم في حال معصيتهم وعدم استجابتهم للرسالة الإلهية، حتّى أنّ المسيح قال لأحد الحواريين متنبئاً بدمار القدس والمعبد: (أترى هذه الأبنية العظيمة؟ لا يُترك فيها حجر على حجر لا يُنقض) (مرقس ١٣/٢)، وأما إفسادهم في الأرض مرّتين فليس بالضرورة مقتصراً على مرّتين بالعدد وإنما إفسادهم خلال حقبتين طويلتين من تاريخهم[1]، بدليل أن القرآن الكريم والكتاب المقدّس يذكران الكثير من معاصيهم وجرائمهم المستمرة، ليس أقلّها عبادتهم آلهة وثنية، وتحويل معبد القدس إلى معبد آشوري في عهد ملوكهم آحاز Aha، ومنسّى Manasseh (٦٨٧-٦٤٢ ق م)[2]، وتسطيرهم في العهد القديم من المخازي والفساد والإفساد لا يحصى.

وأما الإشارة لعباده تعالى فليسوا بالضرورة أنّهم من المؤمنين لأن الخلق كلهم عباد الله، طوعاً أو كرهاً، ويبدو أن المرة الأولى، المشار لها بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا﴾، تشير إلى الآشوريين بقيادة سرجون الثاني الذين اجتاحوا فلسطين وقضوا على مملكة إسرائيل الشمالية (٧٢١ ق م)، ونفوا، وشتتوا قبائل

إسرائيل العشرة نهائياً إلى غير رجعة، ثم بعد ذلك بحوالي ١٣٥ عاماً اجتاح البابليون بقيادة نبوخذنصّر مملكة يهوذا الجنوبية ودمّروا القدس والمعبد وأخذوا ما تبقّى من بني إسرائيل إلى ما صار يعرف بالنفي البابلي (٥٨٦ ق م)، وكل ذلك يفيده معنى قوله تعالى: ﴿ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً﴾.

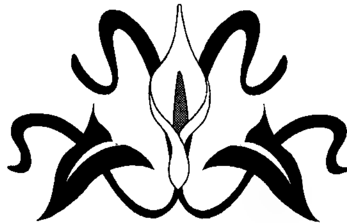
ثم بعد اجتياح الفرس لبابل (٥٣٧ ق م)، سمح لهم قورش ملك الفرس بالعودة لفلسطين حيث أعادوا بناء المعبد، وقد يكون ذلك معنى قوله تعالى ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمْ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ .

أما المرة الثانية المشار لها بقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ فيُحتمل أنها إشارة إلى هزيمتهم ونفيهم وتشتيهم نهائياً في أنحاء الأرض بعد دخول الجيوش الرومانية القدس بقيادة تيطوس Titus (٧٠م)، ثم عام (١٣٥م) بقيادة أدريانوس، وتدمير القدس والمعبد الثاني.

ثم قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ بمعنى كلّما تكررت جرائمكم ومعصيتكم وإفسادكم عُدنا إلى عقابكم، وهي إشارة إلى سنّته تعالى في الخلق، وفي الأسباب والمسبَّبات، من حيث أنّ الأمم التي تطغى وتنشر الفساد تؤول عاقبتها إلى الزوال .

المراجع:

1.(Asad MTQ, p.418
2. (Rhymer ATB, p. 50-52)



ملحق ب

(تابع الفصل الأول)

مقولة النسخ المنسوبة للقرآن الكريم

إنّ آية النسخ المذكورة بقوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢/١٠٦]، والتي يرتكز عليها البعض لتبرير ما يظنونه نسخ بعض آيات القرآن بأُخرى، لا تعدو كونها استمراراً مباشراً لما سبقها من الآيات من حيث أنها إجابة على الشكوك التي حاول اليهود نشرها، إذ قالوا طالما أن القرآن والكتب السابقة منزّلة من الله فلماذا أبدل القرآن بعض النصوص والأحكام في الشرائع السابقة بأحكام جديدة؟ كما أبدوا استغرابهم من إدانة القرآن لهم لكونهم أضاعوا جزءاً من كتبهم، فقد زعموا استحالة ضياع الوحي الإلهي من الكتب أو من ذاكرة البشر، وفي كل ذلك لم يكن هدفهم موضوعيا ولكن لإلقاء الشكوك حول أصالة القرآن، فنزلت الآية بأنّ ما ينسخه تعالى من الشرائع السابقة وأحكامها، أو ما ينساه البشر أو يحرّفونه أو يضيعونه أو يبتكرون غيره -كما أضاعوا التوراة والإنجيل- يُنَزّل الله مثله أو خيراً منه في القرآن، وأنّ كل شريعة سابقة نزلت في وقتها لتناسب عصرها، إلى أن ختمت الرسالات السماوية ببعثة خاتم الأنبياء والرسل الذي أرسل رحمة للعالمين جميعا وليس لأمة بعينها، وهذا المعنى شبيه بقوله تعالى: ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ١٣/٣٩]

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ١٠١/١٦]. بمعنى أنه تعالى نزّل الرسالات السماوية بالتدريج واحدة تلو الأخرى بحسب تطور الإنسان الفكري والاجتماعي ولمّا ختمها برسالة القرآن اتهم أهلُ الكتاب النبيّ بالافتراء.

وقد نسب تعالى الإنساء إلى ذاته العلية بقوله: ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ مع أنّ النسيان من فعل البشر، فكل شيء في الكون يسير بتقدير من الله ولا يمنع ذلك أن الإنسان مختار لأعماله، قال تعالى عن اليهود ﴿ ونسوا حظّا ممّا ذكّروا به﴾ [المائدة: ١٣/٥]، وقال عن المسيحية أيضاً ﴿فنسوا حظّاً ممّا ذكّروا به﴾ [المائدة: ١٤/٥]، وما ذكّروا به هو الذكر -أي الوحي- الذي نزل على أنبيائهم، وسُمّي الوحي ذِكراً لكونه يذكّر البشر بالميثاق الفطري المأخوذ عليهم [الأعراف: ١٧٢/٧]، [الرعد: ١٩/١٣-٢٠].

أما لو قبلنا رأي بعض المفسرين أنّ المقصود من آية [البقرة: ١٠٦/٢] وآية [الرعد: ٣٩/١٣] نسخ بعض آيات القرآن الكريم، فعندئذٍ لا يستقيم المعنى ولا يحصل بين هذه الآيات و ما قبلها أو بعدها علاقة ولا ارتباط، وينقطع النظم القرآني، ويحصل فساد في الترتيب ممّا لا يليق بكلام الله تعالى، ولكن يستقيم النظم سابقاً ولاحقاً عندما يكون المقصود نسخ الشرائع السابقة.

وقد ذكر الرازي عن المفسر الشهير أبي مسلم محمد بن بحر الأصفهاني (أنّ المراد من الآيات المنسوخة هي الشرائع القديمة من التوراة والانجيل) وأن (ليس في القرآن آية منسوخة و أنّ النسخ خلاف الأصل فوجب المصير إلى عدمه بضرب من التخصيص أو التأويل)، ويعتمد الأصفهاني على التخصيص والتأويل لإبطال كل ما قاله بعض المفسرين عن نسخ بعض الآيات القرآنية، إذ ثبت في علم أصول الفقه أنّه إذا وقع التعارض بين النسخ والتخصيص كان التخصيص أولى، أي أن معنى الآية التي يقولون أنّها منسوخة ينصرف إلى إيضاح حالة

خاصة، (أما قولهم بالنسخ فهو بعيد، فكأنهم شغفوا بتكثير الناسخ والمنسوخ من غير ضرورة ولا حاجة، والحقّ ما قرره أصحاب أصول الفقه أن الأصل عدم النسخ، فوجب السعي بتقليله قدر الإمكان) (الرازي).

كما ذكر الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار ما يلي: (كان لبعض العلماء ولع بتكثير استخراج الناسخ والمنسوخ من القرآن لما فيه من الدلالة على سعة العلم بالقرآن، وإن كان علما بإبطال القرآن بادي الرأي، من غير حجة تضاهي حجة القرآن في القطع والقوة، ولا ينبغي للمؤمن أن يحسب هذا هيّنا وهو عند الله عظيم) (المنار ص١٢١/ج٢).

يضاف إلى ذلك أنه ليس لفكرة نسخ الآيات القرآنية أساس تاريخي أو سند صحيح في السنّة، وترجع في أصلها إلى: أولا: عجز المفسرين عن التوفيق بين بعض آيات القرآن الكريم وبعضها الآخر، فيتجاوزون هذه الصعوبة بمقولة النسخ بطريقة اعتباطية ليس فيها إجماع حتى بين مؤيدي مقولة النسخ أنفسهم، **وثانياً**: بسبب اعتبارهم كلمة (آية) بمعناها الضيّق فقط على أنها جملة من القرآن الكريم مع أنها تحتمل عدة معاني بحسب سياق الكلام: فهي أحيانا الرسالة السماوية، كقوله تعالى ﴿وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٦/٤]، أو الإشارة أو العلامة كقوله تعالى على لسان فرعون مخاطبا موسى ﴿ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٦/٧]، وأحيانا أخرى تعني ظواهر الطبيعة وعجائب الخلق لأنها تشير الى الحقيقة الغيبية المحجوبة بالظاهر، كقوله تعالى: ﴿ وَفِي الأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠/٥١]، وهي أيضاً معجزات الأنبياء، أي الإشارات الإلهية التي تؤيدهم، كقوله تعالى على لسان نبيّه صالح ﴿ هَذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [الأعراف: ٧٣/٧]، كما أنّ جُمل القرآن الكريم أيضاً آيات، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ﴾ [الحج: ١٦/٢٢]، لأنّها تشير إلى الحقيقة المطلقة

ولأن أسلوبها وصياغتها ومضمونها وإعجازها كلّ ذلك يعتبر إشارات واضحة لمصدرها، **وثالثاً**: بسبب اعتبارهم آية النسخ هذه بمعزل عن سياق المعنى، مما يفسد النظم القرآني ولا يليق بكلامه تعالى.

ثم إنّه لا يوجد إجماع بينهم على الآيات التي يُزعم أنها منسوخة، فالزُهري (المتوفّى ٧٤٢م) قرّر أنها ٤٢ آية، ثم ازداد العدد بعده باطراد حتى زعم ابن سلامة (المتوفّى ١٠١٨م) أن عددها ٢٤٨، وبعده عاد العدد للتناقص فقال السيوطي (المتوفّى ١٥٠٥م) أن عددها ٢٠ فقط، ثم قال شاه ولي الله الهندي (المتوفى ١٧٦٢م) أنها خمسة.

ومِن ذلك مثلاً آيات تحريم الخمر الواضح أنها ليست سوى تدرج في التشريع نحو التحريم:

١. ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٦/٦٧].

٢. ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢١٩].

٣. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤/٤٣]

٤. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٥/٩٠].

وآيات تعيين القبلة ليست سوى نسخ السنة النبوية بالقرآن:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢/٢].

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة :١٤٤/٢].

كان النبي (ﷺ) في مكة يصلّي تجاه الجدار الجنوبي للكعبة، متجهاً شمالاً، مستقبلاً الكعبة وبيت المقدس معاً، ولمّا هاجر الى المدينة استمرّ في التوجه شمالاً لحوالي ست عشر شهراً حتى نزل الوحي بالتوجّه نحو الكعبة، فامتعض يهود المدينة، والآية (١٤٢/٢) تشير إليهم، فمن وجهة نظر قرآنية لم يكن هنالك تغيير لوجهة القبلة لأنّ الآية (١٤٤/٢) أوّل ما نزل بتعيينها، وإنما نُسخت السنة النبوية بها، والتسلسل بين الآية ١٤٢ والآيات التي سبقتها من حيث أنّ ابراهيم، عليه السلام، هو الذي بنى الكعبة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ولاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢/٢٢] فقد يكون أنه نسخ الحديث الشريف بالقرآن، أو أنه النسخ لما يحاول الشيطان إلقاءه في روع الأنبياء من مطامع الدنيا، وليس في الآية ما يدل على غير هذا المعنى، ومع ذلك تداول كلّ من الطبري والواقدي وابن سعد قصة الغرانيق -الآيات الشيطانية-، على عدم ورودها في سيرة ابن هشام، والتي يغلب أنها لُفّقت من قبل الزنادقة، في وقت متأخر، خصيصاً لابتداع معنى لهذه الآية، ثم إنّ القصة لاقت قبولاً عند بعض معتقدي النسخ.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى ﴾ [الأعلى: ٨٧/٦] ، ذَكَرَ القرطبي والألوسي أنّ تقدير الخطاب: فلا تنسى العملَ به، وقال الرازي: المعنى سنعلمك هذا القرآن حتى تحفظه وليعلم أن عدم النسيان من فضله تعالى وإحسانه (انتهى). وأما قوله: ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأعلى: ٨٧/٦]، فلا يفيد سوى تعلّق الأمر بالمشيئة العليا، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وذكر الألوسي أنّ الاستثناء على هذا النحو لتأكيد عموم النفي في قوله (فَلاَ تَنسَى)، لا لنقض عمومه، وللتذكير بالإعجاز من حيث أن القرآن الذي نزل على النبي الأميّ (ﷺ) منجّماً مفرّقاً على مدى ثلاث وعشرين عاماً، حفظه النبي كما نزل، وأمر بوضع كل آية من الآيات في موقعها الصحيح من السور القرآنية، على اختلاف تاريخ نزولها، وليس في كل ذلك ما يفيد النسخ لا من قريب ولا من بعيد .

ملحق جـ

أسفار الكتاب المقدس

أسفار العهد القديم وهي ٣٩ تسعة وثلاثون سفراً :

١ـ سفر التكوين Genesis	٢ـ سفر الخروج Exodus	٣ ـ سفر اللاوينLeviticus
٤ـ سفر العدد Numbers	٥ـ سفر التثنية Deutronomy	٦ ـ سفر يشوع Joshua
٧ـ سفر القضاة Judges	٨ - سفر راعوث Ruth	٩ - سفر صموئيل الأول1 Samuel
١٠- سفر صموئل الثاني2Samuel	١١ـ سفرالملوك الأول 1 Kings	١٢ـ سفر الملوك الثاني 2 Kings
١٣- سفر الأيام الأول1Chronicles	١٤- سفر الأيام الثاني2Chronicles	١٥ ـ سفر عزرا Ezra
١ـ سفر نحميا Nehemiah	١٧ـ سفر استير Esther	١٨ ـ سفر أيوب Job
١٩ـ سفر المزامير Pslams	٢٠ ـ سفر الأمثال Proverbs	٢١ ـ سفر الجامعة Ecclesiastes
٢٢ـ نشيد الانشاد Solomon Song	٢٣ ـ سفر أشعيا Isaiah	٢٤ ـ سفر أرميا Jeremiah
٢٥ ـ سفر المراثي Lamentations	٢٦ ـ سفر حزقيال Ezekiel	٢٧ ـ سفر دانيال Daniel
٢٨ ـ سفر هوشع Hosea	٢٩ ـ سفر يوئيل Joel	٣٠ ـ سفر عاموس Amos
٣١ ـ سفر عوبديا Obadiah	٣٢ ـ سفر يونان Jonah	٣٣ ـ سفر ميخا Micah
٣٤ ـ سفر ناحوم Nahum	٣٥ ـ سفر حبقوق Habakkuk	٣٦ ـ سفر زفنيا Zephania
٣٧ ـ سفر حجي Haggai	٣٨ ـ سفر زكريا Zechariah	٣٩ ـ سفر ملاخي Malachi

أسفار العهد الجديد وهي ٢٧ سفراً :

١ ــ سفر متى Matthew

٢ ــ سفر مرقس Mark

٣ ــ سفر لوقا Luke

٤ ــ سفر يوحنا John

٥ ــ أعمال الرسل Acts of the Apostles

٦ ــ رسالة بولس إلى روما Romans

٧ - رسالة بولس الأولى إلى كورنثية 1 Corinthians

٨- رسالة بولس الثانية إلى كورنثية 2 Corinthians

٩ ــ رسالة بولس إلى غلاطية Galatians

١٠ ــ رسالة بولس إلى افسس Ephesians

١١ ــ رسالة بولس إلى فيليبي Philippians

١٢ ــ رسالة بولس إلى كولوسي Colossians

١٣- رسالة بولس الأولى إلى تيسالونيكي 1 Thessalonias

١٤- رسالة بولس الثانية إلى تيسالونيكي 2 Thessalonians

١٥ - رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس 1 Timothy

١٦- رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس 2 Timothy

١٧ ــ رسالة بولس إلى تيطس Titus

١٨ ــ رسالة بولس إلى فيليمون Philemon

١٩ ــ رسالة بولس إلى العبرانيين Hebrews

٢٠ ــ رسالة جيمس (يعقوب) James

٢١ ــ رسالة بطرس الأولى 1 Peter

٢٢ ــ رسالة بطرس الثانية 2 Peter

٢٣ ــ رسالة يوحنا الأولى 1 John

٢٤ ــ رسالة يوحنا الثانية 2 John

٢٥ ــ رسالة يوحنا الثالثة 3 John

٢٦ ــ رسالة يهوذا Jude

٢٧ ــ رؤيا يوحنا Revelation

مراجع الكتاب

References and Abbreviations:

References and Abbreviations:

1. Ali, Abdullah Yusuf, The Meaning of the Holy Qura'n, (THQ), Amana Corporation, 1992,Maryland, USA.
2. Allegro, John M., The Dead Sea Scrolls and the Christian Myth, (DSS), Prometheus Books, 1992.
3. Asad, Muhammad,The Message of the Qura'n, (MTQ), Dar Al-Andalus, 1984.
4. Baigent, Michel & Leigh, Richard, The Dead Sea Scrolls Deception (DSSD), Touchstone Boks, N.Y. 1993.
5. Ben Nabi, Malek, The Qura'nic Phenomena , (QP), 1986 (Arabic الظاهرة القرآنية).
6. Canaan, Georgie, Christian Fundamentalism in the Western Hemisphere, (CFWH), (Arabic الأصولية المسيحية في نصف الكرة الغربي), Biesan Press, Beirut, Lebanon. 1995.
7. Canaan, Georgie, Muhammad &Judaism, (MAJ), (Arabic محمد واليهودية) Biesan Press, Beirut, Lebanon. 1999.
8. Crossan, John Dominic, The Historical Jesus, (THJ), Harper Collins, 1992.
9. Dawes, Gregory W., The Historical Jesus Quest (HJQ), Deo Publishing, 1999.
10. Dawud, Abdul Ahad, (Reverend Professor David Benjamin Keldani), Muhammad in the Bible, (MTB), Islamic Propagation Center International, Durban, South Africa, 1990.
11. Deedat, Ahmed, (TC), The Choice.
12. Eisenman, Robert, James the Brother of Jesus, (JBJ), Penguin Books, 1997.
13. Eusibius, The History of the Church, (HTC), Penguin Classics, 1989.
14. Ferguson, Everett, Backgrounds of Early Christianity, (BEC), Eerdmans Publishing Company, Michigan, 2nd Edition 1993.
15. Freke, Timothy & Gandy, Peter, The Jesus' Mysteries, (TJM), Harmony Books, N.Y., 1999.

16.Fuller, Robert, Naming The Antichrist, The History of An American Obsession, (NTAC), Oxford University Press, 1995.
17.Funk, Robert W., Honest to Jesus, (HTJ), Harper San Francisco, 1996.
18.Funk, Robert W., The Five Gospels, (TFG), The Jesus Seminar, Macmillan Publishing Co. New York, 1993, also Harper Collins, Harper, San Francisco.
19.Grant, Michael, Jesus, (J), Phoenix Giant, 1999.
20.Grant, Michael, The Twelve Caesars, (TTC), Phoenix Giant, 1996.
21.Halsell, Grace, Prophesy and Politics, (PAP), The Secret Alliance Between Israel and the U.S. Christian Right, Lawrence Hill Books, 1986.
22.Halsell, Grace, Forcing God's Hand, (FGH), CrossRoads Int. Pub., 1999.
23.Hart, Michel, The Top One Hundred, (TOH).
24.The Holy Bible, King James Version (KJV).
25.Hoffman, Murad, Islam The Alternative, (ITA), Garnet Publishing Ltd., Reading, U.K., 1993.
26.Izetbegovic, Alija Ali, Islam between East and West, (IEW), American Trust Publications, 1989.
27.Kabbani, Rana, Imperial Fictions, Europe's Myths of Orient, (EMO), Pandora An Imprint of Harper Collins Publishers, 1993.
28.Kelber, Werner H., The Oral and the Written Gospel, (OWG), Indiana University Press, 1997.
29.Knight, Christopher and Lomas, Robert, The Second Messiah, (TSM), Arrow Book Ltd, London, UK.
30.Lang, Jeffrey, Struggling to Surrender, (STS), Amana Publications, Maryland, USA, 1995.
31.Lang, Jeffrey, Even Angels Ask, (EAA), Amana Publications, Maryland, USA, 1997.
32.Laidler, Keith, The Divine Deception, (TDD), HeadLine Publisher, London, 2000.
33.Larson, Martin A., The Story of Christian Origins, (SCO), Village Press, Oklahoma, 1977.
34.Le Glay Marcel, Voisin Jean-Louis, Le Bohec Yann, A History Of Rome, (HOR), Blackwell Publishers, 1997.
35.Livingstone, E.A., Oxford Dictionary of the Christian Church, (ODCC), Oxford University Press, 2000.
36.Maccoby, Hyam, The Mythmaker, (TMM), Paul and the invention of Christianity, Barnes and Noble Publishers, 1998.

37.Maalouf, Amin, The Crusades in Arab Eyes, (CAE), Schocken Books, New York, Al Saqi Books, London, 1984.

38.McGinn, Bernard, AntiChrist, Columbia University Press, N.Y. 2000.

39.Mack, Burton L., Who Wrote The New Testament? (WWNT), Harper Collins, 1995.

40.Miller, Robert J., Editor,The Complete Gospels, (TCG), Harper Collins, .

41.Mitchel, Stephen, The Gospel According To Jesus, (GAJ), Harper Perennial.

42.Pagels, Elaine, The Gnostic Gospels, (TGG), Vintage Books, NY, 1989.

43.Parrinder, Geoffrey, Son of Joseph, (SOJ), T&T Clark, Edinburgh, 1992.

44.Parrinder, Geoffrey, Jesus in the Qura'n, (JIQ), Sheldon Press, London, 1979.

45.Rhymer, Joseph, Atlas of the Bible, (ATB), Chartwell Books, NJ, 1996.

46.Robinson, James, The Nag Hammadi Library, (NHL), Harper San Francisco, 1990.

47.Robinson, Neal, Discovering The Qura'n, (DTQ), SCM Press Ltd, 1996.

48.Rubenstein, Richard E., When Jesus Became God, (WJBG), Hartcourt Pub. 1999.

49.Ryan, John K., The Confessions of St. Augustine, (CSA), Image books Doubleday publication. 1960.

50.Sanders, E.P., The Historical Figure of Jesus, (HFJ), Penguin Books, 1993.

51.Sanders, E.P., Paul, (P), Oxford Univesity Press, 1996.

52.Sanders, E.P., Paul and Palestinian Judaism, (PPJ).

53.Schonfield, Hugh, The Passover Plot, (TPP), Element Publishers, 1994.

54.Schonfield, Hugh, The Essene Odyssey, (TEO), Element Publishers, 1993.

55.Schonfield, Hugh, The Mystery of the Messiah, (MOM), Open Gate Press, London, 1997.

56.Shaban, Fuad, Islam and Arabs in Early American thought, (IAAT), The Roots of Orientalism in America, Acorn Press, Durham, N. Carolina, 1991.

57.Shaban, Fuad, Tapestry of Colors, (TOC), The Orient in the Mind of America, 1997.

58.Spong, John Shelby, Liberating the Gospels, (LTG), Harper San Francisco, 1996.

59.Spong, John Shelby, Rescuing The Bible From Fundamentalism, (RBF), Harper San Francisco, 1992.

60.Spong, John Shelby, Why Christianity Must Change or Die, (WCMCD), Harper San Francisco, 1998.

61.Tacitus, The Annals of Imperial Rome, (AIR), Penguin Books 1996.

62.Vermes, Geza, Jesus The Jew, (JTJ), SCM Press, 1998.

63.Vermes, Geza, The Changing Faces of Jesus, (CFJ), Allen Lane, The Penguin Press, 2000.

64.Wells, G.A., The Jesus Myth, (TJM), Open Court Publishers, 1999.

65.Wilson, A.N., Jesus, a Life, (JAL), Fawcett Columbine, 1992.

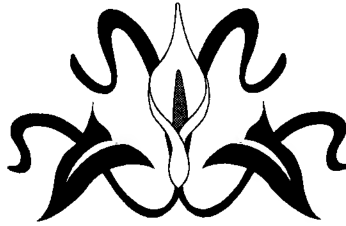
66.Wilson, A.N., Paul, The Mind of the Apostle, (PMA), Norton & Co., 1997.

67.Wilson, Brian, Christianity, Routeledge, London, 1999.

٦٨- تفسير المنار - الشيخ محمد رشيد رضا.

٦٩- التفسير الكبير - الرازي.

٧٠- مقدمة ابن خلدون.



MUHAMMAD FARUK ZEIN

CHRISTIANITY, ISLAM and ORIENTALISM

المسيحية والإسلام والاستشراق

استناداً على أبحاث أكاديمية غربية في الكتاب المقدس، كثرت بشكل خاص خلال العقود الثلاثة الأخيرة، يقدم المؤلف عرضاً عن نشأة الكتاب المقدس ونشأة المسيحية وعلاقتها بعيسى المسيح عليه السلام، وضمن ذلك يحلل المؤلف الأسباب التي أدت إلى انتصار المسيحية التي ابتدعها بولس على حركة النصارى الأوائل من صحابة وأتباع عيسى المسيح، هذا النصر الذي تم تتويجه في العام ٣٢٥م بقرارات مجمع نيقية التي كرست المسيحية رسمياً، وكيف أن ظهور الإسلام بعد انعقاد مجمع نيقية بثلاثة قرون أعاد لرسالة عيسى المسيح نقاءها، ولا يكتفي المؤلف بمقارنة مسيحية بولس مع المعتقدات النصرانية، بل يتبع المقارنة بشرح المنظور الإسلامي، كما يلاحظ العديد من نقاط الالتقاء بين معتقدات النصرانية وبين الوحي القرآني، ويركز على أنّ تدهور الإيمان الديني لدى المثقفين، سببه أنّ المفكرين والمثقفين يبحثون عن ديانة عقلانية وليس ديانة ميثولوجية.

ومن كل ذلك يخلص المؤلف إلى عرض المعتقدات الأصولية المسيحية عند الغربيين باعتبارها القوة الدافعة التي تتكيف بموجبها سياسة الغرب تجاه فلسطين خاصة، وتجاه منطقة الشرق الأوسط عامة.

المؤلف محمد فاروق فارس الزين، مهندس مدني استشاري، أقام في سورية والسعودية والولايات المتحدة وكندا، تلقى تعليمه الثانوي في دمشق، وتعليمه الجامعي في الجامعة الأمريكية في بيروت، والدراسات العليا في الهندسة في الولايات المتحدة الأمريكية، ومن اهتماماته الدراسة المقارنة للأديان، سبق له أن ترجم للعربية كتاب (محمد في الكتاب المقدس) لمؤلفه القس دافيد بنجامين كلداني المعروف باسم عبد الأحد داوود، وكتب أخرى في هذا المجال.

توزيع
دار الفكر
دمشق - سورية

ISBN 1-57547-806-4
9 781575 478067